تعريف المؤتسي بأحوال النفس

للعارف بالله محمد الزمزمي الصوفي أبي عبد العزيز بن الصديق
الغماري قدس الله سره



تَعريفُ المُؤْتَسِي بِأَحوالِ نَفسِي

للعارف بالله جمال الدين الصوفي أبواليسر عبد العزيز بن الصديق

الغماري الحسني قدس الله سره

الطبع والنشر

دار الروضة الإسلامية

جاكرتا إندونيسيا

الكتاب : تعريف الموءتسي بأحوال نفسي

التصنيف : التصوف

المؤلف : عبد العزيز بن محمد بن الصديق الغماري

الناشر : دار الروضة الاسلامية - جاكرتا اندونسيا

سنة الطباعة : شعبان ١٤٣٧ه /ابريل 2017

ISBN 978-602-61444-4-7





Daar Arraudhah Al-Islamiyah
Tebet Barat VII No. 50,
Jakarta Selatan - DKI Jakarta - Indonesia
Telp. +62 21 8379 4508

Zawiyah Arraudhah Ihsan Foundation

Zawiyah Arraudhah Ihsan Foundation

zawiyah.arraudhah

@zawiyaharraudhah

www.zawiyah-arraudhah.com

تَعريفُ المُؤْتَسِي بِأَحوالِ نَفسِي

للعارف بالله جمال الدين الصوفي أبواليسر عبد العزيز بن الصديق

الغماري الحسني قدس الله سره

الطبع والنشر

دار الروضة الإسلامية

جاكرتا إندونيسيا

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الطاهر الأمين وعلى آله وصحبه.

وبعد: فقد أفْرَد جمعٌ كبير من العلماء والفضلاء في السابق كتباً في ذِكر أخبارهم وتراجمهم، وأحوالهم السَّنِيَّة، إظهاراً لفضل الله تعالى وتحدثاً بنعمه عز وجل عليهم.

وهذا الكتابُ الذي بين يديك أخي القارىء من هذا النوع، أَفْرَده لترجمته وذِكْرِ أخباره أحدُ أعلام العِلم والمعرفة في العصر الحديث، الإمام العلّامة المطّلع المحدِّث النّاقد، صاحب التآليف الكثيرة في الحديث والفقه والتصوف، والدِي السيد عبد العزيز بن محمد بن الصديق، الغماري، الحَسَني، المتوفى سنة ١٤١٨هـ، الموافق ١٩٩٧م بِثَغر طنجة، شمال المغرب.

تحدَّث رحمه الله في هذه الترجمة عن مختلف أحوال نفسه، وما رآه رحمه الله من مِنَن الله العظيمة عليه، فسطرها شكراً لله تعالى، وامتثالا لقوله عز وجل: ﴿ وأمَّا بِنعمةِ ربك فحَدِّث ﴾. وليفتح بها باباً للمقتدي، الباحثِ عن العلم والمعرفة وكيفية توسيع مداركهما، حتى يسير على نحو الذي سار هو عليه، وينهج نفس النهج الذي نهجه رحمه الله في طريق الأخذ والتعليم. ولعل هذا من أجلِّ مقاصد الاطلاع على أخبار العلماء وإفراد التراجم لهم؛ قال صاحب الترجمة رحمه الله في مقدمتها بعد ذكره لفوائد التراجم وأخبار العلماء: ".. ليعلم الطالب أن قراءته لترجمة عالم أو وَلِيٍّ ليس الغرض منها معرفة خبره والاطلاع على حاله فحسب، بل الغرض الأكبر من ذلك هو الاقتداء به والاهتداء بهديه، واتباع طريقته والعمل على التخلق بما كان عليه من جميل الأخلاق وحسن الأفعال..".

وقد كُتِبت هذه الترجمة في مرحلة متقدمة مِنْ حياة صاحبها، حيث فرغَ المؤلف من جمعِها سنة ١٣٧١هـ، فلهذا لن تجِدَ فيها ذِكراً لِكثيرٍ من أخباره، ولا تعبيراً عن مواقِفه في بعض الأحداث

التي عرفتها الأمة الإسلامية، وهي كثيرة جداً، ولا لكثير من المصنفات لتأخر وقت تصنيفها.

فاكتفى في هذه الترجمة بذكر نشأته، ورعاية والده العلَّامة الإمام الشهير العارف بالله السيد محمد بن الصديق رضي الله عنه، المتوفى بطنجة سنة ١٣٥٤هـ، الذي كان له عظيم الأثر عليه بتوجيهاتِه العظيمة، إذ رسَمَت له معالم منيرة في طريق تعلُّمِه وحياته العلمية بصفةٍ عامة.

ثم ذَكَر أخباره في التلقي عن الشيوخ في بلده وفي الأزهر الشريف بمصر، ومترجماً لهم، وفي مقدِّمتهم شقيقه الأكبر الحافظ الكبير السيد أحمد بن الصديق، المتوفى سنة ١٣٨٠هـ.

وذَكَر فيها أيضاً عدداً من مؤلفاته، وما تتوق إليه نفسه التأليف فيه، وما اِطلع عليه من مصنفات ودواوين فقهية وحديثية. وحبَّرها في نهايتها بترجمة شيِّقة ماتعةٍ لوالديه الجليلين، رضي الله تعالى عنهما.

وكان صاحب الترجمة رحمه الله قد أملى على أحد تلامذته الذين رغبوا في ترجمته، وهو الأستاذ الفاضل عبد اللطيف جُسُّوس، بعضاً مما جمعه في ''تعريف المؤتسي بأحوال نفسي''، مع إضافات أخرى متعلقة من أخبار حياته وبعض اِختياراته العلمية، جمعَها الأستاذ جُسّوس في كتابٍ سماه ''نجمٌ من أعلام علماء السلف في علماء الخلف''، وقد طبع في طنجة منذ سنتين. هذا وقد ترجم له الكثيرون من أهل العلم وفي مقدمتهم تلميذه النجيب فضيلة العلامة المحدِّث الكبير الدكتور محمود سعيد ممدوح، نفع الله به، في ''فتح العزيز في أسانيد السيد عبد العزيز''، وفي ''الاتجاهات الحديثية في القرن الرابع عشر''. كما أنه كتبت رسائل وأبحاث وأطروحات جامعية كثيرة عنه رحمه الله تعالى، في مختلف الجامعات المغربية وغيرها.

هذا قد اِقتصر عمل المشرفين على طبع هذه الترجمة، على إخراج نَصِّها دون أي إضافة لتحقيقات أو هوامش، إلا العناوين التي وَضعوها للفصول. فالمؤلف رحمه الله جمع في هذه الترجمة فصولا كثيرة، اِقتصر على ذكر ''فصل'' يجمَع تحته ما أراد تضمينه فيه من أخباره، أو صفة أخلاقه، أو لباسه، أو تراجم شيوخه .. إلخ. فقام المشرفون على الطباعة مشكورين على عملهم وجهدهم بوضع عنوانٍ لكلِّ فصلٍ، للتسهيل على القارىء الوقوف على مضامين هذه الترجمة، وسهولة الأخذ منها. وطلبوا مني مشكورين كتابة مقدمة للكتاب، لكني اِكتفيت بذكر هذا التمهيد المختصر،

لضيق الوقت حيث الكتابُ في طور الإعداد للطباعة، وإكتفاء بالمقدمة التي وضعها المؤلف، وفيه من الفوائد وبيان فوائد التراجم ما يغني عن أيِّ مقدمة أو كتابة أخرى. وختاماً أسأل الله تعالى أن ينفع بها، وأن يُثيب ناشرها الثواب الحسن لنشره ما ينفع المسلمين. وأن يوفقه لإخراج غيرها خدمة للعلم وأهله.

وكتبه: عبد المنعم بن عبد العزيز بن الصديق

يوم السبت ٢ شعبان ١٤٣٨هـ الموافق ٢٩ أبريل ٢٠١٧.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله وكفَى. والصلاة والسلام على الحبيب المصطفَى وآلِه أهلِ الصِّدقِ والوفا، وصحبِه ومَن بِهم اِقْتفَى. **وبعدُ**: فهذا جزءٌ جمعتُه في التعريف بنفسي اِقتداءً بِمن سبَق مِنْ أهلِ العِلم والفضل، وتَحدُّثًا بِنِعم الله علَيَّ.

فقد روِيْنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ''زوائد المُسنَد '': « **التحدثُ بالنِّعمِ شُكرٌ** ». وقال الله سبحانه لنبِيّه المختار: ﴿ **وأَمَّا بِنِعْمةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾. وما أُمِر به صلَّى الله عليه وآله وسلم إذا لم يَرِدْ ما يدلُّ على خصوصِيتِه به فهو عامٌّ لجميع أفرادِ أمَّتِه كما هو معلومٌ.

وإذا كان التحدُّث بالنِّعم شكراً، فإنِّي أرجو مِنْ ربِّي أن يجعلَ كتابةَ هذه الأوراق سبباً في زيادة تَفضُّلِه وإنعامِه وإكرامِه ونوالِه، لأنَّه يقول سبحانه:﴿ **وَلَئِنْ شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم** ﴾. وقد سَمَّيتُ هذه النُّبذةَ اللطيفةَ: '' **تَعريفُ المُؤْتَسِي بِأَحوالِ نَفسِي** ''. تقبَّلَ الله منِّي جميعَ الأعمال، وجعلها خالصةً لوجهه، لِنفوزَ بالثواب وعظيمِ النوال عند المَآلِ.

ولم أرتكِبْ بدعةً، ولا أتيتُ زوراً مِنَ العمل والقول بِجمْعِ هذه الوريقاتِ فيما سنح به الخاطرُ مِنْ أخباري وأحوالي؛ فقد سبقني إلى هذا العمل جمعٌ عظيمٌ مِنْ أهل العِلمِ والفضلِ، مِمَّن لا يَلحَقُ المقتَدِي بِهم اِعتراضٌ ولا لومٌ. فقد جمع أخبارَهُ في كتابٍ مفردٍ: أبُو الفتحِ المِزِّي، أحدُ شيوخ الشمسِ اِبْنِ طُولُون. وبَعْده تلميذُه: الشمسُ اِبنُ طُولُون وسمَّاه: '' الفُلْك المشحون في أحوالِ اِبنِ طُولُون ''. وكتابُه هذا مطبوعٌ، قرأتُه وهو مفيدٌ في بابه.

وكذلك جمع العارفُ بالله جَدِّي مِنْ جهة الأمِّ أَبُو العباسِ أحمدُ بن عجِيبة رضي الله عنه فهرسةً في أحواله وأخباره، وقد وقفتُ عليها وقرأتُها والحمد لله.

وأمَّا مَنْ ترجم لنفسه ضِمن مُؤَلَّفِه في التراجم فذلك لا يُحصَى كثرةً، قال اِبنُ طُولُون في مقدمة

كتابه '' الفُلك المشحون'': '' ثم إنَّ الترجمةَ تارةً يُفردها صاحِبُها بِمؤلَّفٍ، كما فعل شيخُنا أَبُو الفتحِ المِزِّي وتبِعتُه هُنا. وتارةً يُفردها غيرُه له وهو أحسن، كما فعل الحافظُ شمسُ الدِّينِ السخاوي في مؤلَّفِه: '' الجواهرُ والدُّررُ في ترجمة شيخِ مشايِخ الإسلام اِبْنِ حَجَر ''. وتبِعه شيخُنا المؤرِّخُ مُحْيِ الدِّينِ النعيمِي في إفراده لترجمة شيخِه، وشيخِنا المحدِّثُ بُرهانُ الدِّينِ النَّاجِي.

وتارةً لا تُفرد بل تكون في ضِمن مؤلَّفٍ لِصاحِبِها، كما فعل شيخُنا العلامة جَلالُ الدِّينِ السيوطي في ذِكْرِهِ لنفسه في «طبقات النُّحاةِ الوُسْطَى» له، وقال فيها: '' وقد أردتُ أن يكونَ لِاسْمِي ذِكْرٌ في هذا الكتاب تَبَركاً واِقتداءً بصنيع السَّلفِ مِمَّن ذَكَر اِسْمَه في تآليفه مِنَ التاريخ، كالإمامِ عبدِ الغافِرِ في ''السِّياق''، وياقُوت الحَموي في ''مُعجم الأدبا''، واِبنِ الخَطِيبِ في ''تاريخ غرناطة''، والتَّقِيِّ الفاسِيّ في ''تاريخ مكة'' وأطالَا في ترجمتهما جدًّا، واِبنِ حَجَر في '' قُضاة مِصر''، وجماعة لا يُحْصون.

ثم منهم مَنْ ذَكَر اِسمَه في حِرفه كالفاسِيّ واِبنِ حَجَر، وقد تبِعتُهما في ذلك، ومِنهم مَنْ يذكره في آخر الكتاب، ووقعَتْ في ذلك مناسبةٌ لطيفةٌ لِياقُوت لأَنَّ اِسمَه في حَرفِ الياء.. '' اهـ.

قال اِبنُ طُولون: ''وهذه المناسبةُ اِتَّفقت أيضاً لشيخِنا المحدِّثِ جَمالِ الدِّينِ يُوسفَ بنِ عبدِ الهادِي، حيث ذكر نفسَه في طبقات الحنابلة المُدْرَجةِ في مناقب الإمام أحمد بنِ حنبل مِنْ تأليفه، وأطال في ترجمته وسمِعْتُها مِنْ لفظه، وذَكَر لي حينئذٍ ما ذَكَره الحافظُ أَبُو عبدِ اللهِ البخاري في صحيحه، قال ربيعَة: لا يَنبغي لأَحدٍ عنده شيءٌ مِنَ العِلم أَنْ يُضَيِّعَ نفسَه. '' اهـ.

قلتُ: وترجم الحافظُ السيوطي رحمه الله نفسَه أيضاً في '' حُسن المُحاضَرةِ في أخبارِ مِصْرَ والقاهرة ''، في ذِكر مَنْ كان بِمِصرَ مِنَ المجتهدين، وأطال في ذلك جدًّا وذَكَر مؤلفاتِه مرتَّبةً على حسب الفنون.

وترجم لنفسه أيضاً شقيقُنا أَبُو الفَيْضِ في كِتابه: ''سُبْحة العَقِيقِ بِذِكرِ أخبار سيدي مُحمدِ بْنِ الصِّدِّيق''، وأطال فيها أيضاً.

والحاصل أَنَّ هذا العمل جرت به عادة أهل العلم قديماً وحديثاً، وهو مِنْ خير الأعمال وأحسن العادات، لأَنَّه لا يُمكن لأحدٍ أَنْ يُخبر عن أحوال الآخَر كما يُخبر هو عن نفسه. ولذلك ذهب عِلمٌ كثيرٌ بِإهمال أهل العِلم تقيِيد أحوالهم وأخبارهم، ولم يستطع مَنْ جاء بَعدهم أَنْ يَجمعَ عُشْرَ

ما كانوا عليه مِنْ علوِّ المكانة وسُموِّ المنزلة في العِلم والدِّين. ولا شكَّ أنَّ في معرفة أحوال أهلِ العلم والاطِّلاع على أخبارهم فوائدَ جليلة تَعودُ على العارف بها والمتقِنِ لها بِخيرٍ عظيمٍ في عِلمه ودينِه.

قال العلَّامةُ أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ اليُوسِي رحمه الله في ''المُحاضَرات'': قد جرت عادةُ مَنْ أَلَّف بل مَنْ كتب رسالةً أَنْ يتسمَّى في كتابه لِيُعْرف، وفي معرفته فوائد منها: في كلامه أَنْ يُعْرَف مذهبُه أو مطلبه ليتمكن جوابه، أو يشهد له أو عليه. ومِنْ أهمِّها أَنْ يُعلَم هل يوثَق بِنقله وعقله، ويُقتَدَى به في أصله فإنَّ كلامَ الحُجَّة حُجَّةٌ، وإنَّما يُعْرف كونُه حُجَّة بشهادة أهل العلم وذلك في ثلاثة أشياء:

- أحدها التصريح بذلك مشافهة أوفي ترجمة، ولذلك صُنِّفت طبقاتُ أهل العِلم واعْتُنِي بتراجمهم.
- ثانيها عَدُّه مع العلماء عند ذِكرهم في مذهبٍ أو وفاقٍ أو خلافٍ أو حكايةِ كلامهم فِيما يُحكَى مِنْ كلام العلماء، أو مذهبه، أو نحو ذلك وهو كالتصريح.
- ثالثها الأخذُ عنه أو إقراءُ تصانيفه أو شرْحُها أو تقليده أو نحو ذلك.

وإنما يحصل لهم مِنْ ثلاثة أشياء:

- أحدها سماعُ كلامِه مشافهة.
- ثانيها مطالعةُ تصانيفِه والوقوفُ على تحريره وتحصيله، أو سماعُ فتاويه وآرائِه وكلامه بِنقْلِ الغيرِ كما وقع للصحابة رضي الله عنهم.
- ثالثها شهادةُ الغير له كما مرَّ، وهَلُمَّ جرًّا.

وبَعدَ حصول المرتبةِ مِنَ العِلم تَحصل خصوصِياتُ المراتب بشهادة مَنْ هو أهلٌ لذلك بها، مشافهة أو في ترجمةٍ، أو اِقتداء الأكابر به، أو ترجيحه على غير ذلك، أو نحو ذلك.. '' اهـ.

وقال العلَّامةُ عبدُ القادرِ التَّمِيمِي في ''الجواهر المضية في طبقات الحنَفِيَة'' : اِعلَمْ أَنَّ في تراجم العلماء فوائدَ نفِيسةٌ ومهمَّاتٍ جلِيلةٌ، **منها:** معرفةُ مناقِبِهم وأحوالِهم، فيتأدَّبُ بآدابِهم ويقتبس مِنْ محاسِنِ آثارِهم.

ومنها: معرفةُ مراتِبهم وأعصارِهم، فيُنْـزَلون منازلَهم، ولا يقصر بالعالي في الجلالة عن درجتِه، ولا يُرفَعُ غيرُه عن مرتبتِه. وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم** ﴾، وثَبَتَ في صحيحِ مُسلمٍ: « **لِيَلِنِي مِنْكم أُولُو الأَحْلامِ وَالنُّهَى** »، وعن عائِشةَ رضي الله عنها قالت: « **أَمَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ نُنْـزِلَ الناسَ مَنازِلَهُم** »، قال الحاكمُ أبُو عبدِ الله: هو حديثٌ صحيحٌ.

ومنها: أَنَّ أئمَّتَنا وأسلافَنا كالوالدين لنا، وأجْدَى علينا في مصالح آخرتِنا التي هي دارُ قرارنا وأنْصَحُ لنا فِيما هو أَعْوَدُ علينا، فيَقْبُحُ علينا أَنْ نَجهلَهم وأَنْ نُهمِلَ معرفتَهم. **ومنها**: أَنْ يكونَ الترجيحُ بِقَولِ أعلَمِهم وأَوْرَعِهم إذا تعارضت أقوالُهم. **ومنها**: بيانُ مصنَّفاتِهم وحالها مِنَ الجلالة. '' اهـ.

وذَكَر اِبنُ الأَثِيرِ في مقدِّمة تاريخه جملةً مِنْ فوائد هذا الباب، فلينظر.

وقال العلَّامةُ عبدُ الحَيِّ اللَّكْنَوي في مقدمة كتابه '' الفوائد البهيَّة في تراجم الحنفية '' بعد كلامٍ في فائدة التاريخ ما نصُّه: وأَجَلُّها فنُّ تراجم الكبار وأخبار الأخيار، ففِيه غير ما مضَى فوائد جَمَّة ومنافع مهمة، **منها**: الاطِّلاع على مناقبهم وأوصافهم ونباهتهم وجلالتهم، ليَحصلَ التأدبُ بآدابِهم والتخلُّقُ بأخلاقهم، فيُحْشَر في زُمرتهم ويدخل فيهم، وإنْ لم يكن منهم.

ومنها: الاطِّلاع على مراتِبهم ومدارجهم، فيُؤْمَن به مِنْ تنزيل أعلَى الرتبة إلى الأدنى، وتعريج أدنَى الرتبة إلى الأعلَى، واِختيار قول أدناهم على أعلاهم عند تعارُضِ أقوالِهم وإِفاداتِهم.

ومنها: الاطِّلاع على مواليدهم وأعصارهم ووفياتهم وأزمانهم، فيَحْصل الأمنُ مِنْ جعْلِ القديم حديثاً والحديث قديماً، والمتقدِّمِ متأخراً والمتأخر متقدِّماً.

ومنها: الاطِّلاع على آثارهم وحكاياتهم وفُيُوضهم وتصنيفاتهم، فيتحرك عِرقُ الشَّوقِ إلى الاهتداء بهديِهم والاقتداء بِسِيَرِهم'' اهـ.

وكلام أهل العِلم في هذا كثيرٌ، وإنَّما أشرتُ لِهذا لِيَعلَم الطالبُ أَنَّ قراءتَه لِترجمةِ عالِمٍ أو وليٍّ ليس الغرضُ منها معرفةَ خبره والاطِّلاعَ على حاله فحسب، بل الغرض الأكبر مِنْ ذلك هو الاقتداء به والاهتداء بِهَديِه، واِتِّباع طريقته والعملُ على التخلُّقِ بِما كان عليه مِنْ جميلِ الأخلاق وحُسن الأفعال. وهكذا الحال في قراءة تراجم فَسَقَةِ العلماء وجبابرة الملوك والأمراء، فإِنَّ الغرض

منها أَنْ يَحذَرَ مِنَ الوقوع في مثل تلك الأفعال الخبيثة التي أوجبَتْ لهم قبيح الأحدوثة، وتعرَّضتْ لهم أقلامُ المؤرخِين بسببها بالتنقيص والوقيعة. نعوذ بالله مِنْ كلِّ سوءٍ.

لطيـفــةٌ: قال اليُوسِي في '' المحاضرات '': وكان شيخُنا أَبُو عبدِ الله سيدِي مُحمدُ العَربِي ابنُ أَبِي المَحاسِنِ سيدي يُوسفَ الفاسي مِنْ دأْبِه أَنَّه متى لقِيَ إنساناً يسأله مِنْ أيِّ بلدٍ هو ؟ فإذا أخبره قال: مَنْ عندكم مِنْ أهل العِلم ؟ مَنْ عِندكم مِنْ أهلِ الصَّلاح ومِنَ الأعيان ؟ فإذا أخبره بشيءٍ مِنْ ذلك كلِّه سجَّله. وهذا الاعتناء بالأخبار والوقائع والمساند ضعيفٌ جدًّا في المغاربة، فغلَبَ عليهم في باب العلم الاعتِناءُ بالدِّراية دون الرِّواية، وفِيما سِوَى ذلك لا هِمَّةَ لهم به.

وكان أَبُو عبدِ الله المذكور يَذْكر في كتابه ''مِرْآة المَحاسِن'' أَنَّه كَمْ في المغرب مِنْ فاضِلٍ قد ضاع مِنْ قِلَّةِ اِعتنائهم. وهو كذلك. '' اهـ.

قلـتُ: والأمر كما قال. فإنَّ المغاربةَ أضاعوا بعدم اِهتمامهم بتقيِيد أخبار الرجال فوائدَ جمَّة وعلوماً كثيرةً، وكم مِنْ إمامٍ يُرْحل إليه لا تَجِدُ له في كتب التراجم خبراً يُذكر، وإذا وجدتَه فإنما تجد إشاراتٍ لا تليق بمكانه ولا تُناسِبُ ما كان عليه في وقتِه وزمان حياته مِنَ الشهرة في العِلم والدِّين والسمعة العظيمة في الولاية والمعرفة. وهذا القطب الأكبر والإمام الذي ذاع صِيتُه واِنتشر، مولانا عبدُ السلامِ بنُ مَشِيش رضي الله عنه وعَنا به ونفعنا ببركاته وأعاد علينا فَيْضَ أنفاسِه، لا تَجِدُ له ترجمةً مفصَّلَةً مناسبة لِمقامه في كتابٍ مِنْ كتب التراجم. والسبب في ذلك هو إهمالُ المغاربة وعدمُ اِعتنائهم بهذا العِلم، ولو كان مولانا عبدُ السلام رضي الله عنه في الشَّرقِ لرأيتَ في أحواله وأخباره المجلَّداتِ، كما هي عادتُهم مع أمثاله، بل يَفعلون ذلك مع مَنْ لَمْ يَبلغ عُشُر مَقام اِبنِ مَشِيشٍ رضي الله عنه. والأمر كلُّه لله، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وبعد هذا، نَذْكر ما نحن بصدده، فنقولُ:

وُلِـدتُ بثغر طنجة في شهر جمادَى الأُولى سنة ثَمان وثلاثين وثلاثمائة وألف. وتوفيتْ والدتي وأنا في الثانية أو في الثالثة مِنْ عمري. وتربَّيتُ في كنف والدي رضي الله عنه وقدَّس روحه. ودخلتُ للمكتب وأنا اِبنُ خمسٍ سنواتٍ تقريباً، فقرأتُ القرآنَ على الفقيهِ السيد مُحمدِ الأَنْدَلُوسِي ولم أقرأ على غيره إلى أنْ فارقتُ المكتبَ وِاشتغلتُ بقراءة العِلم. وفي أيام الاشتغال بِحِفظ القرآن كنتُ أقرأُ على بعض أصحابنا بعضَ الدروس في الأَجْرُومِيَّةِ والأَلْفِيَة، ولكن لم أنتفعْ بذلك تماماً، لِتعلُّقِ

البالِ بِمهمَّةِ حِفْظِ ''اللَّوْح'' مع عدم الالتفات في وقت الراحة إلى شيءٍ آخَر.

وقد كان والدي رضي الله عنه يتعاهدني في أثناء ذلك بالنصائح والإرشادات التي كانت تُضِيءُ أَمامِي الطريقَ، وتَكشفُ لي عن سبيل السَّيْرِ فيما يَنفعني في دِينِي ويُقرِّب لي طريقَ التعلُّمِ ـ وقد كنتُ منذ الصغر وأنا شديد البحث عن كلِّ الأمور صغيرها وكبيرها حتى الأمور التي لا يدركها عقلي حينئذٍ ـ فلم يكن يَمُرُّ عليَّ يومٌ بدون أَنْ أُذاكِرَهُ وأسأله عن مسائلَ في شتَّى العلوم والفنون المختلفة، فكان يُعطِينِي رحمه الله ورضي عنه في كلِّ موضوعٍ أسأله عنه قواعدَ عامة تكفيني وتُغنِينِي عن كثيرٍ مِنَ البحث والمطالعة، فنفعنِي ذلك جدًّا. وكان رحمه الله يُسَرُّ بذلك ويحُثُّنِي على الاستزادة مِنَ البحث والمعرفة. وحُبِّب إليَّ في صغري عِلمُ الجغرافية، وحصل لي به ولوعٌ كبيرٌ، فكنتُ أقرأ كتبه وأعكِفُ عليها. وكان يَعسر عليَّ في بعض الأحيان فهْمُ قواعدِها وإصطلاحاتِها، فلم يكن يَشرحُ لي غامِضَها غيرُهُ. وكان يُجِيبنِي عن ذلك بداهةً مِنْ غير مراجعةٍ، كما هي عادتُه في كلِّ العلوم رضي الله عنه كما ستَقِفُ على ذلك في ترجمتِه. ولم يَنْهَنِي يوماً ما عن مطالعة كُتبِ هذا العِلم أو حذَّرَنِي مِنَ الاشتغال به، لأنَّه كان يُحبُّ الاشتغالَ بالعِلم مُطلَقاً مِنْ غير نَظَرٍ إلى ماهية علمٍ مِنَ العلوم، لا سِيَما وعِلم الجغرافية عِلمٌ مفيدٌ تتعلَّق به مصالِحُ شرعِيَّةٌ.

وقبل وفاته رضي الله عنه بأيامٍ قليلةٍ كَتَبَ لإخواني الذين كانوا يَطلبون العِلمَ بِمِصرَ يأمرهم بالاشتغال بِعِلمِ الفَلَكِ ويَحُثُّهم على ذلك. ومع كوني كنتُ مشتغلاً بِحِفظِ القرآن أصرِفُ النهارَ كلَّه في المكتب، فقد كان يأمرني بالاشتغال بالكتابة في المسائل العلمية التي لا خِبْرَةَ لي بها حِينئذٍ، ويُؤَكِّدُ عليَّ في ذلك كثيراً، وكلما جاءت المناسبةُ أكَّدَ عليَّ في الكتابة والتأليف ويقول لي: اِكْتُبْ فإِنَّ فائدةَ الكتابةِ عظيمةٌ غير محدودة النفع.

وقد اِمتثلْتُ أمْرَهُ بذلك، فكنتُ إذا فرغْتُ مِنَ المكتب شرعتُ في الكتابة وجمْعِ المسائل، هذا وأنا لم أقرأْ كِتاباً قَطُّ، ولا قرأتُ على شيخٍ بِالمَرَّةِ، وإنما جميعُ ما عِندي مِنْ معلوماتٍ فَمِما آخُذُه مِنه ساعة المذاكرة والسؤال لا غير. وقد كان ذلك عظيماً حقًّا أحسن مِنْ مِائة درسٍ لِمَا خصَّه الله به مِنْ حُسنِ البيانِ وجَمالِ التَّعبير ودِقَّةِ الشرح.

وفي بعض الأيام، جِئتُه بِمؤَلَّفٍ سمَّيتُه: **''إتْحاف الإخْوانِ بِفَضِيلَةِ رَمَضان''**، جمعتُ فيه ماورد في الصيام مِنَ الآيِ والأخبار. فلما أخذه في يده ورأى اِسْمِي عليه كاد يطيرُ فرحاً وسروراً

وابتهاجاً، وصار يُثنِي عليه ويعجب به. والكتابُ وإنْ كان لا يستحقُّ شيئاً مِنْ ذلك مطلقاً لكنه صنع ذلك تشجيعاً لِي على المضيّ في الطريقة المحبوبة عنده والتي طالَما رغَّبنِي فِيها وأمرني بِالاشتغال بها، وهي الكتابةُ والتأليفُ.

وزاده رضي الله عنه فرحاً بهذا الكتيّبِ، أَنَّ بعض الناس كتب إليَّ مِنْ مدينة أَكادِير بِسُوس، يسأل عن الحديث الذي فيه أَنَّ صحفَ إبراهيم، والتوراةَ والزبورَ والإنجيلَ والقرآنَ، كلها نزلتْ في رمضان. فأجبتُه بِنصِّ الحديث، وكان ذلك لسؤالٍ وقع له مِنْ بعض الناس هناك. فلمَّا قرأ نصَّ الحديثِ سُرَّ وكَتب يشكرني على ذلك. وكان أرسل إليَّ كتابَ الشكر مع كتابٍ أرسلَه لِمولانا الوالد، فلمَّا قرأه سألنِي عمَّن نقلْتُ الحديثَ، فعنذاك أخبرتُه بِتأليفي في فضل رمضان. فلمَّا أتيْتُه به رأيتُ مِنه مِنَ السرور ما حكيْتُه.

وهكذا كان رضي الله عنه يفعل في جميع ما أُبرزه له مِنْ مِثل هذا، كان يَفرح به ويسرُّ كثيراً، وغرضُه بذلك كله التشجيع على المضِيّ في الكتابة والبحث اللَّذيْن يُكْسِبان المرءَ خبرةً ومَلَكةً واطِّلاعاً واسعاً.

وقد إنتفعتُ بإشاراته رضي الله عنه وإرشاداته، فإنني لَمَّا ثابرتُ على الكِتابة ولَزِمتُها حصل لِي ولله الحمدُ والمِنَّةُ مِنَ العِلم في المدة القصيرة ما لم يَحصل لغيري في السنين الطِّوال. وحصلتْ لي ملَكَةٌ في التأليف بحيث أكتبُ في أيِّ موضوعٍ أردتُ بأيِّ أدنَى تكلُّفٍ أو عنَتٍ؛ وكلُّ ذلك بفضل وصيَّتِه وبركَةِ إرشاده جزاه الله عني خير الجزاء.

وقد ألَّفتُ ولله الحمدُ تآليفَ جِياد، شهِدَ بحُسنِها وجودتِها العلماءُ وأكابِرُ الرجال كما سيأتي ذلك إنْ شاء الله تعالى.

فصلٌ

ولما أخذتُ مِنَ القرآن ما أخذتُ، شرعتُ في قراءة مقدِّمة اِبنِ أَجَرُّوم على بعض إخواننا بزاويتنا، ولم يتيسَّرْ لي ختمُها. وكذلك الكتب الأخرى التي قرأتُها عليه كمتْنِ اِبنِ عاشِر، ورسالة اِبنِ أَبِي زَيْدٍ، وألفيةِ اِبنِ مالِكٍ.

وكنتُ كلما جئتُ مِنَ الدرس آتِي مولانا الوالدَ، فيسألني عن موضوع الدرس وما كان فيه، وربما أشير له في بعض الأحيان إلى صعوبة الفنِ وعدم فهم الدرس كما ينبغي، فيقول لي: "لا تَشغَلْ بالَك بهذا الآنَ، وإنما عليك أَنْ تَسمعَ لا غير، وتُعَوِّد نفسَك على الأخذ والتحصيل، وعندما يأتي وقتُ الفهم تَجِدُ هذه الأمور مرسومة في ذِهنك، فيَسهل عليك فهمُها جدًّا".

وكان غرضُه بهذا كلِّه أَنْ يرغِّبني في حضور الدرس وعدم الملل، لئلَّا تتعوَّد النفس البطالة والكسل، فيَصعُبُ عليها الرجوع إلى العمل والتلقي والأخذ. وكان يُوصِيني أَلَّا أراجع أثناء مطالعة الدرس حاشيةً مِنَ الحَواشي على الكتاب الذي أقرأُه، وكثيراً ما كان يقول لي: "مَنْ تَبع الحواشي بقي بْلا شِي".

كما كان لا يحب مِنَ الشيخ أَنْ يتعرض في درسه لِمباحث الحاشية، لأنَّ ذلك يُبلْبِلُ فِكر الطالب ويُتلِفُ ذهنه، ويُشعِّب عليه مسائل الفنِّ وهو لازال في حاجةٍ إلى تربية المَلَكة. وكان يقول لي: "إذا حصلت المَلَكةُ بالكتاب الصغير في أَيِّ فنٍّ مِنَ الفنون، فقد صار الفنُّ كلُّه بكتبه المُطوَّلةِ وحواشيها في متناول اليد ليسهل فهمُها".

قلتُ: وهذا مُسَلَّمٌ لا نزاع فيه، فإنِّي رأيتُ كثيراً مِنَ الطَّلبة كانوا يشتغلون أثناء قراءتهم بالحواشي والتعاليق والتقريرات الموضوعة على الكتاب الذي يقرأونه، فلم يَحصلوا على طائلٍ، وبقوا دائماً في شكٍّ مِنْ فهمِهم ومعرفتِهم، لا يقطعون بقولٍ في رأيٍ يظهر لهم أو كلامٍ يفهمونه.

وفي بعض الأيام أعطاني رضي الله عنه رسالةً صغيرةً تسمَّى: "المَقاصِد"، تُنسب للإمام النَّوَوي رضي الله عنه، تشتمل على قواعد الإسلام الخمس وبيانِ فُروضِها وسُنَنِها، وأمرني بِشرحها، ودلَّني على الكتب التي أراجِعها أثناء الكتابة. فشرعتُ في شرحها وكتبتُ منه عِدَّةَ كراريس، وكنتُ كلَّما فرغتُ مِنْ كُرَّاسٍ أُطْلِعه عليه، فَيُسرُّ به، ويزيد في هوامشه بخطِّ يده ما يراه متمِّماً للموضوع.

وتوفي رضي الله عنه ونفعني به، فشغلتني مصيبةُ فقْدِهِ عن المُضيِّ فيه، واِتَّصل بذلك

سفري إلى مِصْرَ فلم أُتِمه. وإنتقل رضي الله عنه إلى جوار ربّه وأنا في الخامسة أو السادسة عشرة مِنْ عُمري، ففَقَدتُ بِموتِه أباً رحيماً شفيقاً حنوناً، ومعلّماً ناصحاً لا يَألو جهده في النصح. جزاه الله عنّي خير الجزاء وجمعني معه في دار الكرامة والنعيم. وكانت وفاته عشية يوم الأربعاء السادس مِنْ شوال سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف.

فصلٌ

سفر المصنف إلى الأزهر و بعض مميزات المذهب الشافعي

وبعد وفاته رحمه الله تعالى بسنَةٍ، سافرتُ إلى مِصْرَ لطلب العلم. وكان خروجي مِنْ ثغر طَنْجَة يوم الاثنين السابع والعشرين مِنْ ذِي القعدة سنة خمسٍ وخمسين وثلاثمائة وألف. وكان وصولي إلى القاهرة في الثامن أو التاسع مِنْ ذي الحِجَّة مِنَ السنة نفسِها.

فلمّا قدِمتُ إليها، اِلْتحقتُ بالجامع الأزهر للقراءة على شيوخه، وقد اِخترتُ أَوَّلَ الأمر مِنْ غير إشارةِ أحدٍ قراءةَ فقهِ الإمام مُحَمدِ بنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعي رضي الله عنه، لأَنَّ فِقهَه مخرجٌ بالسُّنة، ولا يَخلُو كتابٌ مِنْ كتبه مِنْ ذِكْرِ أدلة الأقوال وبيان الحُجَّةِ، بخلاف كتب المالكية والحنفية، فإنَّها فِقهٌ مجرَّدٌ عن الدليل بالمرة، لا سيما كتب المالكية، فإنك تقرأ الكتاب في أربع مجلداتٍ أو أكثر ولا تَجِدُ فيه دليلاً لقولٍ ذهبوا إليه؛ والحنفية وإنْ كانوا مِثلَهم لكنهم أحسن مِنَ المالكية، فبعضُ كتبهم تتعرض للدليل مثل: ''فتْح القدير'' للكَمَالِ اِبْنِ الهُمام، وغيره.

والشافعي خصَّه الله بتلك المزيَّة التي ليست بَعْدها مزيَّةٌ ولا فضيلةٌ، حتى إِنَّك تَجِد الفقيهَ العَارِي عن عِلْمِ الحديث، الذي لا خبرة له به ولا دِراية، يَذكر في كتبه الأحاديثَ الدَّالةَ على الأحكام، مجتهداً على قدر جهده في بيان حالها مِنْ صحةٍ أو حسنٍ أو ضعفٍ، معتمداً في ذلك على مَنْ سَبقه مِنَ الحُفَّاظ. ومِنْ هنا قالوا للشافعي رضي الله عنه: ناصِر السُّنة. وهو كذلك، فإِنَّه لا يُذكر له قولٌ في كتب أتباعه ومقلّديه مِنْ غير ذِكْرِ دليلِه؛ ولأجل هذا اِخترتُ قراءة فقهه لِما فيه مِنْ هذه الفائدة العظيمة التي تكون مَدْرَجاً سهلاً ومرتقىً للاجتهاد وسُلَّماً للاطِّلاع على أحاديث الأحكام. ويَعلم هذا مَنْ يُخابر تلك الكتبَ ويَلزم قراءتها.

وقد وقع لشقِيقِي أَبِي الفَيْضِ مِثل هذا أيضاً، فإِنَّه لما رحل إلى مِصْرَ لطلب العلم مكث مدَّةً

يقرأ كتب المالكية، ثم تركها وإنتقل للمذهب الشافعي رحمه الله تعالى لأجل هذا المعنَى الذي ذكرتُه.

وقد قامت عليه قيامة متعصِّبِي المالكية في مِصْرَ، ورأوا في اِنتقاله عن مذهب مالِكٍ الذي يَدِينُ به المغاربةُ كلُّهم خروجاً عن مذهب الجماعة، وتكلَّموا فيه بسبب ذلك. وما حملهم على ذلك إلَّا التعصب المُزري والحمِيَّة الخبيثة، وإلَّا فالمسلِمُ لا مذهبَ له، ومذهبُه هو ما قال اللهُ ورسولُه، وما سِوى هذا فآراءٌ فيها الصوابُ والخطأُ.

ولِهذا ولله الحمدُ، لَمَّا بلغْنا إلى مرتبة الأخذ مِنَ النَّصِّ مباشرة، تركْنا التقيُّدَ بالجميع وصار مذهبُنا ما صحَّ لديْنا، ولم تطمئن نفوسُنا وتَرتَحْ قلوبُنا إلَّا عند ذلك، فلِلَّه الحمدُ حمداً طيِّباً مباركاً فيه.

ووقع لشقيقِنا أَبِي الفَيْضِ في اِنتقالِه لمذهب الشافعي أَنْ لامَه في ذلك شيخُه الإمامُ أَبُو عبدِ اللهِ مُحمدُ بنُ جعفر الكِتَّاني رحمه الله، وكان لشيخه نوعٌ مِنَ العصبِيَة وميْلٌ إلى المذهب بل الجنسية، مع أنَّه كان يعمل بالسُّنة في كثيرٍ مِنَ المسائِلِ، لكن بشرط موافقة المذهب ولو في بعضِ الأحوال، وبشرط أَنْ تكون المسألة في الآداب والرقائِق لا في الحلال والحرام كما شافهَهُ به مِراراً، وذكره ــ أي الكِتَّاني ــ في كتابه ''سلوك السبيل الواضح في أَنَّ القَبضَ في الصلوات كلِّها مشهورٌ وراجِحٌ''.

قال شقيقُنا في ''التَّصوُّر والتَّصديق'': مع أَنَّ الواجبَ سلوكه تقديم قولِ الله تعالى ورسولِه في كلِّ ما ورد عنهما، لا فرق بين سُننٍ وآدابٍ، ولا بين حلالٍ وحرامٍ. قال: وهو في هذه الطريقة مقلِّدٌ لغيره. فإِنَّ المَوَّاق نَقل في ''سنن المهتدين'' عن بعض شيوخه أنَّه كان يقول: نحن صوفِيُّون مُحدِّثُون في الرَّقائق والآداب، فقهاء في الأحكام والحلال والحرام، أو نحو هذه العبارة. وذلك مِنَ الغلط البيِّنِ والخطإِ الواضِح.

قال شقيقُنا: ولَمَّا توجه الوالدُ إلى الشام لزيارة شيخِنا سيدي محمدِ بنِ جعفر الكِتَّاني رحمه الله تعالى وكنتُ معه، قال له يوماً: إِنَّ مولاي أحمدَ ترك مذهبَ مالِكٍ وإنتقل إلى مذهب الشافعي، كأنه يريد مِنَ الشيخ ــ يعنِي الوالد ــ أَنْ يمنعنِي مِنْ ذلك، فقال له: هو حرٌّ في نفسه يَختار مِنَ المذاهب ما يَشاء، فسكتَ '' اهـ

فصل

ذكر بعض ما قرأه المصنف من كتب الفقه

قرأتُ مِنْ كتب الفقه "المنهج" للشيخ زكريا الأنصاري رحمه الله، بِشرحه، على **الشيخ عبد المُعطِي الشّرْشيمي** أحدِ علماء الهيئة بالأزهر، وليس المراد بالهيئة العِلمَ المعروفَ الباحث في الأجرام العلوية. وإنما المراد به ما اِصطلح عليه الأزهريون مِنْ تسمية جماعةٍ مِنْ كبار العلماء الذين ينعقد بِهم مجلسُ إدارة الأزهر ويرجع إليهم القولُ في أموره، بعلماء الهيئة، أيْ هيئة مجلس الأزهر؛ قرأتُ عليه مِنْ أول الكتاب إلى كتاب الحجِّ.

وقرأتُ أيضاً على **الشيخِ محمد عِزَّت**، مِنْ أواخر "المنهج" بِشرح المصنِّف زكريا، ما يَقرب مِنْ عامٍ. وقرأتُ على **الشيخِ عبدِ الوهَّابِ سليم الضَّرير** "متْن التحرير" للشيخ زكريا، بِشرحه أيضاً، مِنْ أوَّلِه إلى ما يَقرب مِنَ النِّصف أو يَزيد. وقرأتُ "متْن أَبِي شُجاع" بِشرح تَقيِّ الدِّين الحِصْنِي، وهو شرحٌ لطيفٌ مفيدٌ للغاية، على **الشيخ عبدِ السلام غُنَيْم**، وختمتُه عليه ولكن كنتُ أقرأه عليه في داره.

فصل

ذكر بعض ما قرأه المصنف من كتب الأصول

وأما عِلم الأصول، فقرأتُ متْنَ "جَمْع الجوامِع"، بِشَرْحِ الجلال المَحلِّي، مِنَ الكتاب الأول إلى آخِرِ الكتاب، على **شقِيقِي السيد عبدِ اللهِ**، بالرِّوَاقِ العَبَّاسِي بالأزهر.

وقرأتُ "لُبّ الأُصول"، بِشرح المصنِّف زكريا، على **الشيخِ مَحْمود الإمَام**، ولم نَقرأ عليه سِوَى المقدِّمة. وقد كانت طريقتُه في القراءة على نمَطٍ غريبٍ وشكلٍ عجيبٍ تُوجب المَلَلَ، لأنه كان يحبُّ التحقيقَ والبحثَ إلى درجةٍ لم أرها في أحدٍ مِنْ أهلِ العصر. وكان كلُّ درسٍ يقرأه يطالع عليه عدةَ كتبٍ مِنْ شروحٍ وحواشي وتقريراتٍ، ويزيد فوق ذلك أنَّه يكتب تقريراتِه هو الآخر، ولهذا كُنَّا نمكث ساعة ونصف مِنْ غير أَنْ نَقرأَ مِنَ المتن شيئاً، لأجل إيراد الاعتراضات والتوجيهات مع سرد ما كتبه هو، ولذلك كان الطلبةُ يهربون مِنْ دروسِه ولا يحبُّون الحضور عليه.

وقال لي مِراراً: أنا لا تَسمحُ نفسي بِقراءة كتابٍ مِنْ غير كتابةٍ عليه وبيانِ صوابِه مِنْ خطئِه، كما أنني لا أحب أَنْ أقرأ على الطلبة كلاماً أعرف أنَّه باطلٌ لا يوافق الصواب.

ولأجل هذا كان يتكلَّف للدرس غايةً، وقد مكثْنا نقرأ في قولِ الشيخ زكريا الأنصاري في ''لُبِّ الأُصول'' التعادل والتراجيح مدَّة أيامٍ، وكلُّها بحثٌ في قوله: ''التعادل بصيغة المفرد والتراجيح بصيغة الجمع، فلماذا أفرد الأول وجمع الثاني ؟''

وهذه الطريقة في القراءة وإنْ كانت نافعةً لكنها لا تَصلح لِمَن يريد أَنْ يتعلَّم قواعدَ الفنِّ، ويحصل على مقاصده، وإنَّما تَصلح للمنتهين الذين أدركوا مراميه وعرفوا دقائقه.

وقرأتُ ''لُبّ الأُصول'' أيضاً على **الشيخ مُحمد عبدِ اللَّطيفِ المالِكِيِّ**، ولم أختمه.

فصل

ذكر بعض ما قرأه المصنف من كتب النحو

وقرأتُ ''ألفية اِبنِ مالِكٍ''، بِشرح اِبْنِ عَقِيلٍ، على شيخي **الشيخ عبدِ السلامِ غُنَيم** الضَّرير الدّمْياطِي، وختمتُها. وقرأتُها بِشرْحِ الأَشْمُونِي إلى بابِ المُعْرَبِ والمَبْنِي، على **الشيخ محمود الإمامِ المَنصُوري**. وقرأتُها بشرح اِبنِ عَقِيلٍ أيضاً على بعض الشيوخ، لم أتذَكَّر اِسمَهُ الآنَ إلى باب النَّعتِ.

فصل

في سبب تركه علم المنطق

وقرأتُ على **الشيخ عَوضٍ الصَّعيدي** ''متْنَ إِيساغُوجِي'' في عِلْمِ المنطق، ولم أقرأ عليه إِلَّا أياماً قليلةً، ثم تركتُه.

وقد حصل لي في علم المنطق أمرٌ أوجَبَ لي ترْكه وطرْحه بالمرة وعدم الالتفات إليه، وذلك أَنِّي بعد أَنْ شرعتُ في قراءة ''متن السُّلَّم'' على شيخي **العلَّامة عبدِ السلامِ غُنَيم** بِشرْحِ المصنِّفِ.

ووصلتُ فيه إلى القياس، مع مطالعة بعض الكتب الأخرى المطوّلة فيه، حصل لي نوعُ ذهولٍ ونسيانٍ لأموري كلّها، حتى إنّي صِرتُ لا أضبِطُ اليوم الذي أنا فيه، بل بلغ بي الحال أَنّي إذا وضعتُ شيئاً كان معي في محلٍّ لا أذكره، وإذا دخلتُ إلى المسجد لأجل الصلاة ووضعتُ كتاباً يكون معي، أخرج وأتركه، وبقيتُ هكذا مدَّةً، وضاق بي الأمرُ جدًّا، إلى أَنْ وفَّقنِي الله لترك قراءة المنطق، فرجع إليَّ الحال الذي كنتُ عليه وذهب عني ما كنتُ أجِدُ، وعوَّضنِي الله سبحانه عن علم المنطق ما هو خيرٌ منه وهو عِلمُ الحديثِ. فإنني بمجرد إعراضي عنه مباشرةً أُلْهِمتُ مطالعة كتبِ الحديث وقراءتَها والاشتغالَ بها، واِستمرَّ بي الحال على ذلك إلى أَنْ رزقنِي اللهُ تعالى إتقانَ علمِ الحديث ومعرفتَه، فعلِمتُ أَنَّ الله جعله لي عوضاً عن المنطق.

ومثلُ ما وقع لي أنا في المنطق، وقع للإمام النَّووي رضي الله عنه في الطِّبِّ، فقد حكَى الحافظُ السخاوي رحمه الله في الجزء الذي جمعه في ترجمة النَّووي عنه أنه قال: ''وخطر لي الاشتغال بِعلم الطِّبِّ، فاِشتريتُ ''القانون'' وعزمتُ على الاشتغال به، فأظلم على قلبي، وبقيتُ أياماً لا أقدر على الاشتغال بشيءٍ. ففكرتُ في أمري مِنْ أين دخل عليَّ الداخلُ ؟ فألهَمَنِي الله أَنَّ اِشتغالي بالطِّبِّ سببُه، فبِعْتُ في الحال الكتابَ المذكورَ، وأخرجتُ مِنْ بيتِي كلَّ ما يتعلق بالطِّبِّ. فاِستنار قلبي ورجع إليَّ حالي، وعُدتُ لِما كنتُ عليه أولاً.. '' اهـ.

ووقع للحافظ السيوطي رحمه الله أيضاً مِثلُ ما وقع لي في عِلمِ المنطق كما حكَى ذلك في ترجمتِه في ''حُسْن المُحاضَرَة''، قال: ''وقد كنتُ في مبادىء الطلب قرأتُ شيئاً مِنْ علم المنطق، ثم ألقَى الله كراهتَه في قلبي، وسمعتُ أَنَّ اِبنَ الصَّلاحِ أفتَى بتحريمه، فتركتُه لذلك؛ فعوَّضنِي اللهُ تعالى عنه عِلمَ الحديث الذي هو أشرف العلوم''.اهـ.

قلتُ: ولا غرابةَ في هذا، فإِنَّ العلمَ رِزقٌ، وكل واحدٍ ميسَّرٌ لِما خُلِقَ له. فإذا ذهب مَنْ هيَّأه الله لشيءٍ إلى شيءٍ لم يجعل الله له نصيباً فيه، فلا شكَّ أنَّه لا يجد تيسيراً فيه ولا توفيقاً في الاشتغال به.

ومِثلُ هذا ما وقع لشقِيقِنا أَبِي الفَيْضِ في عِلم النَّحو، فإنَّه كلَّما أراد الاشتغال به ومراجعة كُتُبِه أصيبَ بما يكره. وقد حكَى أنه لما شرع في قراءة ''الأَجْرُومِيَّة'' مع الطلبة، توفيَّت الوالدةُ رضي الله عنها، ثم تركه. وبعد وفاتها بنحو أربعة عشر عاماً، أراد أَنْ يُحْيِيَ ما درس عنده مِنْ

مسائل النحو وغفل عنه، فأحضَرَ ''التصريح على التوضيح''، ولم يلبث إلَّا قليلاً حتى جاءه الخبر بوفاة مولانا الوالدِ رضي الله عنه. قال: ''وعند ذلك تحققتُ شؤم النحو عليَّ، وعزمتُ على عدم النظر في كتبه''.

فصل

ذكر بعض ما قرأه المصنف من كتب التفسير

وقرأتُ على **الشيخ محمد عِزَّت** شيئاً مِنْ ''تفسير الجلالَيْن''، وانتفعتُ بتقريره في ذلك، ولم أقرأ التفسيرَ على غيره إلَّا بعض الدروس كنتُ أحضرها بعض الأحيان على **الشيخ علِيٍّ سُرُور الزّنْكَلُوني** في ''الكشاف'' للزَّمخْشَرِي بالرِّواق العَبَّاسي بالأزهر.

فصل

ذكر بعض ما قرأه المصنف من كتب العقيدة

وقرأتُ ''الجوهرة'' بِشرح اللَّقاني على **الشيخِ عبدِ السلامِ غُنَيم الدمْياطِي** في داره. وانتفاعي الأعظم كان بهذا الشيخ، فإنني لزمتُه مدَّةَ أربع سنواتٍ، وكنتُ أقرأُ عليه في بيتِه.

وبدأتُ القراءةَ عليه قبل ذهابي إلى الأزهر، وكان يُعجِبني تقريره وشرْحَه، لأنه كان ضريراً، فكان يُملِي شرْحَ المتنِ الذي أقرأُه بِما يَظهرُ له، ثم أقرأ عليه الشرحَ فآخُذُ منه معنَى المتن إجمالاً، ثم يُفصِّل ويبيِّن مع قراءة الشرح. ولم أنتفع بأحدٍ كما اِنتفعتُ به.

فصل

في بعض ما قراه المصنف من كتب الحديث ورأيه في تحصيله العلمي

وقرأتُ على شقيقي **السيد عبدِ الله** أبواباً مِنْ ''ألفية العِراقِي'' في المُصْطلح، بِشرْحِ المصنِّف. ولم يتيسَّر لي خَتْمها عليه.

فهذا ما تيسَّر قراءته على الشيوخ مِنَ العلوم والفنون، وهو شيءٌ قليلٌ بالنسبة إلى ما يقرأه الناس. ولكن أعانَنا مع ذلك على التَّبرُّزِ المثابرةُ على المطالعة والاشتغال والبحث، ليْلَ نَهار. فإنَّ القراءةَ على الشيوخ وحدها لا تكفي، ولو قرأ الإنسانُ على أَلْفِ شيخٍ، وإنما هي مفتاحٌ لِبابِ الفهم لا غير، وذلك يحصل بأدنَى شيءٍ إذا كان عند الرجل ذكاءٌ وهِمَّةٌ.

ولهذا رأينا في مِصْرَ مَنْ لازَمَ الطلبَ عشرين سنَةً، وقرأ على الشيوخ الكُتبَ الكِبارَ وختَمَها، وهو مع ذلك لم يَخرج عن دائرة الطَّلبِ، ولا يستطيع أَنْ يَقولَ بِرأيِه في شيءٍ أصلاً. والسبب في هذا اِعتمادُهُم على ما يَقرأونه على الشيوخ مِنْ غير أَنْ يُوسِّعوا مداركهم بالبحث والمطالعة في الكتب التي تُعِينُ على تحصيل المَلَكة وتربيةِ الفقاهة في النفس.

فصل

رجوع المصنف إلى الكتابة ومأمره به والده الإمام

وكنتُ عند بدْءِ الاشتغال، تركتُ الكتابةَ التي كانت محبَّبةً إليَّ، وعزيزةً لديَّ لأجل الطلب، واِقتصرتُ منها على يوم الخميس والجمعة، ومكثتُ على هذا الحال مدَّةً مِنَ الوقت. ولَمَّا آنَستُ مِنْ نفسي الاستغناء عن الشيخ في فهْمِ القضايا والمسائل، رجعتُ إلى الطريقة التي كان يُرغِّبنِي فيها والدي ويوصينِي بالعناية بها، وهي الكتابة والتأليف.

وكان أولُ عمَلٍ بدأتُ به بعد رجوعي إلى الكتابة، كتابة مقالاتٍ في مواضيع مختلفةٍ في مجلة''الإسلام'' و''الشَّفق'' و''الخلود''، وجريدة '' النذير'' وهي جريدةٌ تَصدر عن جماعةِ شبابِ سيِّدِنا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم اِقتحمتُ ميدانَ التأليف، فكتبتُ بعض الرسائلِ، منها: رسالةٌ في الأحاديث الدَّالة على''**اِطِّلاع الأموات على عمَلِ الأحياء**''، ورسالةٌ في القِيَّام لِلجنازة سمَّيتُها: ''**رَفْع الحَزازةِ في القِيام لِلجنازة**'' ولم أُتِمها، ورسائل أخرى. وفي هذه الأثناء، كنتُ مشتغلاً بقراءة ''جَمْع الجوامع '' على شقيقي أَبِي المَجْدِ، و''ألفية العِراقي'' في المُصْطلح.

ومع كلِّ هذا، كنتُ أحسُّ بالنقص وأقول في نفسي: كلُّ ما اِشتغلتُ به إلى الآن غيرُ مُجدٍ

ولا نافِعٍ ولا مفيدٍ؛ لأنه لا يخلو عن وسائل يُتوصَّلُ بها إلى غايةٍ وطريقٍ يُسلَكُ منها إلى نهايةٍ. وكنتُ أجدُ نفسي لا أخرج عمَّا يعرفه كلُّ الناس ويشتغل به جمهورُهم. ففكَّرتُ، فوجدتُ غايةَ تلك العلوم والمرادَ منها أولاً وآخراً هو شيءٌ واحدٌ، وهو فهمُ كتابِ الله وسنَّةِ نبيِّه صلى الله عليه وآله وسلم. وما دام الإنسان لم يخض في شيءٍ مِنْ ذلك ولم يسلك سبيلَ ما هُنالك، فهو يَخبط خبْطَ عشواء ويَركب متْنَ عمياء، لا يريد قطْعَ الطريق ولا إنالَةَ وَطَرِه وإناخَةَ راحلَتِه، فهو كالمُنبَتِّ لا أرضاً قَطَع ولا ظهراً أبْقَى، فمِنْ عِلْمٍ إلى عِلْمٍ، ومِنْ كتابٍ إلى كتابٍ، حتى يأتي الأجلُ وهو لم يَزلْ في الطريق يَسيرُ، وذلك على مَنْ يريد الرِّبحَ والفوزَ عسيرٌ غير يسيرٍ.

فشمَّرتُ عن ساقِ الجِدِّ والاجتهاد، وشرعتُ في الاشتغال بِعِلم الحديث وحدي معتمداً على الله وحده فيما يمنحني فيه مِنْ فيوضاتٍ ومواهبَ وفتوحاتٍ، إذ لا يوجد في مِصْرَ على اِتِّساعِها وكثرة علمائِها مَنْ يُتقن النظر في كتابٍ مِنْ كُتب الحديث، فضلاً عن فهمه ودراستِه. إذْ شأنُهم في ذلك شأنُ سائر البلاد لا شغلَ لهم إلَّا بِما ينفعهم في دنياهم، ويجرُّ الأرزاقَ إليهم مِنَ العلوم التي يَجِدون لها أسواقاً رائجةً بين سائر الطبقات. وأما ما يَنفع في الدِّينِ والأُخْرى ويجرُّ الربحَ الذي لا يفنَى ولا يَنفد، فهُمْ عنه مُعرِضُون، وبه جاهلون، ولأهلِه مُحارِبون؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد أمدَّني اللهُ جلَّ شأنُه بِقُوةٍ، وأعانني بفضلِه وَ﴿ **إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً** ﴾، ففتح الله لي أبوابَ هذا العِلمِ على مِصراعَيْها، فدخلتُ منها كلِّها، وأخذتُ مِنْ فنونِه وعلومه ما أقرَّ اللهُ به عيني وأكرمني به دون أهل عَصْرِي، فلَهُ الحمدُ والمِنَّةُ والشكرُ على ما أعطَى ومنَحَ ووَهَب.

فبلغْتُ فيه شأواً رفيعاً وذروةً عُليا، ومقاماً أسنَى، ونزلتُ فيه منزلاً أسْمَى، وحرَّرتُ فيه الكتبَ الجِيادَ والرسائلَ الحِسانَ، وذلك الفضلُ مِنَ الله يُوتِيه مَنْ يشاء مِنْ عِباده.

فصل

إقبال المصنف على علم الحديث والأخذ بوصية والده الإمام و إرشاداته

ولِما ذكرتُه لك أولاً مِنْ خلُوِّ الدِّيار مِنْ عالِمٍ بهذا الفنِّ الشريف يَرجع إليه الإنسانُ كما هي العادة والسُّنةُ الجاريةُ في الكون في فهْمِ ما صعُبَ على الذِّهن مِنْ مسائله، حصلَتْ لي في أولِ الأمر

صعوبةٌ في إختيار الطريق التي أسلكها لدراسة عِلْمِ الحديث، ومطالعةِ كُتبِه، تكون سهلةَ السلوك لِنيْلِ المراد منه. ففكَّرتُ، فوجدتُ أنَّني إِنْ إِقتصرتُ على مطالعة كُتب المصطلح، يَطولُ عليَّ الأمرُ جدًّا؛ لأنَّ المراد مِنْ كلِّ عِلمٍ تطبيقُ قواعده على أمور تَحدث للإنسان وتَعرضُ له. وكُتبُ المصطلح وحدها مع كونها لازمة لِمعرفة إِصطلاحات الفنِّ، لا تَفِي بِهذا الغرض مطلقاً، لأني قرأتُ شيئاً منه على أخي السيدِ عبدِ الله، وأخذتُ منه جملةً لا بأس بها، ومع ذلك وجدتُ نفسي بعيداً عن المراد جدًّا. ولم يمكِّنِّي بقراءة ما قرأتُ مِنَ المصطلح أَنْ أطبِّقَ قاعدةً مِنْ قواعده على مسألةٍ مِنْ مسائِلِ عِلم الحديث.

وهُنـــا أقِفُ وقلبي مملوءٌ إجلالاً وإعترافاً بِما كان عليه مولانا الوالدُ رضي الله عنه مِنَ النَّظر الثاقب والفِراسة الصادقة، والكشف المؤيَّدِ بِنور الله، وكونه كان يُحدِّثني بأمورٍ في صغري وأنا غير أهلٍ لها ولا مِنَ العارفين لِقِيمتِها المقدِّرِين قدرها، لأَنَّها ستَحدث لي في المستقبل وفي الوقت الذي أكون محتاجاً فيه إلى إرشاداته وتوجيهاته، ولا يكون موجوداً بيننا.

وذلك أَنِّي أَذكرُ وأنا في سنِّ الصِّبا، لا أعرف معنىً للعلم مطلقاً، فضلاً عن الحديث؛ أتيتُه بكتاب ''اللآلِئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة''، للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى، مِنْ عند بعض باعة الكتب لِيشتريه، فقال لي: ''خُذْهُ أنتَ، فإِنَّه نافعٌ جدًّا وبه فهِمَ فلانٌ وفلانٌ الحديثَ فهماً جيِّداً''.

فأخذتُ منه هذا القول في ذلك الحين، ولم أحسب له حساباً ولا أقمتُ له وزناً، بل صرتُ أتعجَّبُ كيف يكون ذلك الكتابُ هو أستاذ ذلك الرَّجلين مع ما هما عليه مِنَ الشهرة في هذا العِلم ؟!

ثم مع ذلك كله لَمَّا فتحتُ ''اللآلِئ المصنوعة'' لأَنظُرَ فيه، لم أفهم إِصطلاحَه مطلقاً ولا عرفتُ في أيِّ موضوعٍ يتكلم، فتركتُ الكتابَ عندي إِمتثالاً لأمره لا غير. وبقيَتْ كلمتُه في كونه كان سبباً لمعرفة الحديث لذلك الرَّجلين في أُذني مرتسمةً محفوظةً كأَنِّي سمعتُها في الحين، إلى أَنْ جاء الوقت الذي تنفعني وترشدني في حيرتي، وتَسلك بي الطريقَ القريبَ الذي أريد أَنْ أتوصَّلَ به إلى علم الحديث الذي تعلَّق به قلبي، وصرتُ أتحدَّث به مع نفسي ليل نهار. فما أَنْ رجع ذهني إلى هذه الكلمة في شأن ''اللآلِئ المصنوعة'' حتى سُري عنِّي تماماً، وزال عن نفسي الاضطرابُ الذي

كنتُ أتخبَّطُ فيه وأُقدِّم مِنْ أجله رِجلاً وأؤخِّر أخرَى في شأن كيفية أخْذِه والاشتغال به.

فمددتُ يدي إلى الكتاب وكان على مقربةٍ منّي، وشرعتُ في قراءته مِنْ أولِه، ولم أكد أقرأ منه النِّصفَ حتى شعرتُ بأنَّ البابَ لِفَهْمِ الحديث قد فُتِح، وأنَّ الطريق لمعرفة الصحيح مِنَ السقيم قد قصرت، وأنَّ الغايةَ المرجُوَّة قريبةُ المنال قد لاح في الأفق نورُ فجرِها.

فمضيتُ في قراءة الكتاب ومواصلة النظر فيه، وزادني اِنتفاعاً به أنَّه تيسَّر لي أثناء مطالعته بعضُ الأجزاء الحديثيَّة، فكنتُ أقرأها وأراجعُ عليها ما علِقَ بذهني مِنْ أحاديث ''اللآلِئ''، وأستدركُ منها على السيوطي رحمه الله ما لم يَذكره وفاتَه الوقوفُ عليه.

فخرجتُ بهذه الطريقة مِنْ قراءته للمرة الأُولى بِعلمٍ عظيمٍ جمٍّ، وفائدةٍ جليلةٍ جدًّا، وأَمكَنَ لي لأول مرَّةٍ مِنْ قراءته الاستدراك والاعتراض والتنبيه على بعض المسائل المتعلقة بالأحاديث في المتن والإسناد. وكتبتُ على هامش نسختي مِنْ ذلك ما جرَّدتُه في جزءٍ مستقلٍّ سمَّيتُه: '' **الجَواهِر الغَوالِي في تعليقاتِ اللآلِي** ''.

فصل

في أهم مايحتاج إليه المحدث

وبعد الانتهاء مِنْ قراءة كتاب ''اللآلِئ''، وجدتُ نفسي قد أخذتُ مِنْ عِلم الحديث ما أخوض به غِماره، وأقتحم به سهلَه وصعبَه. لأنِّي تعلَّمتُ مِنَ ''اللآلِئ'' أهمَّ شيءٍ يحتاج إليه المُحدِّثُ بل هو غاية كلِّ مُحَدِّثٍ، وهو نقْدُ الرجال وسبْرُ الطرق، وتمييزُ الصحيح مِنَ الضعيفِ مِنَ الموضوعِ، مِنْ أول نظرةٍ في متن الحديثِ، مع الاطلاع على جملةٍ وافرةٍ مِنْ متون الأحاديث الموضوعة وغير الموضوعة.

فشرعتُ بعده في قراءة كُتب التخريج، وهي كبيرة النفع جليلةُ الفائدة في الباب، تُقرِّبُ الأقْصَى مِنْ علم الحديث في وقتٍ بسيطٍ، وتُعِينُ على معرفة القواعد وتطبيقها، وتُسهِّل طريقَ النقد؛ لأنها خلاصةُ أفكار الحُفّاظ في الحكم على الأحاديث مِنْ تصحيحٍ وتضعيفٍ، وبيانُ دليلِ كلِّ واحدٍ منهم، وزبدةُ أقوالهم في نقد الرجال وبيان عِلل الأحاديث.

وفي كلِّ هذا علمٌ عظيمٌ لِمن تدبَّره وفَهِمه حقَّ الفهم، زيادة على الاطلاع على طُرقِ الأحاديث ومعرفة المتابَعات والشواهد. ففائدة كُتب التخريج لِمن يريد التَّبرز في عِلم الحديث لا يُنكرها إلَّا مَنْ لا يُقدِّر قدر هذا العلم، ولا يعترف بِمِيزتِه وخُصوصِيَّته عموماً.

فصل

إقبال المصنف على كتب التخريج

وكان أول كتابٍ قرأتُه في هذا الباب: تخريج أحاديث مُسنَدِ الشِّهاب، لِشقِيقِي أَبِي الفَيْضِ، المُسمَّى: "مُنْية الطُّلَّاب". وهو وإنْ كان غير مُحرَّرٍ ولا مُعتَمَدٍ عنده لأنه أَلَّفه في مبدئِ اِشتغالِه بالفنّ، إلَّا أنه يحتوي على فوائد، وفيه نُقولٌ لا بأس بها، ولا يَخلو مِنْ فائدةٍ رغم كون مؤلِّفِه كتَبَ عليه أَنَّه غيرُ معتمَدٍ عنده، على أَنَّه قال: ربَّما يُوجد فيه ما لا يُوجد في التخريج المحرَّر.

وعيْبُه الوحيدُ عنده، هو أنه تبع في عَزْوِ بعض الأحاديث مَنْ تَقَدَّمه كالسَّخاوي في "المَقاصد الحسنة" والسيوطي في "الجامع الصغير"، فلم يقف على الكتب المعْزُوَّةِ إليها تلك الأحاديث بنفسه، وهو أمرٌ سهلٌ لكن الأَوْلَى والأفضل خِلافه.

ولِذا سلك في المُستخرَجِ على" مُسنَدِ الشِّهاب" المسمَّى: "الإِسْهاب" طريقَ الاجتهاد والنقد العارية عن التقليد المحْضِ، فلم يَذكر فيه إلَّا الأحاديث التي وقف على إسنادها كاملاً غير ناقصٍ. وهي طريقةٌ مأمونةٌ مِنَ الغلط والخطَإِ بخلاف الطريق الأُولَى، فإنَّ صاحِبَها يقع في وهْمٍ كبيرٍ. وقد حصل لِشقِيقِنا بعضُ الوهم في ذلك التخريج بسبب ذلك، وهو معذورٌ لِما بيَّنتُه.

وقد اِستدركتُ عليه أموراً كتبتُها على هامش تلك النسخة التي كانت بِخطِّه. والله أعلم.

فصل

في ذكر ماقرأه المصنف من كتب التخريج

ثم قرأتُ بعده ''التلخِيص الحَبِير في تخريج أحاديث الشَّرحِ الكبير''، للحافظ اِبنِ حَجَر، وهو كتابٌ في غاية النَّفاسة والجودة، أظهَرَ فيه الحافظُ براعةً فائقةً كعادته في جميع مصنَّفاتِه في هذا العلم. وقد أثنى على ''التلخيص'' الحافظُ السيوطي رحمه الله في رسالته: ''بلوغ المأمول في خدمة الرَّسول'' بقوله: ''وفي هذا الكتاب الجليل مِنْ نفائس الصناعة الحديثِيَّة ما لا يَعرفه إِلَّا المتبحِّرُ في الفنِّ كمؤلِّفِه'' اهـ.

وقرأتُ تخريجَ أحاديث المِنهاج لِشقِيقِي السيد عبدِ الله، المسمَّى: ''الابْتِهاج بِتخريج أحاديث المِنهاج''، يعني منهاج البَيْضاوي في الأُصول. وزدتُ عليه زوائدَ مهمةً جدًّا للغاية، وقد كتبه وهو غيرُ متقِنٍ للفنِّ، فوقع له فيه بعضُ الوهم بسبب التقليد في العَزْوِ، فاِستدركتُ عليه بعضَ الطرق مِنْ كُتبٍ لم يقف عليها ساعةَ كِتابتِه.

وقرأتُ تخريجَ أحاديث الكَشاف للحافظ اِبنِ حَجَر، المسمَّى: ''الكافِي الشَّافِ''، وهو مختصَرٌ مِنْ تخريج الزَّيْلَعِي لأحاديثه لكنَّ الحافظَ زاد تخريجَ الآثار الموقوفة.

وقرأتُ تخريج أحاديث الإِحياء للحافظ العِراقي رحمه الله، المسمَّى: ''المُغْنِي عن حَمْلِ الأسفار''، وزِدتُ عليه فوائد مهمَّةً. بل مِنْ أعجب ما وقفتُ عليه فيه، إنكار العِراقي لِحديث عِمْرانَ بْنِ حُصَيْنٍ في عِيَّادة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم لِفاطمةَ عليها السلام وقولِه لها: « **إِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحوقاً بِي** »؛ فقد قال بعد تخريجِه مِنْ طُرقٍ أخرى: ''لا يوجد عن عِمْرانَ اِبْنِ حُصَيْنٍ''، مع أنه موجودٌ مِنْ حديثِه، رواه الطَّحاوي في ''مشكل الآثار''. وقد كتبتُه على هامش نسختِي.

وقرأتُ ''نَصْب الرَّاية'' للحافظ الزَّيْلَعي في تخريج أحاديث الهداية، لكن لم يُسعدني الحظُّ بقراءته كلِّه، وهو كتابٌ نفيسٌ للغاية بل مِنْ أنفس ما كُتِب في دلائل فِقه الحنفية.

وقرأتُ كتباً أخرى مِثل: تخريج أحاديث الشِّفا للحافظ السيوطي، المسمَّى ''مناهل الصَّفا''، وهو مختصرٌ جدًّا.

وقد اِنتفعتُ بقراءة هذه الكتب غايةً، وحصل لي بسببها فتحٌ عظيمٌ في علم الحديثِ والحمد لله.

فصل

في تأليف المصنف كتاب ''بلوغ الأمانِي مِنْ موضوعاتِ الصَّغاني''

وبعد ما آنستُ مِنْ نفسي الخبرةَ بهذا الفنِّ، أردتُ أَنْ أمتحِنَها لأَعرف الرتبةَ التي بلَغتُها فيه، فشرعتُ في جمع كتابٍ نقدتُ فيه موضوعاتِ الصَّغاني؛ لأَنَّ بالكتابة تُعرف فقاهةُ النفس، وبالجمع والتأليف تُعرف قوةُ المَلَكةِ الحاصلةِ في الفنّ، لِما يُحتاج في ذلك مِنَ الإحاطة بالأقوال، وتمييزِ صحيحِها مِنْ ضعيفِها، ومعرفة سلامةِ دليلِ كلِّ قولٍ مِنَ الضعف والوهن، فجاء بحمد الله تعالى كتاباً قيّماً مفيداً جامعاً يدلُّ على خبرةٍ وإتقانٍ، وسُرَّ به مَنْ رآه مِنْ أهل العِلم لا سيما مَنْ يشتغل بهذا العلم، وسمَيتُه: ''**بلوغ الأمانِي مِنْ موضوعاتِ الصَّغاني**''.

ولَمَّا اِطَّلع عليه شقِيقِي أَبُو الفَيْضِ سُرَّ به، وقال لي فيما كَتَبه إِليَّ مِنْ طنجة: ''كان يَنبغِي أَنْ تُسمِّيَه بِهَزِيجِ الأَغَاني، لإِطْرابِه بفوائده قارئه''.

وعند ذاك تابعتُ الكتابةَ والتأليفَ ومطالعةَ كُتب الفنِّ صغيرها وكبيرها، وطالعتُ مِنَ الأجزاء الصغيرة والكتب الكبيرة في الحديث الشيءَ الكثيرَ، والحمد لله ربِّ العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

فصل

في إشتغاله بالكتابة والبحث والمطالعة

ومما مَنَّ الله به عليَّ وأكرمني به دون كثيرٍ مِنَ الناس في هذا العصر، حب الاعتكاف على المطالعة ومواصلة الأيام بلياليها في قراءة الكتب مع عدم الملل والضجر. وبذلك تيسَّرَ لي ولله الحمدُ والمِنَّةُ قراءة عدة مجلداتٍ، والوقوف على نفائس الفوائد في علم الحديث وغيره. وكان لذلك أعظمُ الأثر في الحصول على المقام الذي لم يَظفر به كثيرٌ مِنَ الناس، مع طول ملازمتهم للشيوخ وكثرة شدِّ الرِّحال إليهم.

وكانت أوقاتي لَـمَّا كنتُ بِمِصْرَ دائـرةً بين الكتابة والبحث والمطالعة، وكنتُ أترَدَّدُ على مكتبة دار الكُتب، ومكتبة الأزهر، فتَجدني مرةً في هذه، وأخرَى في هذه. وتيسَّر لي بسبب ذلك قراءة كُتبٍ نفيسةٍ ما سمع بها غيري فضلاً عن أنْ يقرأها. ونسخْتُ مِنَ المكتبتين ما كنتُ أستطيع نسخَه مِنَ الأجزاء الحديثيَّةِ؛ وإنتقيْتُ مِنَ الكتب الكبيرة ما كنتُ أرَى أنّي سأحتاج إليه.

وهكذا كانت أيامي في مِصْرَ دائرةً بين المطالعة والكتابة، فإذا كنتُ في المنزل إشتغلتُ بالتأليف والمطالعة، وإذا خرجتُ قصدتُ إحدَى المكتبتين المذكورتين لِمراجعة ما لا يُمكن مراجعتُه إلا فيهما. فحصلَتْ لي مِنْ ذلك فائدةٌ جليلةٌ، وإنتفعتُ أيَّما إنتفاعٍ.

فصل

استفادته من شقيقه الاكبر الحافظ أحمد بن الصديق وتدربه من مؤلفاته

وكنتُ أكاتِبُ شقِيقِي أَبا الفَيضِ في طَنْجَة في المسائل الحديثِيَّةِ وما يشكل عليَّ منها في بعض الأحيان، لِما له مِنَ الخبرة التَّامة والمعرفةِ الكاملةِ، والاطِّلاعِ الواسعِ على مسائل هذا العلم وقضاياه. وله فيه مصنَّفاتٌ مفيدةٌ للغاية، قرأتُ منها العدَدَ الكثيرَ وإنتفعتُ بها. وقد قرأتُ مِنْ كُتبِه:

١ ـ "المَثْنوني والبَتّار في نَحْرِ العَنيدِ المِعْثار الطَّاعنِ فِيما صحَّ مِنَ السُّننِ والآثار". ردَّ فيه على كتابِ الخَضِرِ الشنْقيطي في إنكار سنِّيةِ القبض في الصلاة على مذهب الإمام مالِكٍ. وهو في جُزءيْنِ، أعنِي كتابَ أَبِي الفَيض، لكنَّه لم يطبع إلَّا الجزء الأول في مجلَّدٍ، وهو الذي قرأتُ وفيه غرائب وعجائب مِنَ الأبحاث والنقول.

٢ ـ وقرأتُ كتابه: "تَشنِيف الآذان".

٣ ـ وكتابَه: "البرهان الواضح الجَلِيّ في تحقيق إنْتِساب الصوفية إلى علِيٍّ".

٤ ـ وكتابه: "إِبْراز الوهْمِ المكْنُونِ مِنْ كلامِ إبْنِ خَلْدون" ردَّ عليه في إنكاره لأحاديث المَهْدِي.

٥ ـ وكتابه: "الاستعاذَة والحَسْبَلَة مِمَّن صحَّحَ حديثَ البَسْمَلة".

٦ ـ و ''إرشاد المُربعين لِطُرق حديث الأَربَعِين''.

٧ ـ و ''شوارِق الأنوار المُنِيفَة بِظهور النَّواجِذِ الشَّرِيفَة''.

٨ ـ و ''الأفضال والمِنَّة برؤية النِّساء لله في الجنَّة''.

٩ـ. و ''الحَنِين بِوضْعِ حديثِ الأَنِين''.

١٠ ـ و ''دَرْءِ الضعْفِ عن حديث: '**مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ**'''.

ردَّ فيه على اِبن القَيِّمِ في طعْنِه في صحَّة هذا الحديث في كتاب ''الهَدْي النَّبوي'' وقد أجاد فيه غايةً.

١١ ـ و ''المُغِير على الأحاديث المَوضوعة في الجامِع الصَّغير''.

١٢ ـ و''مُسند الجِنِّ''. ذَكر فيه الأحاديث المروية مِنْ طريق الجِنِّ مِثل شمْهَروش وأمثاله.

١٣ ـ و''هدِيَّة الصغَراء في تصحيحِ حديث التَّوسِعة يوم عاشوراء''.

١٤ ـ و''تَبْيِين البَله مِمَّن أَنْكَر حديثَ: ''**ومَنْ لَغا فَلا جُمعَةَ له**''.

١٥ ـ و''المُؤانَسة بالمَرفوع مِنْ حديث المُجالَسَة''.

١٦ ـ و''إزالة الخَطَر عمَّن جَمَع بين الصَّلاتيْن في الحَضَر''.

١٧ ـ و''إحْياء المَقبور بِاتِّخاذِ المَساجِدِ على القُبور''.

١٨ ـ و''صَفْع التَّيّاهِ بِإبْطالِ حديث: « **ليس بِخيركم مَنْ تَرك دُنْياه**''.

١٩ ـ و''وسائِل الخَلاص مِنْ تحريفِ حديثِ: « **مَنْ فارق الدُّنيا على الإخلاص**''.

٢٠ ـ و'' الإجازة لِلتَّكبِيراتِ السَّبْعِ على الجنازة''.

٢١ ـ و''شَدّ الوَطْأةِ علَى مُنكِرِ إمامَةِ المَرأة''.

٢٢ ـ و''إظْهار ما كان خَفِيًّا مِنْ بطلان حديثِ: ''**لو كان العِلمُ بِالثُّرَيَّا**''.

٢٣ ـ و''إيَّاكَ مِنَ الاغترار بِحديث: اِعْمَلْ لِدُنْياكَ''.

٢٤ ـ و''المُسْهِم في طُرق حديثِ: ''**طَلَبُ العِلم فَرِيضةٌ على كلِّ مسلِمٍ**''.

٢٥ ـ و''الأخبار المسطُورة في القِراءة في الصَّلاةِ ببعض السُّورة''.

٢٦ ـ و ''العِقد الثَّمين في الكلام على حديثِ: « **إنَّ اللهَ يَبْغَضُ الحَبْرَ السَّمِين**''.

٢٧ ـ و ''شُهُود العيان بِثُبوتِ حديثِ: « **رُفِع عن أُمَّتِي الخَطَأُ والنِّسْيانُ**''.

٢٨ ـ و''تحقيق الآمالِ في إخْراجِ زكاةِ الفِطْرِ بِالمالِ''.

٢٩ ـ و''نَفْث الرَّوع بِأنَّ الركعَةَ لا تُدرَك بِالركوع''.

٣٠ ـ و''العَتْب الإعْلاني لِمَن وَثَّق صالِحَ الفلَّاني''.

٣١ ـ وتآليفه في الأحاديث المتواترة، وهي نحو سبعة عشر كتاباً.

٣٢ ـ و''جُؤْنَة العَطَّار في طُرَفِ الفوائد ولطائِفِ الأخبار''.

إلى غير هذا مِنْ كُتبه الأخرى التي لا أستحضرها الآن.

وقرأتُ شيْئاً كثيراً مِنْ مستخرَجِه على ''مُسند الشِّهاب'' المسمى: « الإِسْهاب''، وهو في مجلدين ضخمين.

٣٣ ـ كما قرأتُ الشيءَ الكثيرَ مِنْ كتابه: ''المُداوِي لِعِلَلِ شَرْحَي المُناوِي''، وهو في سِتِّ مجلَّداتٍ.

٣٤ ـ وكتابه: ''مَسالِك الدّلالة''، وهو مفيدٌ نفيسٌ، قرأتُ ما يَقرب مِنْ نِصفِه بِمِصْرَ.

ولا يفوتُنِي أَنْ أخصَّ بالذكر هنا كتابه '' فَتْح المَلِكِ العَلِيِّ بصحَّةِ حديثِ باب مدينة العِلْم عَلِيٍّ''، فإنَّه مِنَ الكتب التي نفعَتْنِي في التَّضلُّعِ في هذا العِلم، وأكسَبتْنِي خبرةً ودرايةً بأصوله وفروعه.

ويُمكِن أَنْ أَقولَ إنَّ معرفتِي بِعِلم الحديث كانت بِواسطة كِتابيْنِ أخذْتُ مِنْ كلِّ واحدٍ منهما ما لم آخذه مِنَ الآخَر:

الأول: ''اللآلِئ المصنوعة'' للحافظ السيوطي، وقد أخذتُ منه معرفة جَمْع الطُّرق وسَبْر المُتابَعات، واطَّلعتُ بسببه على المتون، وتعلَّمتُ منه كيفية الحكم على الأحاديث. ودرج بي ذلك إلى قراءة كتب التخريج والكتب المسندة، فحصل لي بذلك اِطِّلاعٌ واسعٌ ووقفتُ في وقتٍ

قليلٍ على مسائل كثيرةٍ.

الثاني: ''فَتْحُ المَلِكِ العَلِيّ'' لشقِيقِي أَبِي الفَيضِ، وقد تعلّمتُ منه أموراً مهمةً في عِلم الحديث، وفتَحَ لي باباً لا يُفْتَح لكلِّ أحدٍ إلا بعد مدةٍ مِنَ القراءة والبحث. وذلك الباب الذي فُتِح لي بسبب هذا الكتاب هو معرفة نقْدِ الأقوال في الرِّجال وكيفية الوصول إلى الحُكم على سنَدِ الحديث بالقول السالم مِنْ دسائِسِ الدَّسّاسين مِنْ أهل الفِرَقِ. وبعبارةٍ أخرى أنَّني توصلتُ به إلى الاجتهاد في هذا العِلمِ.

وقد صرتُ ولله الحمدُ أقول قولي في سند الحديث وأنا مطمئنُّ البال، طيّبُ الخاطِرِ، لا تَشُوب نفسي شائبة الخوف مِنْ أَنْ أكون قلتُ قولاً تَبِعتُ فيه غيري مِنْ غير دليلٍ ولا برهانٍ.

والحاصل أنني أخذتُ مِنْ هذا الكتاب، الطريقَ التي سهَّلَتْ عليَّ الاجتهادَ في علم الحديث، والتي وقفتُ بسببها على أمور راجَتْ بين أهل الحديث واعتنقوا صحّتها واتَّخذوها مذهباً وقولاً مُسَلَّماً لا يَقْبل الرَّدَّ والنَّقدَ، وهي ـ وأَيْمُ الحقِّ ـ باطلةٌ مردودةٌ لا تقوم على أساسٍ، ولا يَنهض بها دليلٌ ولا تُؤيّدها حُجَّة. وإنما اِختلقها رجلٌ ذو غَرضٍ وزَيَّنها بزُخرفٍ مِنَ القول فأخذها عنه مَنْ أخذها مُسَلَّمةً لا نزاع فيها، مِنْ غير نظرٍ في دليلٍ ولا برهانٍ، وجاء الآخر فأخذها كذلك، وهكذا تسلسل الآخِذون وتسلسل معهم الغَلَطُ والخطأُ مِنْ غير أَنْ يتنبَّهوا له. والسبب في ذلك يرجع إلى التقليد وعدم الوقوف مع الدليل والبرهان، وتمحيص أقوال الرجال قبل أخذِها والعمل بها، وقد حصل بسبب هذا خطأٌ وأوهامٌ وأغلاطٌ شنيعةٌ فِيما سَمّوه عقيدةً. نسأل الله الصَّونَ والعافية.

والمقصود هو أَنَّ اِنتفاعي بهذا الكتاب كان جليلاً عظيماً لا أقدر قدره، ولِذا طالعتُه أكثرَ مِنْ مرةٍ، وفي كلِّ مرةٍ كنتُ أقف فيه على فوائد، وتَظهر لي منه نُكتٌ بديعةٌ لم تكن ظاهرة في المرة الأُولَى، والحمد لله ربِّ العالمين.

فصـل

في ماحكاه المصنف من حال مصر عند وقوع الحرب العالمية الثانية

وفي أثناء هذا، نشبَتِ الحرب العالمية الثانية، وذلك في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف، بين ألمانيا وإيطاليا وحلفائهما مِنْ جهة، وبين فرنسا وإنجلترا مِنْ جهةٍ أخرى.

وتسبَّبَ عن ذلك أَنْ صارت الدِّيار المِصرية مسرحاً للمعارك بين الجيوش، واتَّخذوا مدنها وقُراها هدفاً لغاراتهم بالطائرات. الأمر الذي دعا الحكومة المصرية إلى أَنْ تحتفظ بالتحف النادرة القيمة في أماكن بعيدةٍ آمِنةٍ مِنَ القنابل، وكان مِنْ بين الأمور التي شملها الحِفظُ الكتب الخطِّيَّة الموجودة بدار الكتب، فصار مِنَ المتعذِّرِ الوقوف على الكتاب المطلوب إلَّا بصعوبةٍ.

ثم تبِعَ ذلك أَن اِستفحل أمر الغارات بشكلٍ فظيعٍ، حتى صِرنا لا ننام مِنَ الليل إلَّا ساعةً أو ساعتيْنِ، ثم نستيقظ على دَوِيِّ الانفجارات. وطلبَتِ الحكومة مع ذلك عدم ظهور الضوء مِنَ النوافذ ليلاً، وشدَّدت في ذلك حتى صِرنا نأوي إلى مضاجِعِنا في أول الليل.

فتَبلبل الفِكرُ لأجل ذلك، وضعفت الهِمَّةُ مِنْ جراء تلك الفِتَنِ، ومع كلِّ هذا وذاك لم يَمُت النشاطُ تماماً ولم تَخُر العزيمةُ بالمرَّة، بل كنتُ أغتنم ساعاتِ التَّسلِّي عن تلك الأحزان فأصرفُها في الجمع والتقييد. وكتبتُ بين دَويِّ قنابل الطائرات وقصْفِ المدافع المُضادَّةِ لها رسائلَ ومقالاتٍ، وقرأتُ رسائلَ ومجلداتٍ، والحمد لله ربِّ العالمين على مَنِّه وفضلِه.

واستمرَّ الحال على هذا الأمر ما يَقرب مِنْ خمس سنواتٍ، ثم أخذ يذهب شيئاً فشيئاً إلى أن اِنْجلَى الكربُ تماماً، ومَنَّ الله بالفرج وعادت الأمور إلى نِظامها الأول، وعُدتُ إلى ما كنتُ عليه سابقاً مِنَ البحث والمثابرة على المطالعة. وكنتُ أمكث في أغلب الأحيان إلى ما يَقربُ مِنْ نصف الليل وأنا أقرأ أو أكتبُ، وختمتُ قراءة عدَّةِ كُتبٍ كثيرةٍ كبيرةٍ وصغيرةٍ، ونسختُ بِيدِي عدَّةَ أجزاء حديثِيَّةٍ، وذلك مِنْ فضل الله.

فصل

عودة المصنف الى المغرب والإشادة بما انتفع به في مصر

ولـمَّا وضعَتِ الحربُ أوزارها، وعادت المياه إلى مجاريها واستقرَّ الأمنُ في البحر، قدِمَ علينا شقيقُنا أَبُو الفَيْضِ مِنْ طَنْجَة، وذلك في شهر ذِي الحِجَّة الحرام سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف. فمكث بِمِصر مدَّةَ ثلاثة أشهرٍ أو أربعة، ثم تَهيَّأ للرجوع إلى أرض الوطن فرجعْتُ معه. وكان ذلك في شهر ربيع النبوي سنة ستٍّ وستِّين، وبذلك ختمتُ إقامتي بِمِصْرَ واِنْتهى ما كُتب لي مِنَ الإقامة فيها، وكانت مدَّةُ الإقامة فيها نحو اِثني عشر عاماً. وقد اِنتفعتُ فيها اِنتفاعاً عظيماً، حيث كان البالُ فارغاً مِنْ كلِّ ما يَشغله والفكرُ بعيداً عن كلِّ ما يُبلْبِله، والهمَّةُ منصرفَةٌ إلى العِلم بالـمرَّة، وإلى الله تُرجعُ الأمور.

واِستفدتُ زيادةً على هذا مِمَّن كنتُ أُقابلُه بِها مِنَ الرِّجال الوافدين عليها والقاطِنين بها مِنْ مغاربة، وأتراك، وشاميِّين، وحجازيين، وغيرهم. واِستجزْتُ بِها جماعةً مِنَ الشيوخ، كما كاتبتُ منها شيوخاً في الحجاز والشام.

ومِصْرُ هي الدُّنيا، فمَنْ لم يَدخلْ مِصْرَ ويَرَى حياتَها فلَمْ يَرَ الدُّنيا، ولا يعرف أين يعيش في الدُّنيا ؟

فصل

تمسك المصنف بما رباه عليه والده

ومع كون حالِ مِصْرَ اليوم لا يُساعد المَرءَ على التمسك بدينِه، ولا يَأمَنُ المقِيمُ بها مِنْ زَلَقاتٍ وسقطاتٍ تُخِلُّ بإسلامه لِمَا عليه الجمهورُ - لا فرق بين العالِمِ والجاهِلِ والغنِيِّ والفقيرِ - مِنْ فساد الأخلاق وحبِّ التفرنج ومتابعة الكُفَّار في الصغير والكبير، واِحتقارِهم لكلِّ مَنْ يخالف طريقَتَهم ويفارق مذهبَهم ومِنهاجَهُم.

أقولُ: مع هذا كلِّه ولله الحمدُ، لم أخرجْ عمَّا يَأمر به الدِّينُ ولم أَتَّبِعْ غيرَ سبيلِ المؤمنين، ولم أسلكْ منهاجاً غير المنهاج الذي وجدتُ عليه والدي وتربَّيْتُ فيه؛ حتى كان الكثير مِنَ المِصريِّين

يَعجب مِنْ حالي ذلك مع صِغَرِ السِّنِّ وفوْرَةِ الشباب. وكلُّ ذلك مِنْ فضل الله ومِنَّتِه لا بِحولٍ مِنّي ولا قوَّةٍ.

فصل

في أول ما صنفه المصنف بعد عودته من مصر

ولَمَّا قدِمتُ إلى ثَغْرِ طَنْجَة مسقط رأسي بعد أَنْ فارقتُه هذه المدَّةَ الطويلة، مكثْتُ مدَّةً مِنَ الزمن وأنا منصرِفٌ عن الاشتغال على الطريقة التي كنتُ عليها بِمِصرَ، لكَثْرةِ العوارض الصارفة عن ذلك، مِنْ مقابلة الإخوان ومجالسة الأصدقاء والأهل، وغير ذلك مِنَ الأمور التي تُلازِمُ الإنسانَ في داره وأرضِ وطنِه.

وبعد فترةٍ مِنَ ذلك التوقف، عُدتُ بِنفسي إلى الطريقة المعهودة وأَرجعْتُها إلى سِيرتِها الأُولَى. وكان أَوَّلُ عملٍ قمتُ به بعد العودةِ ''**تخريج أحاديثِ التَّعَرُّفِ لِلكَلاباذِي**''، وقد شرعتُ فيه وأنا بالقاهرةِ ولم أَكَدْ أَصِلُ إلى نِصفِه حتَّى عرض السفرُ والاستعدادُ للرحيل، فتركتُه. فلمَّا أتْمَمتُه، شرعتُ في نسْخِ بعض الأجزاء الحديثِيَّة، ثم تابعتُ ذلك بالتأليف، فكتبتُ كتاباً لطيفاً في ذَمِّ السِّمَن سمَّيْتُه ''**قَطْع الوَتينِ مِمَّن يُحبُّ السِّمَنَ ويَغْبِطُ السَّمين**''.

وقمتُ أثناء هذا بمهمَّة الخُطبة في زاويتِنا، وقد كانت خُطَبِي كلُّها تَسرُّ السامعين وتأخذ بألبابِهم، وتقع منهم موقِعاً عظيماً جدًّا؛ بل صرَّح الكثيرُ بأنهم لم يَعُودوا يَستحسِنُوا خُطبةَ خطيبٍ بعد سماعِهم لِخُطبِي، والحمد لله على فضلِه.

فصل

مجاهدته لنفسه في الإقبال على المطالعة والكتابة

الأرواح تَمرَضُ كما تَمرضُ الأشباح، والقلوب تَصدَأُ كما يَصدأُ الحديد، والنفس إذا أهملْتَها ولم تَسلك بِها طريقَ الحزم والعزم سرحَتْ في ميادين البطالة والكسل، ورَعَتْ مع أهل الراحة وترْكِ العمل. وذلك أَنِّي لَمَّا قدِمتُ إلى طَنْجَة ومكثْتُ مدَّةً على الحالة التي وصفْتُ، شعرْتُ بأَنَّ نفسي

لا تُساعدني على القراءة والكتابة إلَّا بتكلُّفٍ ومشقَّةٍ على خلاف ما كنتُ عليه سابقاً في مِصْرَ. وتألَّمتُ مِنْ هذا الحال جدًّا، إذ فيه الرجوع إلى الوراء والنزول مِنَ الذروة إلى الحضيض، فَمِنْ قَطْعِ الأيام بلَياليها في المطالعة والكتابة، ومواصلة الاشتغال بدون هوادةٍ ولا راحةٍ، إلى العجز التَّامِّ والإخلاد إلى الراحة المُطلَقَةِ.

فألزمْتُ نفسي العمل لِئلَّا تَأنس بذلك فتجفُو الاشتغال بالعلم، وتركتُ ما كنتُ فيه مِنَ الاشتغال بِما لا يفيد ولا يَنفع، واستطعتُ بِهذا أنْ أتغلَّبَ عليها وأُرغِمَها على ما أُحِب. ولم يكن هذا سهلاً عليَّ، فقد كنتُ أحسُّ أثناء ذلك بِمنازعةٍ قويَّةٍ مِنْ جانب النفس في حُبِّ الراحة والإخلاد إلى الكسل، وارتياد الحدائق والأجنة.

وكثيراً ما كانت تخاطبني بقولِها: أَمَا كفاكَ ما سبَقَ مِنَ التعب طِيلةَ إقامتِكَ في بلاد الغُربة ؟ أَمَا تأخذ نصيبَكَ مع الناس مِنَ الراحة والرفاهية ؟ فكنتُ أُجيبُها بقولي: ''إنَّ العِلمَ آفتُه التَّركُ، وليس له وقتٌ محدودٌ يُطلبُ فيه، ولا غايةٌ ينتهي إليها، بل قديماً قالوا: اِطْلُبِ العِلمَ مِنَ المَهد إلى اللَّحْدِ، وحياةُ العِلم المذاكرةُ والبحثُ''.

فنَفعَتْها النصيحةُ واهتدت بالإرشاد ورضِيَتْ بِما قُلتُ، وقَبِلَت القولَ أحسنَ القَبول. والحمد لله ربِّ العالمين، لا خيرَ إلَّا خيره، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله.

فصل

في مذهب المصنف في الإعتقاد

ومذهبِي في الاعتقاد هو مذهب السلف السالِمِ مِنَ الشكوك والأوهام، ومِنَ القولِ في ذاتِ الله وصِفاتِه بالظنِّ وضُروبٍ مِنَ الآراء والتَّخمينات كما هو مذهب المتأخِّرين، الذين أَدْخَلوا على الآيات والأحاديث الواردة في صفات الله تعالى تأويلاتٍ يَأْباها المؤمن الصادق ويَمُجُّها طَبعُ المسلم، لأنَّها كلها ضلالٌ مِنْ غير شكٍّ، ورَجْمٌ بالغيب، وحُكْمٌ على الله وصِفاتِه بالرأي المحضِ، وتحريفٌ بل تكذيبٌ لله ورسولِه بِالمرَّة، ونعوذ بالله مِنْ كلِّ سُوءٍ.

بل أعتقد أنَّ الله سبحانه وتعالى واحدٌ لا شريك له، وأنَّه منزَّهٌ عن كلِّ ما يُماثِل الحوادث ﴿ **لَيْسَ**

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ ﴾. وأُومن بما أخبر في كِتابه وعلى لسان رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ صِفاتِه مِنْ غير تأويلٍ ولا تبديلٍ ولا تحريفٍ، مع تنزيهه سبحانه وتعالى عن التَّجسِيم والتشبيه، ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْبَصِيرُ** ﴾.

وهذا هو المذهب الحقُّ الذي لا ينبغِي لِمَن يريد السلامة في عُقباه أَنْ يَحِيدَ عنه ويعتقد خلافه. وهو المذهب الذي كان عليه الصحابةُ والتابعون ومَنْ تَبِعهم بإحسانٍ، إلى أَنْ ظهرت البدعُ القبيحةُ بواسطة كُتب المِلل التي تُرجِمتْ إلى العربية، فاختَلطَ على الناس الأمر، وجرَّتْهم الأهواء إلى الخوض فيما نُهوا عنه، فابْتلاهم الله بسبب ذلك إلى ترْكِ القولِ الحقِّ في عقيدتهم وانصرفوا إلى خرافاتٍ وأباطيلَ يأباها دينُنا القويمُ وشريعتُنا السمحة، ﴿ **وَلْيَحْذَرِ اَلذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُم عَذابٌ أَلِيمٌ** ﴾.

فصل

مذهب المصنف في الفروع الفقهية

وأما الفروعُ، فلسْتُ بحمد الله مُقَيَّداً فيها بِمذهبٍ مِنَ المذاهب، بل مذهبِي في ذلك ما صحَّ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ غير نَظرٍ إلى موافقٍ أو مخالفٍ.

ولعلَّكَ تستغرب هذا وتستبعده لِقصورك وقُصور مَنْ حولك عن إدراكه، ولكن فضل الله يوتيه مَنْ يشاء، ولا يُنكِرُ فضلَه إلَّا القوم الخاسرون. وقبل أَنْ تُنكِرَ وتَعترض عليَّ وعلى مَنْ يقولُ مثل قولي، جَرِّبْ نفسَك في الدخول في مثل ما دخلنا فيه، ورَوِّضْها على العمل بمقتضاه، واعْملْ على الحصول على الأسباب الموصلة إليه، فإنَّك إنْ شاء الله ستُدرك ما أدركناه وتَبلغ إلى المقام الذي بلغناه. ثم تصير تَعْجَبُ مِمَّن يَزعم بُعْدَ حصول مِثل هذا، كما تحتقر مَنْ يَرضَى في دينِه بالدَّنِيَّةِ، فيُقلِّد فيه كلَّ ناعِقٍ، ويتَّبع كلَّ داعٍ كاذبٍ أو صادقٍ.

والوصول إلى هذا المقام سهلٌ لِمن وفَّقه الله وهداه إلى العمل على الحصول عليه، فبِشيءٍ مِنَ الاجتهاد والمثابرة على مطالعةِ كُتبِ الخلاف العالي، مع دوام النظر والمراجعة في كُتب الأحكام مِنَ الحديث، والوقوف على شروحِها المبيِّنةِ لناسخها مِنْ منسوخِها، ومُجْملِها مِنْ مُفصَّلِها، وخاصِّها مِنْ عامِّها، تستطيع أَنْ تَصِلَ إلى المرتبة التي تختار فيها القولَ الذي تراه موافِقاً للدليل

الصحيح مِنْ غير أَنْ تَرجعَ إلى قولِ إمامٍ مِنْ أئمة المذاهب مطلَقاً. والله أعلم.

فصل

في إستفادته وثنائه بكتاب ''المُحَلَّى''

وقد قرأتُ ولله الحمد مِنَ الكتب الموصلة إلى هذا المقام، والمُعِينة على الخوض فيه شيئاً كثيراً، وحصل لي الانتفاعُ الأكبر بِكتاب ''المُحَلَّى'' لأَبِي مُحَمَّدِ ابنِ حَزْمٍ. فإِنَّ اللهَ سبحانه وفَّقني لقراءته كلِّه، وهو في أحد عشر مجلداً، وخرجتُ مِنْ قراءته بِعِلمٍ عظيمٍ جمٍّ، وفائدةٍ جليلةٍ، زيادة على معرفة طرق المُناظرة والمحاورة والأخذ والردِّ.

وهذا الكتاب مِنْ أعظم كُتب الإسلام فائدةً، أثنَى عليه غيرُ واحدٍ مِنَ الأئمة، ولا يَعرف قدره إِلَّا مَنْ وقف عليه وتدبَّره، ونظر في مباحثه المهمة مع اِطِّلاعٍ واسعٍ ونقْدٍ عجيبٍ، وتحقيقٍ مدهِشٍ يأخذ بِمَجامع القلوب.

وقد نَقل الذَّهَبِي في ''سِيَر أعلامِ النُّبلاء'' عن عِزِّ الدِّينِ بنِ عبدِ السَّلامِ أَنَّه قال: ''ما رأيتُ في كُتبِ الإسلام في العِلمِ مثل ''المُحَلَّى'' لِابنِ حَزْمٍ، و''المُغْنِي'' للشيخ مُوَفَّق الدِّين''. ثم قال الذَّهبِي: صدَقَ الشيخ عِزُّ الدِّينِ، وثالِثُها ''السُّنَن الكُبرَى''، ورابعُها: ''التَّمهيد'' لِابنِ عَبدِ البَرّ. فمَنْ حصَّل هذه الدَّواوين وكان مِنْ أذكياء المعتنين، وأَدْمَن المطالعةَ منها فهو العالِمُ حقًّا'' اهـ.

قلتُ: وعندي ولله الحمد الكتب الثلاثة، أعنِي ''المُحَلَّى'' لِابْنِ حَزْمٍ، و''المُغْنِي'' لِابْنِ قُدامَة، و''السُّنن'' للبَيْهَقِي. وقد قرأتُ مِنَ ''المُغْنِي'' لِابْنِ قُدامَةَ و''السُّنن'' لِلبَيْهقي شيئاً كثيراً. وفَّقني الله لقراءتهما جميعاً كما وفَّقني لِقراءة ''المُحَلَّى'' مِنْ قبل.

و''المُحَلَّى'' ختمتُه في المرة الأولى، وبدأتُ قراءته للمرة الثانية، فوصلتُ فيه إلى الجزء الثاني ولم يتيسَّر المضِيُّ فيه. وهذه الكتب الثلاثة قد منَّ الله على هذه الأمة بإخراجها إلى الوجود بواسطة المطابع، فلِذلك سهل الحصول عليها والانتفاع بها، ولولا ذلك لكانت مِثل عَنْقا مَغْرِب يُسْمع بها ولا تُرى.

وأمَّـــا ''التمهيد'' لِابنِ عبدِ البَرِّ، فقد بلَغنا ونحن بِمِصر أَنَّ المَلِكَ اِبنَ سَعُود مِلِكِ الحجاز عَـزَمَ على طبعِه، وأخذ منه نسخةً مِنْ مكتبات تركيا، وإلى الآن لم نَسمعْ بِبَدئِ طَبْعِه.

وقد شرعت الحكومة المغربية في طبعه، وطُبِع منه الجزء الأول وقرأتُه، وهو مفيدٌ عظيمُ النَّفع، يَسـَّر اللهُ تمام طبعِه.

وهو كتابٌ في غاية النفاسة بل إِنَّه مفخرةٌ مِنْ مفاخر اِبْنِ عَبدِ اَلبَرِّ على مَرِّ الليالي والأيام. وقد وقفتُ على قطعةٍ منه في شرْحِ حديث: « **كلُّ مَولُودٍ يُولَـدُ علَى الفِطْـرَةِ** »، طبَعَها حُسامُ الدِّينِ القُدسي مع كتاب ''التَّـقَصِّي'' لِابْنِ عَبدِ البرِّ أيضاً؛ فإذا هي آيةٌ مِنَ الآيات وأعجوبةٌ مِنَ الأعاجيب تدلُّ على فضل الكِتاب ونفاستِه، يَسَّر الله لنا الحصولَ عليه والانتفاع به.

وينبغِي أَنْ ينضمَّ إلى هذه الكتب الأربعة في فِقه الإسلام كتابُ ''المَجموع في شرْحِ المُهذَّب'' للإمام النَّووي رحمه الله تعالى، فإِنَّه مِنَ الكتب المهمة المفيدة لِمن يريد العملَ بالدليل. وقد جمع علوماً جمَّةً للغاية مع سهولة التعبير والبُعد عن التعقيد، كما هي عادة النَّوَوِي رضي الله عنه. وقد قرأتُ منه الجزء الأول مع دوام المراجعة في أجزائِه الأخرى.

فإذا كانت هذه الكتب الخمسة عند مَنْ أعطاه الله قريحةً وعزيمةً على الاشتغال، وذكاءً في فهْمِ المسائل، ولم يَخرج عن التقليد للرجال في الأقوال والأفعال، فهو شبحٌ بِلا رُوحٍ، وميّتٌ غير حيٍّ مِنْ غير شكٍّ. لِأَنَّ ''المُحَلَّى'' وحده يكفي في تحريك هِمَّةِ البليد الغبِيّ لِنبْذِ التقليد، فضلاً عن الذكيّ الفقيه النفس، فكيف بتلك الكتب كلِّها ؟! ولكن الهداية لا تُكتسب بالذكاء ولا تُنال بالفهم، وإنَّما هي مِنْ عند الله وحده. والحمد لله على فضلِه.

فصل

رغبة المصنف في الحديث والتصوف

والرغبة عندي الآن في عِلميْنِ لا ثالث لهما، الأول: عِلمُ الحديث، والثاني: التصوف.

وإنْ كنتُ أقرأ وأطالعُ كتباً في علوم أخرى لكن ذلك على سبيل التسلية والاطِّلاع لا غير؛ وأَمَّا الرغبة كلُّها ففي كُتبِ هذين العِلمين، والمَيلُ كلُّه إليها، ولا أدفع مالاً في شراء غيرها. وأجد

لذةً عظيمةً في مطالعة كتب الحديث والتصوف، وأواصل الساعاتِ ببعضها في مطالعتها وقراءتها، ولا يُمكن أَنْ أجد كتاباً في الحديث ولا أعكف على قراءته حتى أختمه، لا سيما إذا كان مشتملاً على الأسانيد وطُرق الأحاديث.

وقد قرأتُ ولله الحمد مِنْ كتب الحديث المُسنَدة وغير المُسنَدة ما لا يَخطر ببالِ أحدٍ مِنْ شيوخ هذا العصر. ولولا في ذِكرها خروج مِنَ الاقتضاب إلى الإطناب لَذَكرتُ لك منها ما تَنحلُّ منه حَبْوَتُكَ عجَباً، ولأيقنتَ أَنَّ فضل الله لا ينقطع أبداً، وفي كلِّ قرنٍ مِنْ أمتِّه صلى الله عليه وآله وسلم سابقون. ودَعْ عنك قولَ أهل البطالة والكسل ومَنْ أخلَدَ إلى الراحة ونبَذَ العمل: ''سبَقَ الأوَّلون بالفضل وما تَركوا لِمن بَعدَهُم مِيزةً في فِعلٍ وقولٍ''. فما أقبحها مِنْ كلمةٍ مُثبِّطةٍ للعزائم ومُفسدةٍ للعقائد، فإنَّ الله تعالى الذي وفَّق ذلك السابقَ لِعَملِه هو أيضاً الذي وفَّق هذا المتأخرَ، وعطاؤُه واحدٌ ونيْلُه وفضلُه قد يَسعَدُ بِهما المتأخر دون المتقدم، والصغير دون الكبير. ولِلَّهِ دَرُّ جَمالِ الدِّينِ اِبنِ مالِكٍ إذ يقول في مقدمة ''التسهيل'':

''وإذا كانت العلوم مِنَحاً إلهيةً ومواهب اِختصاصية، فغير مستبعَدٍ أَنْ يَدَّخر لبعض المتأخرين ما عَسر عن كثيرٍ مِنَ المتقدِّمين..''.

وقال اِبنُ بَسَّامٍ في مقدِّمة ''الذخيرة في محاسن الجزيرة'':''وليس الفضلُ على زمنٍ بِمقصورٍ، وعزيز على الفضل أَنْ يُنْكَر تقدَّم به الزمانُ أو تأخَّر. ولَحَى اللهُ قولَهم: الفضل للمتقدِّم، فكَمْ دفَنَ مِنْ إحسانٍ وأخْمَلَ مِنْ فُلانٍ، ولو اِقتصر المتأخِّرون على كُتب المتقدِّمين لَضاعَ عِلمٌ كثيرٌ وذهب أدَبٌ غزيرٌ'' اهـ .

وقد قال مثل قولِهم هذا مُشركو قريش: ﴿ **لَوْلَا أُنْزِلَ هَـذا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَريَتَيْنِ عَظِيم** ﴾. فرَدَّ الله تعالى عليهم أحسنَ ردٍّ بِقوله: ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمةَ رَبِّكَ نَحنُ قَسَمْنا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُم فِي الْحَياةِ ورَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً** ﴾.

وهذا أيضاً رَدٌّ على مَنْ يقول سَبقَ الأول بالفضل والمزيَّةِ، فهل قسموا رحمةَ الله، وسدُّوا أبواب خزائنه فلا تُفتح لأحدٍ بعد قسمهم ما قسموا، فأعْطَوا الفضلَ والمزيةَ والرفعةَ والسؤددَ للمتقدِّم، وأعْطَوا للمتأخر الاتِّباعَ والتقليدَ وعدمَ القدرة على الاختراع ﴿ **إنْ فِي صُدُورِهِم إلَّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِيه** ﴾.

وقد أظهر اللهُ في هذا العصر على أيدِ الكُفّار الفَجَرة مِنَ العلوم والاختراعات ما لا تُصَدِّق به عقولُ المتقدِّمين ولا تَقبله بل ولا تَتخيَّله بالمرة، ونعوذ بالله مِنْ أَنْ نَحدَّ قدرةَ الله بوقتٍ أو زمانٍ، والنبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « **يَدُ اللهِ سَحَّاءُ لا تَغِيضُ الليل والنهار** ». والله أعلم.

فصل

فيما يعجبه من كتب التصوف

وأمَّا التصوف فيُعجبني مِنْ كُتبه التي أَلَّفها أصحابُ الأذواق مِثل مُحْيي الدِّين اِبنُ عَربِي رضي الله عنه، وقد قرأتُ مِنْ كُتبه شيئاً لا بأس به، وأنا الآن مشتغلٌ بقراءة ''الفتوحات المكِّيَّة'' له.

وأمَّا التصوف الأخلاقِي فيُعجِبني، ولكن ليس كالأول. وقد قرأتُ شرْحَ الحِكَم لِلجَدِّ مِنْ جهة الأمِّ أَحْمدَ بن عَجيبَة، وشرْحَ اِبنِ عبَّاد عليها. وشرْحَ اِبنِ عَجيبَة على تائية شيخِه البُوزَيْدي رضي الله عنه، وله عليها شرحان الكبير والصغير. وشرْحَه على رائيتِه، وشرْحَه على النُّونِيَة لِلشُّشْتري رضي الله عنه، وشرْحَه على صلاة الإمام الهُمام مولانا عبدِ السَّلامِ بن مَشِيش رضي الله عنه وعنَى به، وشرْحَه على خَمْرِيَةِ اِبنِ الفَارِضِ رضي الله عنه، وشرْحَه على مقطعات الشُّشْتري، وشرْحَه على البَيْتَيْنِ المنْسوبَيْنِ لِلجُنَيْد وهما: **تَوَضَّأْ بِماءِ الغَيْبِ**.

وشرْحَه على قصيدة العارف سيدي أحمدَ الرِّفاعِي رضي الله عنه:

يَا مَنْ تَعاظَمَ حتَّى رَقَّ مَعْناهُ وَلَا تَرَدَّى رِداءَ اَلْكِبْرِ إِلَّا هُو

وجملةً وافرةً مِنْ تفسيره بالإشارة المُسمَّى: ''البحر المَديد''. وشرْحَ الأَجْرُومِيَّةِ بالإشارة له. وشرْحَ العارف الحَرَّاق رضي الله عنه على البَيْتَيْنِ: تَوضَّأْ بِمَاءِ اَلغَيْبِ.

وقرأتُ ''التَّنوير'' لِابْنِ عَطاءِ الله، وقرأتُ ''التَّعَرف'' لِلكَلَابَاذِي، وجملةً مِنَ ''اللُّمَع'' لِأَبِي نَصْرٍ السرَّاج رحمه الله، وشرْحَ سيدي علِيّ وَفا رضي الله عنه لِحديث: « **كُنتُ لكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ** » على طريق أهل التصوف؛ وشرْحَ علِيٍّ صالِح لِـ: ''رحبة الأَمان: طريق الأَقْطاب'' لِلإمام الجَزُولي رحمه الله، وهو مفيدٌ مع أَنَّ شارحَه عامِّيٌّ لم يتقدم له طلبٌ وإنما هو فتحٌ لَدُنِّي. وقرأتُ

مِنَ: ''الفُصوص'' و''مَواقع النجوم'' ورسائل أخرى لِمُحيي الدِّين رحمه الله شيئاً كثيراً. وقرأتُ شرْحَ أحمد زرُّوق رحمه الله على مقطعات الشُّشْتري، وقرأتُ مِنَ ''الإِحْياء'' لِلغَزالي، و''قُوت القلوب'' لِأَبِي طالِبٍ جُملةً وافرةً.

وقرأتُ جملةً وافرةً مِنْ كتاب: ''الفُلْك المَشْحون في أَنَّ التصوفَ هو ما تَخلَّق به العلماءُ العامِلون'' لِلقُطب الشَّعراني رضي الله عنه، تَقْرُب مِنْ نصف الجزء الأول.

وقرأتُ كتابَه: ''الجوهر المَصون والسِّرُّ المَرقومُ فِيما تنتجه الخُلوةُ مِنَ الأسرار والعلوم''. وهذا الكتابُ هو و ''الفُلكُ المَشحون'' مِنْ أنفَسِ ما كتبت يدُ الشَّعراني رضي الله تعالى عنه.

وقرأتُ كتابه: ''الأجوبة المَرْضِيَّة عن أئِمَّة الفقهاء والصوفية''، وقرأتُ جملةً وافرةً مِنْ اِختصاره للفتوحات المكِّيَّة. وقرأتُ كتابه: ''كَشْف الحِجاب والرَّان عن وجْهِ أسئلةِ الجَانّ''. وقرأتُ كتابه في أدب الطريق، وكِتابه: ''مِيزان الخضَرِيَّة'' الذي تلقَّاه مِنَ الخَضِر عليه السلام في سطْحِ جامِعِ الغمْري بالقاهرة.

وقرأتُ ''الإِنالَة العِلْمِيَة'' لِابْنِ ليُون التي اِختصرها مِنْ كتاب الشُّشْتري، وقرأتُ جملةً وافرةً مِنَ''الرِّعاية'' لِلحَارِثِ بْنِ أَسَد رضي الله عنه. وقرأتُ ''المجموع في المعرفة على مُراد الرُّبوبيَة'' لِمولانا القُطبِ الأكبر أَبِي الحَسَنِ الشَّاذِلي رضي الله عنه.

وقرأتُ فصولاً مِنَ ''الإنسان الكامل'' لِلْجِيلِي، وأوراقاً في كلام الحَلاَّج، طبَعَها أحدُ المستشرقين؛ وجملةً مِنَ ''الرِّسالة القُشَيْرِيَة''، و''الغُنْيَة'' لِمولانا عبدِ القادِرِ الجيلاني.

وغير هذا مِمَّا لم أتذكَّرْه الآنَ، وهو كثيرٌ جدًّا، ولا داعي لِذِكر أسماء كلِّ ذلك. وقد وضعتُ فهرسةً لِلمقروآت في جزءٍ مستقلٍّ، والحمد لله ربِّ العالمين لا ربَّ غيره.

فصل

فيما أكرمه الله به من سرعة الكتابة

وقد منَّ الله عليَّ بسرعة الكتابة وعدم الملل منها وربما أكتبُ الكُرَّاسةَ في جلسةٍ واحدةٍ، وذلك كله أراه مِنْ بركة مولانا الوالد رضي الله عنه. فإِنَّنِي لَمَّا كنتُ صغيراً كان يَخصُّنِي بكتاب

الخطابات التي يوجّهها إلى مَنْ يكاتِبه، ويُجلِسنِي أمامَه ويُملِي عليَّ وأنا أكتب. وكان يقول لي في ذلك الوقت: ''سيكون لك نشاطٌ في الكتابة وتُعجِبُنِي سرعتُك فيها، بِخلاف فُلان فإنَّ يَدَه بطيئةٌ''.

ومِنْ ذلك اليوم وأنَا أُحسُّ بِهذا النشاط والحمد لله، ولا أعرف ملـلاً ولا كَللاً ما دام القلمُ في يَدي. وفي مِصْرَ كنتُ أمكثُ إلى نصف الليل وأنا أكتبُ مِنْ غير أَنْ أحسَّ بتعبٍ أو ضيقٍ في الصدر. والحمد لله ربِّ العالـمين.

فصل

فضل نسخ كتب الحديث

وقد نسختُ بِيَدي جملةً وافرةً مِنَ الأجزاء الحديثِيَّة، وقد قالوا: لا دِيَةَ لِيدٍ لا تكتبُ الحديثَ. وجرتْ عادة الحفَّاظ بنَسْخ الأصول المهمة والأجزاء المسموعة، فما مِنْ حافِظٍ إلَّا وكتبَ بيده الشيءَ الكثيرَ مِنْ كُتب الحديثِ والرِّجال وغير ذلك. وإذا قرأتَ تراجمَهم وجدتَ مِنَ الأقوال التي قِيلَتْ في مدحِهم: وكتبَ بِيده كُتباً كثيرةً، أو كان كثيرَ النَّسخ لِكُتب الحديث؛ أو ما أشبه هذا.

وقد كتب بِخطِّه الحافظُ ابنُ حَجَر: ''صحيح ابنِ حِبَّان''، و''صحيح الإسماعيلي''،و''مستخْرَج أَبِي عَوانَة''، و''مسنَد الحُمَيدي'' شيخ البخاري، و''مسنَد ابنِ جُميع''، و'' مسنَد أَبِي عَوانَة''. وكلُّ هذه الكتب بِمكتبة بِرْلِين، بِخطِّه.

وكتب الحافِظُ السيوطي رحمه الله بخطِّه أيضاً: ''الصحيح المُنتَقى'' لِابنِ السَّكَن، و''مسنَد الفِردوس''، و''مسنَد ابنِ راهَوَيْه''، و''مصنَّف ابنِ أَبِي شَيْبة''، و''مصنَّف ابنِ السَّكَن''. و'' السُّنن الكبرى'' لِلنسائي؛ وكلها في مكتبة بِرْلِين أيضاً بخطِّه.

وقد وقفتُ على مجموعةٍ مكتوبةٍ بخطِّه تحتوي على رسائل في فنون مختلفةٍ. وكذلك كَتَب غيرهم مِنَ الحُفَّاظ مِثلَ هذا كثيراً.

ومَنْ سلك طريقتَهم واتَّبع سبيلَهم فلا يلحقه عيْبٌ ولا لومٌ ونقْصٌ، وإنَّما ذكرتُ هذا لأن بعض القاصرين يَعِيبُ على مَنْ سلك طريق نَسْخِ الكُتب لنفسه ويلمزه بالعجز، وما دَرَى فائدةَ ذلك

وعُلوَّ هِمَّةِ سالِكِ تلك المسالك. ولله الحمد وَكَفى.

فصل

في ذكر ما نسخه من الأجزاء الحديثية وغيرها

وها هي ذِي أسماءُ تلك الأجزاء:

"التَّرغيب في فضائل الأعمال" لِابنِ شاهِين، في خمسة أجزاء حديثِيَّة. ووضعتُ له فهرسةً رتَّبتُ فيها أحاديثَه على الأبواب لأنَّه غير مرتَّبٍ. فيذكر مَثلًا باباً في فضائل الصلاة ثم يُتْبعها بباب في فضل الجهاد، ويذكر بعد ذلك باباً آخر في الصلاة، وهكذا. فرَّتبتُ أحاديثَه في الفهرسة على الأبواب ،كلُّ حديثٍ مذكورٍ في الباب الذي يتعلق به مع بيان رقم الصحيفة المذكور فيها.

"فوائدُ الحاج" أربعة أجزاء حديثِيَّة.

"جزء أحاديث منتقاة مِنْ أُصول سَماعاتِ اليُونارتي".

"جزء فيه عوالي حديث أَبِي مُحَمدِ عبدِ اللهِ بنِ مُحَمدِ بن جَعْفر بنِ حَيَّان، الحافظ المعروف بِأَبِي الشَّيخِ".

"جزء فيه أحاديث عَوالي مِنْ مسموعات أَبِي نُعَيمٍ الأصْبَهاني".

"مكارمُ الأخلاق" للطبراني.

"المنتَقَى مِنْ مكارم الأخلاق" لِابنِ أَبِي الدُّنيا، لِأَخِي أَبِي الفَيْضِ.

"جزء المُقِلِّين مِنَ الأُمراء والسَّلاطين" لِتَمَّام.

"الأربعون" للحافظ أَبِي العَباس الحَسَنِ بن سُفيان الشَّيْباني السِّندي.

"الأربعون" لعبدِ الغافِرِ الفارِسِيّ.

"البعْثُ" لأَبِي بَكْرِ بنِ أَبِي داود.

"جزء مُحمد بنِ يَحيَى الذُّهَلي".

''جزء مُحمد بنِ سنان القزاز البصري''.

''جزء إعَارة الكُتُب'' لأَبِي بَكْرٍ أحمدَ بنِ مُحمدٍ اليَزدِي الحافظ.

''مشيخةُ اِبنِ إمامِ الصَّخرة''.

''جزء المنتَقى مِنْ مُسنَدِ الحارِثِ بْنِ أَبِي أُسامَة''.

''نسخة أَبِي حَنِيفَة''.

''الجزءُ الأول مِنْ حديث عليّ بنِ حَرْبٍ''.

''بُغية النُّقادِ أُولِي الجدِّ فِي عُشارياتِ الإسنادِ لِلجَدِّ''، لِأَبِي محمدٍ عبدِ الله بنِ جَمَاعة، وتخريج إسماعيل بنِ إبراهيم بنِ جَماعة.

''الرسالة المُغْنِيَة في السكوت ولُزُوم البيوت''، لِأَبِي عليٍّ الحَسَنِ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ البَنَّا.

''الجزءُ الأولُ مِنْ أَمَالِي أَبِي عبدِ اللهِ الضَّبِّي''.

''مَجلِسٌ مِنْ أَمالِي الأَشْناني''.

''جزء مِنْ حديث اِبْنِ شاهِين''.

''جزءٌ منتقَى مِنْ حديث أَبِي بَكرٍ الصَّيرفِي رحمه الله''.

''جزءٌ مِنْ حديثِ أَبِي مُحمدٍ القاسِمِ بنِ عليٍّ بنِ محمدِ بنِ عثمانَ الحريري، النَّحوي، البَصري، صاحِبِ المَقامات''.

''جزءٌ مِنْ حديثِ أَبِي سعيدٍ عِيسَى بنِ سالِمٍ الشَّاشي''.

''الجزءُ الأولُ مِنَ الفوائد المنتقاةِ والحكايات المنتَخَبة''، اِنتقاء اِبنِ فورَك مِنْ حديثِ أَبِي مُسْلِمٍ مُحمدِ بنِ أحمدَ بنِ عليّ بنِ الحسينِ، البغداديّ الكاتِب.

''جزءٌ فيه أحاديث أربعة، وحكاية، وإنشاء، مِنْ عَوالي الحافظِ شَرَفِ الدِّينِ عبدِ المُؤمِنِ بنِ خلفٍ الدِّمْياطِي'' اِنتقاها الحافظُ علَمُ الدِّينِ البرْزالي.

''منتَقَى السفينة البغداديَّة'' للحافظِ السِّلَفِي.

''جزءٌ فيه مِنْ حديث أَبِي منصورٍ عبدِ الخالِقِ بنِ زاهِر بنِ طاهِرٍ عن شيوخه''.

''جزءٌ فيه عَشرة أحاديث منتقاةٍ مِنْ جُزءِ الغِطْرِيف''، اِنْتقاء علَمُ الدِّينِ البرْزالي.

''جزءٌ فيه فوائدُ الشيخ أَبِي مُحمدٍ عبدِ اللهِ بنِ علِيٍّ الأَبنُوسِي''، اِنتقاء أَبِي علِيٍّ اِبنِ البرداني.

''الثَّقَفِيات'' وهي عشرةُ أجزاءٍ حديثِيَّةٍ، لم يتِمَّ منها إلَّا خمسة أو ستة.

''جزءٌ مِنْ فوائد عبدِ الغنِيّ بنِ سعيدٍ المِصري''.

''جزءُ لُوَين''.

''مُسنَدُ عمرَ بنِ عبدِ العزيز'' لِلبَاغَنْدي.

''جزءٌ فيه أربعة عشر حديثاً منتقاةً مِنَ الأربعين المُخَرَّجةِ مِنْ مسموعات الشيخ أَبِي العباس أَحمَدَ بنِ يوسفَ بنِ صرما''.

''جزءٌ منتَقَى مِنْ حديثِ أَبِي أَحمَدَ عبدِ اللهِ بنِ محمدِ بنِ أحمَدَ الفَرضِي''.

''جزءٌ فيه عشرة أحاديث منتقاة مِنْ عشرة الحداد'' اِنتقاء الحافظ اِبنِ حَجَر.

''جزءٌ منتقى مِنْ جزءِ أَيُّوب السخْتياني'' لإسماعيل القاضي.

''جزءٌ فيه فوائد منتقاة عن الشيوخ الثِّقات العَوالي مِنْ حديثِ هِلالِ بنِ العلاءِ الباهِلِي''.

''جزءٌ فيه أربعةُ أحاديث منتقاة مِنْ جُزء الحفّار''.

''رسالةٌ في ذمِّ المَكْسِ'' للحافظ السيوطي.

''رسالةٌ في فَضْلِ الشِّتاء'' له أيضاً.

''الإضاعةُ في أشراط السَّاعة'' له أيضاً.

''الوجيز في ذِكْرِ المُجاز والمجيز'' للحافظ السِّلَفي رحمه الله.

فهذه الكتب المُسنَدة التي نسخْتُها.

وأمَّا الكتب التي ليست فيها أحاديث مُسنَدة فليس لِي بها كبير عناية، وقد نسخْتُ منها:

''المَدْرَجُ إلى المُدْرَج'' للحافِظ السيوطي.

''الثُّغورُ الباسِمةُ في مناقِبِ السيدةِ فاطِمَة'' له أيضاً.

''تخريجُ أحاديث المَواقِف'' له أيضاً.

''تخريجُ أحاديث النَّسفِيَة'' له أيضاً.

''نُزولُ الرَّحمةِ في التَّحدثِ بالنِّعمة'' له أيضاً.

''المعاني الدَّقِيقةُ في إدراكِ الحقِيقَة'' له أيضاً.

''إفادةُ الخَبَرِ بنَصِّهِ في زيادةِ العُمر ونَقْصِه'' له أيضاً، وهو مطبوع ضِمنَ مجموعةٍ في الهِنْدِ.

''الناسخُ والمنسوخُ للزُّهري''، للشيخ أَبِي عبدِ الرحمنِ السُّلَمِي.

''الأزهارُ المتَناثِرةُ في الأحاديث المتواتِرة'' للسيوطي أيضاً.

فهذا ما نسخْتُه حتى الآن مِنْ كُتبِ الحديث، وأمَّا غير الحديث فنسخْتُ:

''التعريفُ بآدابِ التَّأليفِ'' للحافِظِ السيوطي. وقد طبعه النَّبْهانِي مع كتابِه: '' سَبَبَ التأليف للعبد الضعيف'' المطبوع في آخِرِ كتابه: ''كرامات الأولياء''.

''لزَّهْرُ الباسِمِ فِيما يُزَوِّجُ فِيه الحاكِمُ'' للسوطي أيضاً.

''رسالةٌ في الجواب عن سؤال العبدِ هل له في فِعْلِهِ نوعُ اِخْتيار وهل يعارضُ قوله تعالى: ﴿ **وربُّكَ يَخلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتَار** ﴾''. له أيضاً.

''الأَفضالُ والمِنَّةُ في رؤية النِّساءِ لله في الجنَّة'' لِلشَّقِيقِ أَبِي الفَيْضِ.

ونسخْتُ مِنْ كُتب التَّصوف:

''شَرْح نُونِيَة الشُّشْتري''، لِابْنِ عَجِيبَة.

و''شَرحَيْن على مقطعاتِه'' له أيضاً.

و''شَرحه على أبياتِ: تَوضَّأْ بِماءِ الغَيْبِ''.

و''شَرح العارفِ الحَرَّاق عليها أيضاً''.

فهذا ما تيسَّرَ نسخُه حتى الآن مِنْ كُتب الحديث وغيره، والحمد لله الذي وفَّقني لِسلوك

طريق أهل الحديث في مثل هذا، وفي ذلك فضلٌ عظيمٌ وشرفٌ جَسيمٌ، وبرهانٌ ساطعٌ على علوِّ الهمَّـةِ ومحبَّـة الاشتغال بالعلم. وبالله التوفيق.

وقد اِستنسخْتُ على نفقتِي وأنا بِمِصر مِنْ مكتبة الجامع الأزهر:

''شَرَف أصحابِ الحديث'' لِأَبِي بَكرٍ الخَطِيب.

و''المَهْرَوانِيات'' مِنْ تخريج الخطيب أيضاً. والحمد لله حمداً كثيراً على توفيقِه وهدايتِه، لا رَبَّ سِواه.

فصـل

في ذكر بعض مصنفاته

وأمَّا تآليفي وما كتبتُه مِنْ بنات فِكري، فهي هذه:

١ ـ ''**القولُ المأثورُ في جَوازِ إمامَـةِ المَرأةِ بِرَبَّاتِ الخُدُور**''. وهو أولُ كتابٍ أَلَّفتُه في مسائلِ الفُروع، أيَّدتُ فيه القولَ بِجواز إمامَـةِ المرأةِ بِالمَرأةِ في الصلاةِ، بالدَّليل الثابت في ذلك، وحرَّرتُ فيه على صِغره مذاهب العلماء في ذلك، وختمتُه بخاتمةٍ لطيفةٍ فيما يتعلق بذلك مِنَ السُّنن والمستحبَّات. وقد طُبع بِمِصر وهو أولُ كتابٍ طُبِع مِنْ تأليفي. أيضاً:

٢ ـ ''**بُلوغ الأمانِي مِنْ موضوعاتِ الصَّغاني**''.تتبعتُ فيه ما أورده الصَّغاني في رسالته في الموضوعات، ونقدتُ كلامَه نقداً حسناً، وضممْتُ إلى ذلك فوائد حديثِيَةٍ وغير حديثِيةٍ، تتعلَّق بالكتاب، فجاء كتاباً حسناً في بابه مفيداً لقارئِه. وهو في مجلَّدةٍ لطيفةٍ.

٣ ـ ''**الباحِثُ عن عِلَلِ الطَّعنِ في الحارِثِ**''. وهو في ردِّ طعْنِ أهل الجَرْح في الحارِثِ الأَعْوَر وبيان غلَطِهم في ذلك، وقد أتيتُ فيه بما لم أُسْبق إليه والحمدُ لله وحده.

٤ ـ ''**رَفْعُ العَلَمِ بِتخريجِ أحاديثِ إيقَاظِ الهِمَمِ في شرْحِ الحِكَمِ**''. وهو أولُ تخريجٍ كتبتُه، خرَّجتُ فيه أحاديثَ شرْحِ الحِكَم لِابْنِ عجِيبَة رضي الله عنه. وهو مفيدٌ في بابِه لا سيما وأغلب الأحاديث المذكورة فيه تَرُوج بكثرةٍ في كُتب الصوفية مِنْ غيرِ عَزْوِها ولا بيان حالِها.

٥ ـ ''**التَّعَطفُ في تخريج أحاديثِ التَّعَرفِ لِلكَلَاباذِي**''.بدأتُ العملَ فيه بِمِصر، وأتممتُه بطنجة.

٦ ـ ''**الجواهرُ المَرصُوعةُ في ترتيبِ أحاديثِ اللَّآلِئِ المَصنوعة للحافظ السيوطي رضي الله عنه**''.رتَّبتُ فيه أحاديث ذلك الكتاب على الحرف المعجم مع بيان رقم الجزء والصحيفة والكِتاب، رغم كونه مرتَّباً على الأبواب، فإنَّ الكشف فيه على الحديث يعْسُر في بعض الأحيان لِغُزوبِ مظانه عن الذهن. وبترتيبي لها على الحروف صارت سهلةَ الأخذ والمراجعة، وهو في مجلَّدةٍ، وقد كتبتُ منه نسختين أعطيْتُ إحداهما لشقيقي أَبِي الفَيْض.

٧ ـ ''**وثْبةُ الظَّافِرِ بِبيانِ حال حديثِ: « أَتَرعون عن ذِكْرِ الفاجِر»**''.

٨ ـ ''**شرْحُ مقطعة الشُّشْتَرِي التي أولُها: بدأتُ بِذِكر الحَبِيب**''.

٩ ـ ''**شرْحُ العَشماوِيَة بالحديثِ**''.

١٠ ـ ''**محاضرةُ النَّشوان في الجواب عن سؤال عالِم تِطوان**'' طُبع بتطوان.

١١ ـ ''**إِثْباتُ المَزيَّة بِإبطال كلام الذَّهَبِي في حديث: « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا »**'' طُبع بطنجة.

١٢ ـ ''**تنزيهُ الرسول عن اِفْتِراءِ الغبِيِّ الجَهُول**'' طُبع بطنجة.

١٣ ـ ''**الإنارة بِما وَرَدَ في تحريك المُصلِّي أُصْبعه عند الإشارة**''طُبع بطنجة.

١٤ ـ ''**الجواب المُطْرِبُ لِمَن سأل عن أدلَّة اِستحْباب صلاة الركعتين قَبل صلاة المغرِب**''.

١٥ ـ ''**رفْعُ الضَّرر عمَّن يقول بِإمكان الوُصولِ إلى القَمَر**''طُبع بتطوان.

١٦ ـ ''**إِظْهارُ ماكان خَفِيًّا مِنْ كلام الذَّهبي في حديثِ: « مَنْ عادَى لِي وَلِيًّا »**''.

١٧ ـ ''**قطْعُ الوَتِينِ مِمَّن يُحبُّ السِّمَنَ ويَغْبِط السَّمين**''.وهو كتابٌ مفيدٌ في بابه غريبٌ في موضوعه، جمعْتُ فيه ما يتعلَّق بالسِّمَن وصاحِبه مع فوائد كثيرةٍ. وختمتُه بِخاتِمةٍ في الكلام على الحديث الذي يُوهِمُ أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم كان سميناً، وتكلمتُ عليه مِنْ

ناحية المعنَى والإسناد على طريقةِ المجتهدين في الحديث. وفيه ولله الحمد براعةٌ تَشهد بِتَقدُّمي في هذا العِلم، والفضلُ لله وحده.

١٨ ـ ''**التَّدميرُ لِما ذَكَره النَّابُلْسِي في رؤية الحَسَنِ والحُسَيْنِ مِنَ التَّعبير**''.بيَّنتُ فيه فسادَ ما ذَكَره النَّابُلسِي في ''تَعطير الأنام بِتَعبير المَنام'' مِنَ الكلام الساقِط الذي لا يَليقُ ولا يُناسِبُ مَقام بيت النبوَّةِ، مِنْ تعبير رُؤيةِ أحدِهِم في المَنام. وقد شهِدَ بِحسنِه وبراعتِي فيه كلُّ مَنْ رآه. وقَرظَه شقِيقِي أَبُو الفَيْضِ بِتقريظٍ حَسَنٍ.

١٩ ـ ''**الجواهرُ الغَوالِي في تعليقاتِ اللَّآلِئ**''. جمعتُ فيه ما اِستدركتُه على الحافظ السيوطي رضي الله عنه في اللَّآلِئ مِنَ الأسانيدِ والطُّرق، والكلام على الرجال، وفيه اِستدراكاتٌ مهمَّةٌ وفوائد نفيسةٌ.

٢٠ ـ ''**تخريجُ أحاديث كِتاب البعْثِ لِابنِ أَبِي دَاود**''.وليس تحت يدِي الآن، لأَنِّي كتبتُه بطلبٍ مِنْ مدير مكتبة الجامع الأزهر، لكونِه أراد أَنْ يَطبَعَ كتابَ البعث وأَحبَّ أَنْ يُطبع مع تخريج أحاديثِه، فتركتُه عنده. ولم أحتفظ بنسخةٍ لِي منه وإلى الآن لم يُطبع.

٢١.. ''**الإفادةُ بطُرُقِ حديث: « النَّظَر إِلَى علِيٍّ عِبادَة »**''.تكلمتُ فيه على طرق هذا الحديث وصحَّحتُ بعضَها وحسَّنتُ البعضَ الآخر على طريق أهل الحفظ والإتقان مِنْ أهل الحديث، وسلكتُ فيه مسلكَ الاجتهاد، وأتيتُ في الكلام على كلِّ طريقٍ مِنَ الدلائل الحديثيَّةِ ما لا يبْقَى معه مجالٌ للشَّكِّ في صحة الحديث، رغم كون اِبنِ الجَوزي ذَكَره بجميع طُرقِه في ''الموضوعات''. وضمَمْتُ إليه قواعد في علم الحديث نفيسةً للغاية. وقد قرأه بعضُ الأفاضل فقال لي: ''لم أَكُنْ أظنُّكَ على هذه المعرفة''. والحمد لله على مِنَّته وفضلِه.

٢٢ ـ ''**جَنْيُ الباكُورة في طُرقِ حديثِ: « لا تَدخُل الملائكةُ بيتاً فيه كلْبٌ ولا صُورة »**''جزءٌ صغيرٌ.

٢٣ ـ ''**البُغْيَة في ترتيب أحادِيثِ الحِلْيَة لِأَبِي نُعَيْم**''.رتَّبتُها على الحروف مع بيان رقم الجزء والصحيفة. وقد طُبِع في مِصر، وهو مفيدٌ مُنجدٌ للمُحدِّث، يُقَرِّب الكشفَ على الحديث بسهولةٍ.

٢٤ ـ ''**نَيْل الأجر بتلْقِينِ الميِّتِ في القبر**''.بيَّنتُ فيه سُنِّيَةَ التلقين بعد الدَّفن، ومَنْ قال

بذلك مِنَ الأئمة. وكان سببُ تأليفه أَنَّني سُئِلت وأنا بالقاهرة عن رجلٍ يُنسَبُ للطائفة الخَطَّابِيَّة التي يَرأسها الشيخُ محمود خَطَّاب السُّبكي، أَنْكر سُنِّيَّةَ هذا التلقين ونفَى وُرُودَه في حديثٍ. فحرَّرتُ في الجواب عن السؤال مَقالَيْنِ في مجلة ''الإسلام''. ثم بلَغني عنه بعد نشْرِ المقالَيْنِ أنَّه غضب وزاد في الإنكار، فألَّفتُ ذلك الكتاب المذكور وزدتُ فيه كلام الفقهاء وما يتعلَّق برجوع الرُّوح إلى الميِّتِ في قبره، وغير ذلك. وكنتُ سمَّيتُه: ''الرَّجمُ والزَّجرُ''، ثم أبدلتُه بالاسم السابق لأنَّه أدلُّ على موضوع الكتاب.

٢٥ ـ **''المُعْرِبُ عن أدلة اِستحباب الركعتيْنِ قَبْلَ صلاة المغْرِبِ''**.

٢٦ ـ **''التِّبْيانُ لِحالِ حديثِ « أنا اِبنُ الذَّبِيحَيْنِ »''** جزءٌ صغيرٌ أَلَّفتُه قديماً في بيانِ حالِ هذا الحديث ولم أتوسَّع فيه.

٢٧ ـ **''إِفادةُ الأتقِياءِ باِطِّلاعِ الأمواتِ على عَمَلِ الأحْياءِ''**. ذكرتُ فيه بعض الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة الواردة في ذلك.

٢٨ ـ **''جزءٌ مُنتَقى مِنَ الكُنَى لِلبخاري''**. جرَّدتُ فيه الأحاديث المرفوعة منه.

٢٩ ـ **''جزءٌ فيه: المجلس الأول مِنَ الأَمَالِي''**. وهو مجلسٌ أمليتُه بزاويتِنا في طنجة في حديثِ المُسلْسَلِ بالأَوَّلِيَّةِ.

٣٠ ـ **''نَظْمُ اللَّآلِ فِيما أخذه الشَّمسُ اِبنُ طُولُونَ مِنْ كُتب الجَلالِ''**. أعني الجلال السيوطي، ذكرتُ فيه ما أخذه اِبنُ طُولُون الحَنَفي مِنْ كُتب الجلال السيوطي رضي الله عنه ونَسَبه لنفسه، مع مقدمةٍ لطيفةٍ جدًّا في ترجمة الرَّجلين وما يتعلَّق بذلك مِنَ الفوائد العلمية والتاريخية والأدبية. وهو مفيدٌ في بابه.

٣١ ـ **''ترتيبُ المَدْرَج إلى المُدْرَج''** على المسانِد، والمَدْرج للحافظ السيوطي وقد رتَّبتُ أحاديثَه على أسماء رُواتِها مِنَ الصحابة.

٣٢ ـ **''المُنتَقَى مِنْ تاريخ واسِط لِبَحْشَل''**. جزءٌ لطيفٌ وهو منتقىً مِنَ المنتقَى مِنه لِأَخِي أَبي الفَيْضِ.

٣٣ ـ **''الأربعون فِي ذَمِّ البُخل والبخلاء''**.

٣٤ ـ ''**القولُ الأَسَدُّ في بيان حالِ حديث: « رأيتُ ربِّي في صورة شابٍّ أمْرَد »**''.

٣٥ ـ ''**كَشْف الدَّسِيسَة عن أحاديثِ فَضْل الهَرِيسَة**''.

٣٦ ـ ''**جزءٌ في الكلام على حديث:« أَحْبِبْ حبِيبَكَ هوْناً مَا »**''.

٣٧ ـ ''**إتحافُ ذَوِي الفضائل المشتهِرة بِما وقع مِنَ الزِّيادات في نَظْمِ المتَناثر علَى الأزهار المُتناثِرة**''.

٣٨ ـ ''**فتْحُ الرَّحمن في ثُبوتِ حديثِ« أُحِلَّتْ لَنا مَيتَتَانِ ودَمَان»**''.

٣٩ ـ ''**تَحذيرُ الأغبِياءِ مِنْ مذهبِ النُّشوءِ والارتِقاء**''. بيَّنتُ فيه فسادَ عقيدة مَنْ يقول إنَّ الإنسان لم يُخْلَق مِنْ أول مرَّةٍ على هذا الشكل، وإنما تَطَوَّر مِنْ حالٍ إلى حالٍ حتى بلغ إلى هذه الهيئة. وهذا قولٌ لبعض ملاحدة أُوربا، وتبعه بعضُ الملاحدة مِنَ الشرق، وقد ذكرتُ الدليلَ على فساده عقلاً ونقلاً، وأتيتُ بالدليل على كُفر معتقِدِه مِنَ القرآن والسنَّة، والإنجيل، وغير ذلك. وقد كتبتُ في هذا الموضوع مقالَيْنِ نُشِرا في مجلَّة « الخُلود'' بالقاهرة تحت عنوان: ''شياطين سليمان''.

٤٠ ـ ''**جزءٌ فيه الأحاديث المرفوعة مِنَ الأربعين مِنْ رواية الصُّوفية لِلماليني**''.

وهذه الكتب تَمَّ تأليفُها، وأسعَدَني الحظُّ ووافاني السَّعدُ بِإكمالها.

وأما التي لم تَتِم وحالت حوادثُ الدهر دُون إتمامها، وصرفَتْني شواغل الوقت وعوائقه عن المُضيّ فيها والفوز بسعادة كمالِها وإنْ كنتُ لا زلتُ مشتغلاً بتحرير بعضِها، فهي هذه:

١ ـ ''**بُغية المُكتَفِي في تخريج أحاديث تفسير النَّسَفي**''، كتبتُ منه كُراسةً لطيفةً.

٢ ـ ''**المُستخْرَج على أحاديث الرسالة القُشَيْرِية**'' وصلتُ فيه إلى باب الرَّجاء.

٣ ـ ''**المستخْرَج على أحاديث الترغيب لِابْنِ شَاهِين**''، سمَّيتُه ''**الكنز الثمين**''. كتبتُ منه كُراسين وأنا مشتغلٌ به، فإذا تمَّ فسيكون مفيداً لكثرة أبوابِه في فضائل الأعمال.

٤ ـ ''**تخريج أحاديث تفسير الفَخْرالرَّازي**''، وسمَّيتُه: ''كشْفُ الرَّيْب''. كتبتُ منه كُراسةً تقريباً في تخريج حديثٍ واحدٍ وهو حديث: ''**سَتَفْترقُ أُمَّتِي..**''.

٥ ـ ''**تخريج أحاديث شرْحِ رسالة اِبْنِ أَبِي زَيْدٍ لِزرُّوق**''، وسمَّيتُه: « **ضِيَاءُ الشرُوق**''.

٦ ـ ''**مُسنَدُ سيِّدةِ نِساء العالَمين فاطِمةُ بِنتُ سيِّدِ المُرسلِين**''، كتبتُ منه عدة أوراقٍ، وهو يعتبر كاملاً، إلَّا أنه يحتاج إلى جَمْع مُتَفَرقه، ولَمّ ما قيَّدتُه مِنْ أحاديثها عليها الصلاة والسلام. وقد وقع لي مِنْ أحاديثها عليها الصلاة والسلام ما يَقْرب مِنْ عِشرين حديثاً أو يزيد، مع أَنَّ الحافظ السيوطي يقول في: ''الثُّغور الباسِمَةِ في مناقب السيِّدة فاطِمَة'': '' يَبلغُ جميعُ ما رَوتْه مِنَ الأحاديث عَشَرة أحاديث..''. فإستدركتُ عليه قدْرَ ما ذكره، وهذا مِنْ فضل الله عليَّ. ولو تيسَّرتْ لدَيَّ الأصولُ لَزِدتُ على هذا القدر الذي وقفتُ عليه مِنْ غير شكٍّ. وربما نجعلُ لِلمسنَدِ ذيلاً إنْ شاء الله.

٧ ـ ''**إتحافُ المُريدِ بإشارةِ البحْرِ المَديد في تفسير القرآن المجِيد**''، جرَّدتُ فيه تفسيرَ الإشارة مِنْ تفسير القُطْبِ أَحمَدَ بنِ عجِيبة رضي الله عنه.

٨ ـ ''**إزالَةُ الإحَن فِي أَنَّ الأَفْضلَ أَنْ يُقِيمَ مَنْ أَذَّن**''.

٩ ـ ''**أربعون حديثاً في مكارِمِ الأخلاق**''.

١٠ ـ ''**ترتيب أحاديث تاريخ أَصْبَهان لِأَبِي نُعَيْمٍ**''.

١١ ـ ''**ترتيبُ الضُّعفاءِ لِابْنِ حِبَّان**''، والكتاب وإنْ كان مرتباً على الحروف لكنَّه على ترتيبٍ غير مفيدٍ بِالمرَّة، وقد تَظنُّ أَنَّ الرجلَ غير موجودٍ فيه لِكَونِك لم تجده في مظانِّه، وهو مذكورٌ فيه. كتبتُ منه كراريسَ ولا زِلْتُ مشتغلاً به.

١٢ ـ ''**التبصِرة في نَقْدِ التذْكِرة**''،''تَذكرة الموضوعات'' لِابْنِ طاهِرٍ المَقْدِسيِّ. تكلَّمتُ فيه على كلِّ حديثٍ بتوسُّعٍ مع الكلام على رجال الأسانيد، وإستدركتُ عليه عقِبَ كلِّ حديثٍ ما في الباب مِنَ الأحاديث التي لم يَذْكُرها. وقد كتبتُ منه عدَّةَ كراريس.

١٣ ـ ''**تجريدُ الموضوعات مِنْ تخريج أحاديث الإحْياءِ لِلعِرَاقِي والمَقاصِد الحَسَنة لِلسَّخاوي**''.

١٤ ـ ''**جزءٌ في الأحاديث التي لا أَصْلَ لها أو قِيلَ لا أصلَ لها**''. والمراد بِقولهم: لا أَصْلَ لها، أَنَّه لا يُوجد لها إسنادٌ مُطلَقاً، لا ضعيف ولا موضوع.

١٥ ـ ''**الموضوعات**'' وهو مفيدٌ.

١٦ ـ ''**الضعفاء والمَجْرُوحون مِنْ أهل العدْوَتَيْنِ: الأندلس والمغرب**''. ذكرتُ فيه كلَّ مَجروحٍ مِنْ رجال البلدين سواء أكان مشهوراً بالرواية أمْ لا. وقد طالعتُ عليه كتباً كثيرةً، ولا زِلتُ أطالع إلى الآن، فإذا تمَّ، فسيكون مفيداً. وسيقف قارئُه على حقائقَ لطيفةٍ في قومٍ رُموا بالكذب والوضع مع شهرتهم بين الناس بالإمامة والجلالة، لا سيما بين أهل مذهبِهم كابْنِ العَرَبي المالِكي المَعَافِري، الذي لم يكن له في الحديث أَدْنَى نَصيبٍ، وقد كذَّبَه رجالُ بلده كما في ''فهرست القاضي عِيَّاض''؛ وعبدِ المَلِكِ بنِ حَبِيبٍ، وابْنِ دِحْيَة، وغيرهِم.

١٧ ـ ''**الإبداعُ في ذِكْرِ أدِلَّةِ أَبِي شُجَاع**''.شرحتُ فيه متْنَ أَبِي شُجاع في فِقه الشافعية بالحديث لا غير، ولم أُعرّج على قولِ فقيهٍ كما فَعل أَخِي أَبُو الفَيْضِ في شرْحِه لرسالة اِبنِ أَبِي زَيْدٍ القَيْرواني، في فِقه المالكية.

١٨ ـ ''**تحذير الطالب مِنْ كتاب أَسْنَى المَطالِب**''.

١٩ ـ ''**تَبْيِينُ الغَلَطِ مِنَ الدُّرِّ المُلتقَط لِلصَّغاني**''.

٢٠ ـ''**الإتحافاتُ بِما أسْنَده البَندهِي في شرْحِ المَقامَات**''، مرَّتبٌ على المسانِد.

٢١ ـ''**مفتاح السعادة بِصحَّةِ حديثِ: «النَّظَر إِلَى علِيٍّ عِبادَة »**''.

٢٢ ـ ''**السفينةُ العَزيزيَّةُ**''.

٢٣ ـ ''**الجامِعُ المُصَنَّفُ مِمَّا في المِيزان مِنْ حديث الرَّاوي المُضَعَّف**''.

فهذا ما لم يتم مِنْ تآليفي، ولا زِلتُ أكتبُ في بعضها الآن.

فصل

كتابته لمقالات

وقد كتبتُ مقالاتٍ كثيرةٍ في مواضيعَ مختلفةٍ تبلغ عدَّةَ كراريس لو جُمِعت، وقد كتبتُ بعضها في مجلة ''الإسلام''، وبعضها في مجلة ''الخلود''، والبعض الآخر في جريدة ''النذير''، وفي مجلة ''الشَّفَق''. ولكن خرجَتْ مِنْ يدِي كلها ولَم يبقَ منها تحت يدِي إلَّا النَّزر القليلَ، وتركتُ

أغلبها في القاهرة، ولذلك لم يُمكني أَنْ أَذكرَ مواضيعَها في هذا المكان.

فصل

ما يريد المصنف التأليف فيه

ولا زالت هِمَّتي تائقة إلى التأليف، ونفسي متطلِّعة إلى الكتابة، وإذا جعل الله في الأجل فُسحةً فسيكون عدد المؤلَّفات يزيد على ما ذكرتُه هنا مرَّاتٍ كثيرةً إِنْ شاء الله.

ومِنَ المواضيع التي تعلَّق البال بالتأليف فيها الآن وانصرفت الهِمَّةُ إليها، واشتغلْتُ بجمع نُقولِها وكلامِ العلماء فيها، موضوعُ كون نبيِّنا سيِّدِنا ومولانا محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم موجود في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يَملأ الكون ويمدُّه بمدده الذي لو اِنقطع عنه لحظةً لذهب واندثر، مع بيان أوَّليتِه صلى الله عليه وآله وسلم وكونه السبب في الموجودات كلِّها إِنْسِها وجِنِّها، حيوانِها وجامِدِها. والقلبُ متعلِّقٌ بهذا التأليف جدًّا، أعانني الله على إبرازه للوجود.

ومِنْ تلك المواضيع أيضاً، موضوعُ أفضلية الصحابة على بعضِهم وبيانِ أَنَّ علِيًّا عليه السلام أفضلُهم على الإطلاق وسيِّدُهم باِتِّفاقٍ، وكونه خليفة سِرِّ الرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم ووصِيَّه على رسالته الباطنة لأهل الحقائق، وبيان حال معاوية وأتباعه ومَنِ اِنْضوَى تحت لوائه، وذِكْر مَخازيهم وفضائحهم، وكونهم لم يَشمُّوا رائحةَ الإسلام، فضلاً علَى أَنْ يكونُوا مِنَ الأصحاب.

ومِنْ تلك المواضيع، موضوعُ الجَرْحِ والتعديل عند أئمة الحديث، فإِنَّ هذا العِلمَ اِختلط صحيحُه بفاسِده، وسالِمُه بسقِيمِه، بِسبَبِ مَنْ دخل فيه مِنْ أهل الأغراض مِنْ ذَوِي النِّحَلِ والآراء الفاسدة، فلَمَزُوا بِفاسِد عقلِهم الثِّقات وفحولَ الرجال بالطعن القادح والقول الجارح؛ وأَثْنَوْا على أهل الضلال وذوِي الآراء الفاسدة الكذَّابِين في رواياتِهم، بالثناء العظيم والقول العطِرِ الذي لم يتقدَّمهم به مادِحٌ. وراج ذلك على مَنْ جاء بعدَهم فتمسَّكوا به إلى درجةٍ أدَّت إلى إفساد دِينِهم ودِينِ مَنْ تَبِعهم، ولم يتفطَّنوا لأصل الدَّاء وجرثومة البلاء، فخَبطوا خبْطَ عشواء وركِبوا متْنَ عمياء، وأَلْحقُوا الفاسقِينَ بالأولياء، ولا حول ولا قوة إِلَّا بالله.

وقد تَعلَّقتِ الهِمَّةُ بِجمع كتابٍ في بيان هذه الأدواء، وشرحٍ وافٍ لهذه العِلَلِ التي مِنها أَتَى البلاءُ، عسَى أَنْ يَجعلَ الله فيه الشفاءَ ويُبرِئَ بِه مَنْ أراد أَنْ يُلحِقَه بالسُّعداء، وما ذلك على الله بعزيزٍ، وهو حسْبِي ونِعْمَ الوكيل.

فصل

في محبته للصالحين

وقد أكرمني الله بمحبَّة الصالحين، وجعل في قلبِي تعظيماً لِأَهْلِ الله ومَنِ اِنْتسب إلى طريقِهم، الأحياء منهم والأموات، ووضع في نفسي مِن اِعتقاد خُصوصِيَّةِ رجاله والتبرك بهم وبآثارهم، ما وجدتُ بَركتَه الآن والحمد لله.

ونطلب مِنَ الله أَنْ يَمنَّ عليَّ بدوام ذلك حتى نَنْخرط معهم فيما سلكوه مِنَ المسالك، ونَصِلَ إلى ما وَصَلوه مِنَ المدارك. فإِنَّ مَنْ أَحَبَّ قوماً فهو معهم، ومَن اِعتقد نال الفضلَ والولايَةَ، ومَن اِنتقد وأَعْرضَ لَحِقَه الخسرانُ وكُتِبَ مِنْ أهل الجناية، نَعوذُ بالله مِنْ كلِّ سُوءٍ.

فصل

عقيدته في آل البيت النبوي الأطهار

وأما أهلُ البيتِ والمنتسِبون إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فَلِي فيهم اِعتقادٌ خاصٌّ ورأيٌ لا يُوجَد في هذا العصر، ولله الحمد. وهو القول الصحيح الذي يجب على كلِّ مؤمنٍ اِعتقادُه، لأنه مؤيَّدٌ بالبرهان ويَشهد له العقلُ بالصحة والثبوت.

وهو أَنَّ أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اِبنتُه سيِّدةُ نِساء العالَمين فاطمةُ الزَّهراء عليها الصلاة والسلام، وأولادُها عليهم الصلاة والسلام. لا أحد يَبلغ مرتبتَهُم ولا شخصَ يُدانِي مقامَهم ومكانتَهم مِنَ البشر والملائكة.

ويَحْرُمُ عندي أَنْ يُلتَمسَ طريقٌ للتفضيل بينهم وبين غيرهم، بل يَبعُدُ عِندي غايةً أَنْ أتصوَّرَه وأتخيَّلَه، لأنَّ التفضيلَ بين الشيئيْنِ يحتاج إلى التساوي في الماهِيَة، وهو مفقودٌ هنا تماماً.

لأَنَّ ماهِيةَ سُلالة الرَّسولِ نُورانِيةٌ محضةٌ مِنْ شجرة الأصل النورانية ولمعة القبضة الرحمانية التي تَفتَّقَتْ عنها العوالِمُ، وكان منها ما كان مِنْ إِنْسٍ وجانٍّ وجمادٍ وحيوانٍ؛ وغيرُهم مِنْ أصلٍ تُرابِيٍّ محضٍ، وإنما حصل له ما حصل بإشْراق النور المحمَّدي عليه عندما كان أصلُه مُنجَدِلاً في طِينَتِه. وكيف يُلتَمسُ طريقٌ للتفضيلِ بين التراب والنور ؟! هذا ما لا يَقُوله عاقلٌ نَوَّر اللهُ بصيرتَه.

ولكن هذا يحتاج إلى تَدبُّرٍ وتفكُّرٍ مع نورٍ في القلب، ولا يكفي فيه الفهم وحده. ويُؤيِّد ما قُلتُه هنا ما ذهب إليه الشيخُ الأَكبَرُ مُحْيِ الدِّينِ رضي الله عنه مِنْ كونِ فَضلاتِ أهلِ البيت طاهرة غير نَجِسة مطلقاً، واستدلَّ بِقولِه تعالى: ﴿ **لِيُذْهِبَ عَنكُم الرِّجْسَ أَهْلَ اَلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾، فأكَّدَ الفِعلَ بالمصدر لِيَدلَّ على حقيقة الطهارة. والسببُ في ذلك ما أشرتُ إليه مِنْ نورانية الأصل، ولذلك لم يكن لِلرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم ظِلٌّ إذا مشَى في الشمس، لِأَنَّه صلى الله عليه وآله وسلم نُورانِيٌّ، والنورُ لطيفٌ لا ظِلَّ له.

فهذه عقيدتي التي أَلْقَى بِها ربِّي في سلالة بيْتِ نبِيِّه المختار، أَحَبَّ مَنْ أحَبَّ وكَرِهَ مَنْ كَرِه. وهذا الموضوع مِنْ موضوعاتِ كتابي في الأولية المحمَّدية. والله أعلم.

فصل

في ذكر بعض البشارات

وقد منَّ اللهُ سبحانه عليَّ برؤية بِشاراتٍ في المَنام، رأيتُ بعضَها أنا، ورأى البعضَ الآخَرَ غيري. والرؤيا جزءٌ مِنَ النبوة، وهي المرادةُ بقوله تعالى: ﴿ **لَهُم اَلْبُشْرَى فِي اَلْحَياةِ اَلدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **ذَهَبَتِ اَلنُّبُوَّةُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اَلْمُبشِّرات: اَلرُّؤيا اَلصَّالِحَة يَراها اَلرَّجلُ أَوْ تُرَى لَه** »، أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد رأيتُ الحقَّ سبحانه وتعالى في المنام، وكان ذلك ظُهْرَ يومِ الأحَدِ السَّابِع مِنْ جُمادَى الثانيةِ سَنَة إِحْدَى وسِتِّين وثلاثمائة وأَلْفٍ بالقاهرة، ورُؤْيا النهار أصدَقُ مِنْ رُؤْيا الليلِ عند أهل التعبير.

ورأيتُ مولانا رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتيْنِ، مرَّةً وأنا صغيرٌ لا زِلتُ أتعلَّمُ

في المكتب، رأيتُه مع والدي رضي الله عنه في زاويتِنا بِطَنْجَة. وقد أخبرتُ بها والِدي فَعَمِلَ مِنْ أجْلِها إكراماً هائلاً للإخوان. ومرةً أخرى في هذه السَّنَةِ التي هي سنة إحدَى وسبعِينَ وثلاثمائة وألف، رأيتُ نفسي ضيْفاً عنده صلى الله عليه وآله وسلم في منزلِه، وقد قدَّمَ إليَّ طعاماً فيه لحمٌ وهو جالِسٌ إزائِي، والذي يُقدِّمُ إليَّ الطعامَ مَولانا الحُسَيْن عليه السلام، وصانِعُه سيِّدتُنا فاطمة اِبنتُه عليها الصلاة والسلام، ورأيتُها عليها السلام تُطِلُّ علينا مِنْ محلٍّ عالٍ كأنه سطحُ المنزل الذي نحن فيه. وبعدما فَرغْتُ مِنَ الطعام، قال لي رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: تَفضَّلْ نَستأذِنْ على الإخوان لِنَخرج.

ورأيتُ والدي رضي الله عنه يُبشِّرني بِبِشارةٍ عظيمةٍ جدًّا، ويقول لي: سَتَكونُ وتكونُ، بعد أَنْ قدَّم لي طعاماً. جعلنِي الله أهلاً لكلِّ ذلك.

وقد كان رضي الله عنه يخاطبنِي في حياته عند سلامِي عليه في كلِّ صباحٍ بعد قُدُومِي مِنَ المكتب: ''**أَهلاً بِمولاي عَبدِ العزيز الدَّبّاغ**'' وتارةً ''**بِعبدِ العزيز التَّبَّاع**''. وكِلاهُما طودٌ شامخٌ في المعرفة والولاية.

وبَشَّرني في حياته أيضاً بأمورٍ شريفةٍ مُنِيفةٍ جدًّا، حقَّقَ الله ذلكِ وجعلني أهلاً لِتلك المسالك. وقد جربتُ علَى والدِي رضي الله عنه أنَّه لا يُخبِر بشيءٍ إلَّا وخرج مِثل فَلَقِ الصُّبحِ. وكم أخبرنا بأمورٍ في صِغرنا كُنَّا نظُنُّ وقوعَها مِنَ المستحيل في حقِّنا، وكان يَعلم هو مِنَّا هذا فيقول: ''أنا أَعلمُ أنَّكم تستبعدون ما أقول، ولكن ستَرَوْنَ صِدْقَ أخباري وقولي''. وبعد ذلك بِسِنين طِوال تحقَّقَ ذلك تماماً، بل منها ما رأيناه إلَّا بعد وفاتِه رضي الله عنه ونفعني بِرِضاه آمين.

وكان يقول لي مِراراً وتكراراً: ''إنَّ لك في قلبي منزلةً خاصةً، ولِذا سمَّيتُكَ عبدَ العزيزِ، واِسْمُكَ عزيزٌ عندي جدًّا''.

ووقع مرةً أمرٌ أطلَعَنِي عليه وحدي، وقال لي: ''أخبرتُكَ به لِمَا أَعلمُهُ فِيكَ مِنَ الرَّزانة والعقلِ، ولا تُخْبِرْ به أحداً حتى فُلانٌ''. وقد كان ذلك، فلم يَسمعْ مِنِّي أحدٌ ذلك الأمر إلى الآن. والحمد لله على فضلِهِ ومِنَنِهِ.

فصل

إعتقاده أن الدنيا ليس ميزانا للفضل

ومما أَنعَمَ الله به عليَّ بُغض الدنيا وأهلها وعدم الإكتراث بها وإحتقار زينتها ومظاهرها، والنظر إلى مُحِبّيها والساعين في الحصول عليها بِعَيْنِ الإشفاق والتعجب. ولم يَقع في قلبي إلى هذه الساعة التي أكتبُ فيها هذه الأسطر حُبُّ الحصول على ما يَسعَى كلُّ الناس إليه منها. وأَرَى إلى هذه الساعة أَنَّ الفقيرَ أَسعدُ حظًّا مِنَ الغنيّ وأقربُ منزلةً إلى الله منه، وأعظمُ مقاماً في حياته وبعد مماتِه منه، لِاعتقادي أَنَّ الدنيا ليست بميزانٍ لِلفضل، وأَنَّ اللهَ يعطيها مَنْ يُحبُّ ومَنْ لا يُحب، وأَنَّ اللهَ ما نَظَر إليها منذ خلقها مقْتاً لها، وأنّها لا تُساوي عند الله جَناحَ بَعوضَةٍ، ولو كانت تساوي أَقلَّ مِنْ ذلك لَمَا سقَى الكافرَ منها جرعةَ ماءٍ.

وأَعجبُ غايةَ العجب مِمَّن أراه يُعامل الفَقيرَ بِغير ما يُعامل به الغنيَّ مِنَ الاحترام والإكرام. وأَرَى ذلك مِنْ ضعف إيمانِ فاعِلِ ذلك، ولو نظر إلى الدنيا بِما أمره اللهُ أَنْ يَنظرَ به إليها وإعتقدَ ما أَنْزلَه على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذَمِّها وذَمِّ العاملين لأجلها لَمَا فعل ذلك مطلقاً، ولِذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَنْ تَواضَعَ لِغَنِيٍّ لِأَجْلِ غِناهُ ذَهَبَ ثُلُثا دِينِهِ** ». لأنَّه عظَّمَ ما إحتقره الله وإعتقد رِفعةَ ما وضعه الله، نعوذ بالله مِنَ السُّوء، ونسأله سبحانه دوامَ فَضلِه عليَّ، وأَنْ لا يَنزع منّي ما أكرمني به إلى أَنْ أخرج مِنْ هذه الدار وأنا غيرُ مفتونٍ بزينتِها ولا متعلّقٍ بزُخرفِها، وحُطامِها الفاني الذي ما ضلَّ مَنْ ضلَّ إلّا بِحبّه ولا هَلَكَ مَنْ هَلَك إلّا بالتَّشوُّقِ إليه والعمل على حصوله. نسأل الله أَنْ يَجعلَ قلبَنا متعلّقاً به في جميع الحركات والسكنات، وهمَّنا منصرفاً إلى الحصول على رِضاه والقربِ منه؛ وبذلك نَسعد السعادةَ العظمى في هذه الدار وفي تلك الدار، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **إنَّ مِنْ قَلْبِ اِبْنِ آدَمَ بِكُلِّ وادٍ شعْبَةً، فَمَنْ جعل الهُمُومَ هَمًّا واحداً كفاه اللهُ سائِرَ هُمومِه، ومَنْ تَفَرَّقَتْ به الشُّعَبُ كلُّها لَمْ يُبالِ اللهُ في أيِّ وادٍ أَهْلَكَهُ** » أو كما قال صلى الله عليه وآله وسلم.

ولتَعْلَمْ أَنَّ الملبَسَ الحسن والطعام الطَّيِّبَ ووجودَ المالِ في اليد لا يُنافي دعْوَى صاحب هذا المقام، إنْ وُجِد مُتلبّساً بشيءٍ منه أو كلِّه. وهنا تَزِلُّ الأقدامُ ويَدخل على البُلْهِ وضعفاء العقل بسبب جهلهم الأغلاطُ والأوهامُ، لِظنّهم أَنَّ وجود مثل هذه الأمور ينافي القول بِبُغْضِ الدنيا وعدم

الميل إليها. والذي أوقَعَهم في هذا جهلُهُم بِمقام الزهد كما ينبغِي، ولبَيانِه نقول: إنَّ المقاماتِ على قِسميْنِ كما قال الشيخُ الأكبرُ رضي الله عنه في مقدِّمة ''الفُتوحات المكِّيَّة'': قِسْمٌ كمالُه في ظاهِرِ الإنسان وباطِنِه كالوَرَعِ والتَّوبة. وقِسمٌ كمالُه في باطِنِ الإنسان، ثمَّ إنْ تبِعَه الظاهرُ فلا بأْسَ كالزهد والتوكل'' اهـ.

فقَدْ أفاد كلامُ الشيخ الأكبر رضي الله عنه أنَّ الزهدَ كمالُه في الباطن وأنَّ الرجل قد يكون مَليئًا وهو مِنَ الزُّهاد الذين لم يجعل الله في قلوبهم اِلْتِفاتاً وافْتِتاناً بما في أيديهم مِنَ الدنيا. وبكلام الشيخ الأكبر رضي الله عنه يَزول الإشكالُ في وصْفِ نبِيِّ الله سليمان عليه الصلاة والسلام بالزهد مع ما أمدَّه الله به في الظاهر مِنَ المُلْكِ الذي لم يكن لأحدٍ بعْده.

قال أَبُو بكْرٍ اِبْنُ العَرَبِي المَعافِرِي المالِكِي في مقدِّمة كتابه ''سِراج المُرِيدين'': ''وقد كان سليمانُ عليه الصلاة والسلام مع هذا المُلْكِ العظيم مِنَ الزُّهاد. فإنَّ الزهدَ ليس بِفراغ اليَدِ مِنَ الدنيا، وإنَّما هو بِاعتقادِ اِحْتِقارِها وملازمةِ هَوانِها، وإنْ كانت بِحُكمِكَ فيها... '' اهـ. فينبغِي لِلمرْءِ أَنْ يَتفطَّنَ لهذا ولا يتَّبِع الجاهلين فيَقَع فيما وقعوا فِيه والله أعلم.

فصل

في فضل العزلة وعدم مخالطة أهل الدنيا

وحبَّب اللهُ إليَّ العزلةَ عن الناس والبعدَ عن مجالسهم، وكرَّه إليَّ الركونَ إلى مخالطَتِهم والاجتماع معهم في أمورهم، ولا سيما أهل الدنيا منهم، فإنَّ قلبِي ينقبض تماماً ويضيق صدري جدًّا عند الاجتماع بهم أو بأحدهم في مجلسٍ، ولا يذهب عنِّي ما أجد إلَّا بِمفارقة المجلس. وكذلك الحُكام منهم فإنَّ بُغضي لَهم ولِملاقاتِهم أشدُّ وأعظم. وأعجبُ كثيراً لِمَن يطِيبُ له مُخالطَتُهم والأكلُ معهم، وهو منشرحُ الصَّدر طيِّبُ الخاطر مِنْ غير أَنْ يَجِدَ ضِيقاً ولا حرجاً.

والناس اليوم وقَبلَ اليوم، يَسْعون بكلِّ الوسائل إلى التقرب إلى الناس والتعرف إليهم، لاسيما أهل المال والحُكم منهم، وذلك لِجهلِهم بما في ذلك مِنْ وَخِيم العواقب على المرء في دِينِه وطمْسِ بصيرتِه.

وقد مكثْتُ بِمِصْرَ سِنين طِوال ومع ذلك لا يزيد مَنْ أعرفُه بها مِنَ الناس على عدد الأصابع. وكان بعض أصحابنا يلومنِي على هذه العزلة واِتّباعِ سيرة الخمول، ويقول لي: أنتَ لا زِلتَ شابًّا وذَا بِزَّةٍ وهيئَةٍ حسنةٍ، فلو خرجْتَ إلى ما خرج إليه أمثالُكَ مِنَ التعارف بطبقات أهل العِلْمِ والأدب والسياسة؛ ويُرْغِمني أَنْ أذهبَ معه إلى المجتمعات والنوادي. ومع ذلك لم أساعده يوماً ما على شيءٍ مِنْ طلَبِه، بل ولم أَرَ لكلامِه وجهاً مِنَ الصواب مطلَقاً. وأقول في نفسي: ولا تَكنْ مع الغافِلين. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فصل

حضور المصنف لحلقة الذكر وحبه لها

وأكرمني اللهُ بحبِّ الذِّكر وأهلِه، وأجدُ في قلبِي لِيناً وخشوعاً عند حضور حِلَقِ الذِّكر، لاسيما حِلَق الرقص عند السادة الصوفية. ويحصل لي وجدٌ عظيمٌ واطمئنانٌ في القلب، وذلك مِنْ علامة الإيمان الصادق، والحمدُ لله. فإنَّ اللهَ أخبر عن المؤمنين بقوله: ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلوبُ** ﴾. والحمد لله على مِنَنِه التي جاوزَتِ العَدَّ والإحصاءَ.

والناس في هذا الوقت حتى أهل الدِّين منهم، يَرون في حضور حِلَقِ الذِّكر والرقص ضياعاً للوقت ويسخرون مِنْ ذلك، بل قال لي بعضُهم: إنَّه يستحْيِي في نفسه مِمَّن يَرقُص في هذا الوقت أَنْ يَمرَّ الناس على باب الزاوية فيَروْنَ ذلك. وهذا حالٌ عجيبٌ أَوجَبَهُ هذا العصرُ المُظلِمُ بأهلِه.

ولتَعلَمْ أَنَّ لِلرقص عند الصوفية، المُسمَّى عندنا بِالعمارة، أثراً عجيباً على القلوب وسرعةً عظيمةً في تَليينِها والنهوضِ بها إلى حضرة علَّامِ الغيوب، لاسيما إذا كان مع رجال الصِّدقِ والإخلاص في مجاهدتهم، ويُنْشَد فيه كلامُ أهل الأذواق مِثل اِبن الفارض، والشُّشْتري، والحَرَّاق، رضي الله عنهم. ومَنْ وجد خيراً فليحمد الله.

فـصـل

في فضل قراءة الأوراد والأحزاب

وقد ولعْتُ مِنْ صغري بحضور حِلَقِ الذِّكر بزاويتِنا، وقراءة وظِيفَةِ طريقةِ مولانا الوالد رضي الله عنه مع إخوانِنا بعد صلاة الفجر بِبابِ دارِنا. وقد حفظْتُ حِزبَ النَّوَوي وحِزبَ البَحْرِ وحِزبَ الزرُّوقِيَّةِ لسيدي أحْمَد زرُّوق، وصلاةَ القطب اِبْنِ مَشِيشٍ رضي الله عن جميعهم، وأذكاراً أخرى تشتمل عليها الوظيفةُ، بِملازمة حضوري لِقِراءتها مع الإخوان مِنْ غير أَنْ أكتُبَها في كتابٍ ولا لوْحٍ. ولا زلْتُ إلى الآن أحفظُها وأقرأها كلَّ صباحٍ في بيتِي.

وكنتُ في مِصْرَ أقرأها كلَّ يومٍ مع **سُورة يس**، ولكن لَمَّا كان أغلبُ وقتِي في البيت منصرفاً إلى الاشتغال بالعِلم فقد كنتُ أقرأها عند خروجي مِنَ المنزل وأثناء ذهابي في الطريق، ولم أتركها مدَّةَ إقامتِي في مِصْرَ صباحاً ومساءً.

كما كنتُ أقرأ يوم الجمعة قَبل الصلاةِ ''دلائِل الخيْرات'' لِلجَزُولِي، وأنا الآنَ أقرأُه كلَّ يومٍ وأختِمُه في أقل مِنْ أسبوعٍ، وقد وجدتُ بركةَ كلِّ ذلك والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقد كان والدي يُوصِينِي كثيراً بِحِزب النَّوَوي وحِزب البحرِ لِمَولانا أَبِي الحَسَنِ الشاذلي رضي الله عنهما، ويُنوِّه بخصوصِيَّتِهما العظيمة، ومِنْ وقت سماعي لِهذا مِنْه وأنا محافِظٌ على قِراءتِهما كل يومٍ اللهم إِلَّا إِنْ حالت أعذارٌ طارئةٌ.

وقد وقع مرةً لبعض إخوانِنا نِزاعٌ مع الشرطة وصلُوا فيه إلى الضرب بالعِصِيِّ، وترتَّب عن ذلك وقوع القبض عليهم وإِيداعِهم السجن، وقد كان جميعُ مَنْ وقع له ذلك مِمَّنْ قرأ الوظيفةَ في الزاوية وهي مشتملةٌ على الحِزْبيْنِ المذكوريْن. فذهبتُ إلى والدي رضي الله عنه عقب ذلك وقلتُ له: تقول لنا إِنَّ قارِئَ حِزْبَيْ النَّوَوي والبَحر، لا يقع له سُوءٌ. وها هُم أُولاءِ قد قرأوهما في هذا الصباح، وحصل لهم ما حصل. فقال لي: لو لَم يَقْرؤُوهما لكان الأمرُ أعظَمَ مِمَّا حصل لهم، وبِسبَبِهما وقع اللُّطفُ فِيما حصلَ.

وقد كان ذلك حقًّا، فإِنَّ قضية هؤلاء الإخوان اِنتهت بسلامٍ، وأعظمهم جناية عوقب بأربعةِ أشهرٍ سجناً، مع أَنَّ العادة تقضي فِيمَنْ يعتدي على رجال الشرطة ويَضربُهم حتى يُدمِيهم أَنْ يُعاقَبَ أشدَّ العقوبة، لاسيما ونحن ومَنْ ينتسب إلينا معروفُون عند الحكومة بعدم الاكتراث بها

والنظر إليها بِعين الاعتبار، فمتَى وجدوا الفرصة للانتقام مِنَّا اِنتقموا أشدَّ الانتقام، ومع ذلك صرَفَ الله الأمرَ بسلامٍ.

وقد وقع لي مرةً في مِصْرَ أَنْ خرجتُ مِنَ المنزل بعد الفطور لأجل الفُسحة والتَّرويحِ عن النفس في حدائق الجِيزَة الكائنة على النِّيل، وقبل خروجي قرأتُ أورادي كالعادة وذهبتُ إلى المكان المقصود. فأخذتُ حظِّي مِنَ النزهة والراحة، ولَمَّا عزمتُ على الرجوع أردتُ أَنْ أركَبَ عربَةَ (التِّرامْ) التي تَسير على قضبان الحديد بواسطة الكهرباء، فلا أدري كيف وقع لي حتَّى وجدتُ نفسي تحت العربة بِشكلٍ أَلْقَى الرعب في الناس، لأنَّه كان يدلُّ منظره على أَنَّ رِجْلِي قُطعَتْ ورأسِي ذهبَتْ. ووقع لي ألمٌ شديدٌ للغاية جدًّا، واِجتمع الناس عليَّ وأخرجوني مِنْ ذلك المأزق، وصاروا يَنظرون إلى أعضائي، فلمَّا وجدوني سالِماً لم يقع لي ما يَسوءُ أخذهم العَجبُ، بِذَكَرِهِم وأُنْثاهم، وصاروا يقولون لي إِنَّكَ رجلٌ طيِّبٌ حيث حُفِظتَ مِنَ الموت مع قُربه مِنك. وقد مكثتُ مدة عشرة أيامٍ وأنا ملازمٌ الفراش مِنْ جَرّاء ما أصابني مِنَ الألم في ظَهْري، وكادت عينِي تخرج عن موضعها، واِسْوَدَّ بياضُها تماماً. ولمَّا ذهبتُ إلى الطبيب وهو قِبْطِيٌّ نَصرانِيٌّ، قال لي: يجب عليك أَنْ تَحْمد اللهَ فإِنَّ عينَكَ كانت في طريق الذهاب، ولولا لُطْفُ الله لَاِنْقطعَتْ عُروقُ النظر تماماً.

وتحقَّقتُ بعد هذا مِنْ بركة تلك الأحزاب، وفضلِ المداومة عليها وقراءتها صباحاً مساءً. فينبغي أَنْ تتَّعِظَ بِما حكيْتُه هنا، وتلْزَمَ ذِكْرَ الله لاسيما ما شهِدَ بِخصوصِيَّتِه أهلُ المعرفة بالله. والحمد لله ربِّ العالمين.

فصل

إعجاب والده الإمام بلباسه

وفي صغري وأنا في المكتب مع الأطفال، تركتُ اللِّباسَ الذي يلبَسُه أمثالي وإخواني، المشتملَ على القُفْطان المَخيوط بالحرير الصِّناعي، والقميصِ الذي يُعْمل فوقَه المخيوطِ أيضاً مِثل القفطان. وأبدلْتُ القفطانَ بِقشَّابةِ الصُّوفِ وما يُعمل فوقها بِقشَّابَةٍ مِنَ الكتَّان المعروف بالسْحانْ، وعَملتُ جلَّابَةَ الصُّوفِ. وصار ذلك لِباسِي في أيام الأعياد وغيرها.

وفي عيدٍ مِنَ الأعياد، كنتُ أَلبسُ ثِيابي، فَأَطلَّ عليَّ والدي رضي الله عنه مِنْ فوق، فرأَى كسْوَتي، وطلب أَنْ ينظرَ إليها، فلمَّا أخذها بِيَدِه تبسَّم وقال: "هذه كسوةُ العارِفِين". نطلب

مِنَ الله أَنْ يَجعلنِي منهم ببركة رِضاه. آمين.

فصل

عدم ولوعه في صغره باللعب

ولم يكن لي في صغري ولوعٌ باللعب مع الصِّبيان ولا بالخوض معهم في كثيرٍ مِنْ لَهْوِهِم. وقد كان إخواني جميعاً ونحن صغارٌ يلعبون لعبةَ الكرة، ويصرفون فيها الوقتَ الكبيرَ، ولهم رغبةٌ عظيمةٌ في لعِبِها وحضورِ محافِلِ التَّفرجِ بالنظر إلى لاعِبِيها. ومع ذلك لا أعلَمُ عن نفسي أنَّنِي لعِبْتُها أو ذهبتُ إلى ملعَبِها، وكنتُ أعجب وأنا في ذلك السنِّ مِنْ رغبة مَنْ يلعب بها، فكنتُ ألزم المنزلَ غالباً ويَنْدر أَنْ أذهب مع الصبيان في فرجةٍ أو لعِبٍ. وقد كان أهلُ الدار يَعجَبون كثيراً مِنْ كثرةِ ملازمتِي الدار وعدم اللعب مع الصبيان. والحمدُ لله.

فصل

إقتناؤه للكتب في صغره

وكانت لي رغبة عظيمة منذ الصغر في إقتناء الكتب، وكانت عندي وأنا لا زلتُ في المكتب كتباً لَمْ تكن عند كثيرٍ مِنْ علماء الوقت، ولله الحمدُ. فاقْتنيْتُ كتباً في التفسير، والحديث، والفقه، والسيرة، واللغة، والتاريخ، وغير ذلك مِنَ الفنون.

وكان مولانا الوالد رضي الله عنه يُسَرُّ بما يراه فِيَّ مِنَ الإقبال على إقتناء الكتب وبذْلِ المال في شرائِها، مع الاعتناء بها وتجليدها. وقد أخذ مِنِّي رضي الله عنه كتباً كثيرةً أعجبَتْه وأعطاني كتباً أخرى بَدَلَها مِنْ مكتبتِه.

ولم يزل شأني على هذا الأمر إلى الآن، فلم أترك إقتناءَ الكتب، وشراءَ ما يهمُّنِي منها حتى مدة إقامتي في مِصْرَ، حيث كان الإنسان في إحتياجٍ إلى صرْفِ ثمنِها فيما يهمُّ مِنْ أمورِ المعيشةِ. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فصل

البحث في المكتبات

وكنتُ وأنا صغير أبحثُ في مكتبات مَنْ أزوره مِنْ أهل العِلْمِ، ويعجبني الاطِّلاعُ على ما في مكتبته مِنَ الكتب. وقد كانت في زاويتِنا مكتبة صغيرة فكنتُ دائماً بعد فراغي مِنَ المكتب أذهب إليها وأقلِّبُ أوراق كُتبِها، وأقضِي وقت الفراغ في الاطِّلاع عليها.

وقد كتبتُ على كثيرٍ منها أسماءَها وأسماءَ مؤلِّفيها، لأنَّ الغالب منها كان بخطٍّ مغربيٍّ، والمغاربةُ لا يَضعون في الكُتب التي يَنسخونها أسماءَها وأسماءَ مؤلِّفيها في الورقة الأُولى منها، كما هي عادةُ المشارقة، فلا يُمكِنُ معرفةُ اِسم الكِتاب إلا بعد قراءة الخطبة كلِّها، وأمَّا اِسمُ المؤلِّف فإِنْ ذُكِرَ في أول كتابه كما هي عادة بعضهم فيُمكن معرفتُه، وإلَّا فيصعب معرفتُه جدًّا، وقد يذكرونه في آخر الكتاب مقروناً مع اِسمِ الناسخ.

فصل

تردده على المكتبات في مصر

ولَمَّا كنتُ في مِصْرَ كنتُ كثيرَ الترَدُّدِ جدًّا على دكاكين بيْعِ الكُتبِ، والسؤال على ما ظهر مِنَ المطبوعات الجديدة، لاسيما منها ما كان في عِلْمِ الحديث. ولا يَمرُّ عليَّ يومٌ بِدون المرور على دكانٍ مِنْ دكاكين بيْعِ الكتب والتنقيب على الغرائب منها، ومعرفة ما فيه مِنَ الكتب، ولا زال شأني على ذلك الحال إلى الآن، والحمدُ لله. وكلُّ بلدٍ أدخلُها لا بدَّ مِنْ أَنْ أَزورَ فِيها محلَّاتِ بيْعِ الكتب وشراءِ ما أحتاج إليه منها، والحمد لله.

فصل

تخلقه با السخاء والكرم

وأكرمنِي الله جَلَّ شأنُه بالسخاء والكرم، والجودِ بِما أملِكُ مع الحاجة إليه. وقد كنتُ في مِصْرَ أَصِلُ أصحابي وأهلَ الفاقة بِما في يدي مِنَ المال مع شدَّةِ الحاجة إليه لأَنَّ البلدَ بلدُ غربةٍ،

وحال الغريب في ذلك معلوم. ولكن كنتُ أُوثِرُ ذَوِي الحاجة مِنَ الأصحاب وغيرهم عن نفسي، لا سيما ذَوُو العِيالِ مِنهم.

وكان بعضُ الأصدقاء يَطَّلِع على ذلك مِنِّي فيَعجب مِنْ سماح نفسي بِبَذل مِثل ذلك لَهم، ويطلب مِنِّي التقصيرَ عن ذلك، فأقول له: ليس لي مِنَ الأمر شيءٌ وإنما هو رزقُ اللهِ يَصِلُهم على يدي. والحمدُ لله الذي جعلني واسطةً في وصوله إليهم، وإنَّ مِنَ الناس مَنْ جعله اللهُ مفتاحاً للخيرِ. والحمد لله ربِّ العالمين.

فصل

في إعطائه عطاء من لا يخاف الفقر

ولَـمَّا قدِمتُ إلى المغرب، صار حالي مع الأقارب والإخوان وذَوِي الحاجة على ذلك المِنوال، أُعْطِيهم عطاءَ مَنْ لا يخاف الفقرَ ولا يخشى عاقبتَهُ، فلا أمنعُ على أحدٍ منهم شيئاً ولا أردُّ له طلباً ما دمتُ أجد السبيل إلى ذلك. ولا أعلم عن نفسي أَنِّي اِدَّخرتُ شيئاً أحتاجُ إليه مِنْ مالٍ وغيره مع وجود المحتاج إليه مِنْ قريبٍ وغيره. ويصعُبُ على نفسي جدًّا أَنْ يطلبَ أحدٌ مِنِّي شيئاً وهو عندي ثم أقول له: لا.

هذا وأنا والحمد لله لا أملِكُ مِنْ متاع الدنيا شَرْوَى نَقِيرٍ، وليس لي معلومٌ ولا مُدَّخرٌ منها، وإنما هو فضل الله وحده وسِتْره السابغ عليَّ في الظاهر والباطن، وحتى المنزل الذي أسكُنُه لا أملِكُه، ولَم تُحدِّثني نفسي بالعمل لأجل الحصول عليه، لِمَا أرى مِنْ أَنَّ الله سبحانه هو الذي يختار للمرء، ويُقدِّر له الأمور كما يُريد. فإذا أراد الله سبحانه لي منزلًا أو متاعاً مِنْ هذه الدار أتاني مِنْ حيث لا أحتسب.

وقد نفعنِي الله سبحانه بهذا الاعتقاد، فلم ينقصني مِمَّا يتمتَّع به أهلُ الدُّنيا شيءٌ مطلقاً، مِنْ ملْبَسٍ، ومسْكَنٍ، ومأْكَلٍ، ومشْرَبٍ. والحمدُ لله ربِّ العالَمِين.

فصل

في حال المصنف مع الرزق وتوكله على الله

ومِنْ مِنَنِ الله تعالى العظيمة عليَّ، أَنَّه لم يجعل في قلبِي التعلُّقَ في شأن الرزق بالأسباب كما هو حالُ الناس اليوم، بل قلبِي متعلِّقٌ في ذلك بالله وحده سبحانه. وأعتقد الاعتقاد الجازم أَنَّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ على إِيصالِ الرزق إلى عبده مِنْ غير حركةٍ ولا سعيٍ في الأسباب.

وقد مَنَّ الله سبحانه عليَّ بهذا المقام منذ أزمانٍ، وحصل لي بسببه نورٌ في القلب وإطمئنانٌ. وصرتُ بسببه دائماً في مشاهدة تجلّياتِ الرَّحمن وتصرفاته في عِباده مِنْ غير نظرٍ إلى الأكوان وكُدُورَةِ الوقوف معها.

وقد أوصلنِي هذا المقامُ إلى الرِّضا عن الله فِيما يفعلُ ويُريد، فلا أسخطُ على ما فات ولا أفرحُ بما هو آتٍ، فالذي يَفوت بِقَدَرِ الله، والذي يأتي بقَدَرِه. فلو أردتُ جلْبَ ما أراد فواتَه لا أستطيع، ولو أراد غيري دفْعَ ما أراد وصولَه إِلَيَّ لا يستطيعُ ولو فعَل ما فَعَل.

فإذا حضر البسْطُ والوجْدُ لِما أطلبُ وأريدُ، حمِدتُ وشكرتُ؛ وإذا لم يحضر علِمتُ أَنَّ الله لم يُرده لي، فصرفْتُ النظر عنه وصبرتُ.

ولهذا لا أعلمُ عن نفسي أنِّي تحسَّرتُ أو تأسفتُ على ما فات وخرج مِنْ يدي عندما تنزل الضائقة أو الحاجة إلى ذلك الذي خرج وذهب. ومِنْ هنا لم أَسْعَ في وظيفةٍ مِنَ الوظائف ولا عمِلتُ على الحصول عليها، سيما ما كان منها في يد النصارَى، ويدعو العملُ فيها إلى مقابلتهم بغير ما أُقابلهم به وأنا غير موظَّفٍ معهم، لِمَا أَرَى ذلك مِنَ التذلل والتواضع لأجلِ المال لا غير.

وصَرَف نظري عن طلَبِ الوظيفة مع هذا عِلمُ الحديث، لِما أعلمُ مِنْ أَنَّ القيامَ بِخدمتِه مع القيام بِمهام الوظيفة لا يُمكِنُ مطلَقاً، فإمَّا أَنْ أقوم به كما ينبغِي فأُصْبح في قيلٍ وقالٍ مِنْ أجلِ شُؤون الوظيفة، وإمَّا أَنْ أقومَ بالوظيفة وأترك عِلمَ الحديث وخِدمته بالمرَّة، وهذا لا تساعدني عليه نفسي مطلقاً، لِمَا وضع الله في قلبِي مِنْ حبِّ الحديث وحبِّ الاشتغال به، فاخترتُ خدمةَ الحديث على القيام بالوظيفة.

ولَمَّا قدِمتُ مِنْ مِصْرَ، عُرِضت عليَّ الوظيفةُ بِتِطْوانَ، فلم ألتفِتْ إليها بالمرَّة، وحصل لي

فرحٌ بِكون الله صرَفَها عنّي. والحمدُ لله ربِّ العالَمين.

ومع كلِّ هذا وذاك، ففِي بعض الأحيان يتحرك عِرْقُ البشرية وتوسوس النفس بِما فُطِرتْ عليه مِنْ ضعف الثقة بما في يدِ الله والرِّضا بِما في عِلْمِه، وتطلب أَنْ يكونَ المُقدَّرُ عند الله وصولَه إليها في يدها حاضراً في كلِّ آنٍ وحينٍ لِتطمئنَّ وتثِقَ. ولكن مع ذلك أستعيذُ بالله مِنْ شرِّها، وأطلبُ مِنْ ربّي أَنْ يهديها ويَسلك بها طريق المهتدين، فتطمئن وتعود إلى رُشدِها.

وقد طالعتُ "التَّنوير في إِسْقاطِ التَّدبير" لِلعارِفِ بالله اِبْنِ عَطاءِ اللهِ السَّكَنْدَرِي رضي الله عنه لأجلِ تهذيب النفس وترويضِها على هذا المقام، وعدَمِ نظَرِها إلى ربْطِ عطاء الله وفضلِهِ بشيءٍ مِنَ الأمور والعادات. وقد حصل لي منه نورٌ ومعرفةٌ، والحمدُ لله. "

وليس معنَى قولي هذا، أَنَّ الله سبحانه لم يُشَرِّعْ لعِبادِه الأسبابَ، ولم يأمرهم بطلَبِ الرزق وأمور معاشِهِم بِبابٍ مِنَ الأبواب. كلَّا، فإِنَّ الشريعة قاضيَةٌ وحاكمَةٌ بِرَبْطِ المُسببات عن الأسباب، وإنكارُ ذلك منها إنكارٌ لِمَا عُلِمَ ضرورة، وقَطعَ به الخاصُّ والعامُّ.

والصُّوفية رضي الله عنهم لا يُنكِرُونَ الأسبابَ ولا يَنْهَون الفقيرَ عن القيام بها مع سلوكِه في الطريق ومجاهدته. وإنَّما معنَى قولِي هذا، هو أَنَّ الناسَ اليوم وقَبل اليوم يكادون يُشركُون بالله ويَجعلون الأسبابَ رازقةً لهم مع الله، ولا يقع في خاطرهم أَنَّ الله سبحانه وتعالى يرزق بغير سببٍ ولا علةٍ، ويمنح بدون خوضٍ في عملٍ وحركةٍ، ويستحيل عندهم عقلاً وعادةً أَنْ يَرزق اللهُ عبداً مِنْ عباده وهو جالسٌ قابعٌ في داره. فصار قلبُهم بسبب ذلك متعلِّقاً بالأسباب مهتمًّا بها في الليل والنهار، منصرفاً عن الله والنظر فيما قدَّر وصوله للعبد. وتسبَّبَ لهم ذلك في ترْكِ الفرائض والسُّنن، ومراقبة الله في الأمور والأحوال؛ فلا يُفرِّقون بين الحلال والحرام، ولا يخافون مِنْ عقابٍ ولا حسابٍ، وأظلمَتْ قلوبُهم بالركون إلى الأسباب واعتقاد أَنَّ الرزقَ لا يأتي مِنْ عند الله إِلَّا بواسطتِها والدخول فيها، **فأَبْعَدَ اللهُ عنها الخشوعَ والرَّهبةَ مِنْهُ، وجعلها قاسيَةً لا تخاف ولا تَرغبُ فيما عنده سبحانه.**

فهذه هي الأسباب التي نَعنِي ويعنِيها الصوفيةُ رضي الله عنهم، وأَمَّا مزاولةُ الأسباب مع النظر إليها بأنَّه مأمورٌ بها لا غير وأَنَّ رِزقَه قد يأتيه ويتيسَّر له مِنْ غير طريقِها فهذا لا يُنكِرُه أحدٌ، وهو الذي كان عليه كِبارُ الشيوخ مِنْ رجال الطريق رضي الله عنهم ونفعنِي بأحوالهم. آمين.

فصل

في بعض ما من الله تعالى عليه به في أمر رزقه

ومِنْ مِنَنِ الله عليّ، أنَّه يعاملني في أمور الرِّزقِ بما كان يُعامل به نبيَّهُ المختار صلى الله عليه وآله وسلم؛ فتارةً يُوجَد عندي منه الكفاية وما يزيد عليها، وتارةً أقضِي ما أحتاج إليه بالدَّيْنِ والسَّلفِ. وبهذا يتِمُّ للعبد الوقوف في مقامَيْ الشكر والصبر، وتَبْعد نفسه عن البطر والإعراض عن الله، ويدوم القلب في مشاهدة الجلال والجمال، فيَخْشَعُ ويَخْضع ويَلِينُ ويطمئِنُّ.

وقد يأتي عليَّ وقتٌ يكون لي فيه مِنَ الملابس عددٌ كثيرٌ منها، ويأتي وقتٌ آخرُ لا يُوجَد عندي ما أُغَيِّرُ به ما اِتَّسخ منها. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فصل

في سلامة قلب المصنف من الحسد والحقد

ولم يجعل اللهُ في قلبِي الحسدَ والحِقدَ على أحدٍ مِنَ الناس، ولا أتمنَّى لأحدٍ الشرَّ وزَوالَ ما فِيه مِنْ نعمةٍ. ويكفِينِي مِنْ عدوِّي أَنْ أراه مُعرضاً عن ربّه، خائضاً فِيما لا يَعنِيه، غيرَ مُقْبلٍ على ما ينفعه في آخرتِه، فذلك أعظم العقوبة عندي. وأَمَّا حاله مِنَ التوسعة ووُفُور النعمة فلا يهمُّنِي النظر إليه، لِمَا أَعلمُ مِنْ زَوالِ ذلك عمَّا قريبٍ بالموت، وعدم نفْعِه له في الآخرة بالمَرَّةِ مع عدم الاستقامة والرجوع إلى الله.

فصل

في خلقه وعدم تتبعه لشؤون الناس

وأكرمنِي اللهُ سبحانه بعدم تتَبُّعِ عورات الناس، والاطِّلاع على أسرارهم والسؤال عن أحوالِهم، حَسنِها وسيِّئِها. وأَعْجبُ مِمَّن له رغبةٌ في الحصول على ما غاب عنه مِنْ أسرار الناس وأخبارهم، سائلاً عن ذلك وباحثاً. بل قد يتعرض لِي مَنْ يُخبِرني بشيءٍ مِنْ ذلك فأنصرف عنه ولا ألتفِتُ إليه، ولا أجِدُ نشاطاً وقابليَةً للسؤال عن مِثْلِ ذلك، ويَضيق صدري جدًّا مِمَّن يَفعل ذلك، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فصل

في كراهته للجرائد

وكرِّه إليَّ قراءة الجرائد وصرْفُ الوقت في قراءتها، وإذا نظرتُ فيها فلا يتجاوز نظري فيها أكثر مِنْ دقائق معدودة. والناس اليوم يَصرفُون الوقتَ العظِيمَ في ذلك. ولله الحمدُ على فضلِه.

فصل

في سلامة قلب المصنف من الكبر و التعاظم على أحد من الخلق

ولم يَجعل الله تعالى في قلبِي كِبْراً وفي نفسي تعاظماً على أحدٍ مِنْ خلْقِه، ولا أرى لنفسي مزيَّةً ولا خصوصِيةً على أحدٍ.

والناس اليوم لِميوعة أخلاقهم وجهلِهم بقواعد الأخلاق وأصول الآداب، يَصِفون الرجلَ بالكِبْرِ لِأُمورٍ يرونها منه كِبْراً وتعاظماً، وهي في الواقع ونفْسِ الأمر لا تَمُتُّ إلى الكِبْرِ بِصِلَةٍ. ومِثالُ ذلك أنَّهم يَرمون الرجلَ بالكِبْرِ لِكونه لا يُكْثِرُ الكلام معهم في ما لا يَعنِي، ولا يَخوض فيما يَخوضون فيه مِنْ أمور اللهو واللعب، ولا يضحك مِمَّا يَضحكون منه، وإذا ضحك لا يرفع صوتَه ولا يُقهقِهُ مِثلَهم كما هو المطلوب. وقد تعوَّدَ الناسُ اليوم أنَّهم يَجتمعون في المجالِس على مِثل هذا، فمَنْ حضر معهم ولم يُساعدهم فيما هُمْ عليه ويَجري معهم في طريقِهم وَصفُوه بالكِبْرِ وحُبِّ التعاظم عليهم والمَيْلِ إلى الغطرسة. وكلُّ هذا أوْجَبَه الغفلة عن مسالك المُروءة والجهل بخَوارِمِها.

وزادهم وقوعاً في ذلك رؤيتهم لِبعض مَنْ يُنسَبُ إلى العِلم يَدخل معهم في مجالسهم بالأمور المضحكة المخلَّة بالمروءة والأدب، مع أنَّ الواجب على أهل العِلم التَّحلِّي بالأدب الكامل والخُلُق الجميل لِيكونوا قدوةً لغيرهم. ومِنْ جهْلِ الناس اليوم، أنَّهم يعدُّون ذلك منهم تواضعاً ويَصفونهم بسبب ذلك بِخِفَّة الرُّوح والظَّرَفِ، ويَروْنَ المتمسِّكَ بكمال الآداب وحُسْنِ المروءة متكبِّراً متغطرساً. والأمرُ لله تعالى.

والكِبْرُ كما قال الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم هو: « **أَنْ تَبْطَرَ الحقَّ وتَغْمطَ الناسَ** »،

وذلك بأَنْ تَرى أَنَّ الحقَّ حقُّك والفضل فضلُكَ، وغيرك لا يُدانِيكَ في مرتبةٍ ولا مقامٍ، فيَجُرك ذلك إلى أَنْ تُنكِرَ حقوق الناس الواجبة عليك، لأنَّك تـرَى أنَّهم ليسوا أهلاً لذلك.

وأَمَّا التَّحلِّي بِحِلْيَةِ الوقار والتَّزيُّن بِهيئة ذَوِي المروءة والأدب في المجالِس والطُّرقات، فذلك ليس مِنَ الكِبْرِ في شيءٍ بل ينبغي أَنْ يتحلَّى به كلُّ مسلمٍ، لا سيما أهل العلم والفضل.

وقد أعطاني اللهُ في هذا المقام خصالاً حميدةً، ومنحني فيه مَزايا عظيمةً لم أرها في كثيرٍ مِنَ الناس حتى أهل العلم منهم. فمِنْ ذلك أنَّني إذا كنتُ ماشياً في الطريق كان مَشْيِي قصْداً مِنْ غير اِلْتِفاتٍ إلى جهتي اليمين واليسار، ولو كان هناك ما يدعو إلى الالتفات والنظر والتطلع.

وأَعْجَبُ مِنْ مُطلَقِ الناس فضلاً عمن يدَّعِي العِلمَ منهم، كيف تسمح لهم نفوسُهم بالوقوف في الطرقات لِلنظر في كلِّ ما يَعْرض لهم فيها مِنْ حوادث ومُشاغَباتٍ.

وقد كنتُ في مِصْرَ أَمرُّ في الشارع مِنْ غير أَنْ ألتفِتَ مطلقاً، ولاحَظَ علَيَّ كثيرٌ مِنَ الناس ذلك حتى سألني بعضُهُم مرَّةً: هل تعلَّمتَ في مدرسةٍ عسكريةٍ ؟! فقلتُ: ما معنَى هذا السؤال ؟ فقال لي: لأنِّي أرَى مِشيَتَك في الطريق كمِشيَةِ كِبار القُوّاد والجنرالات في القصد وعدم الالتفات، فقلتُ له: ما تعلَّمتُ إلَّا في مدرسة السُّنة المحمدية. وكان هذا السائل مِنْ طُلاب العِلم الألبانيين بالأزهر.

وقد يكون مصاحِباً لي في الطريق بعضُ الأصحاب، فيَعْرض لنا في الطريق ما يَدعو إلى النظر والفرجة، فيذهب صاحِبي إلى ذلك وأَتْركُه ذاهِباً إلى حال سبِيلي، ولا تسمح لي نفسي بأَنْ يَراني الناس مجتمعاً مع العامَّةِ والأوغاد في النظر إلى ما لا يَعنِيني ولا يَنْفع.

ولا أُحبُّ الكلام ورفْعَ الصوت في الطريق، وأكره مَنْ يفعل ذلك مِمَّن يكون مصاحِباً لي في الطريق، فإِنْ كان مِمَّن يُمكِنُ لي إرشادُه ونَهيُه عن رفْعِ صوتِه ذهبْتُ معه وإلَّا اِجتنبتُ المشْيَ معه ومصاحبتَه في الطريق. وأَعجبُ كثيراً جدًّا مِمَّن يَزعم العِلمَ ويتَّصف بِصِفةِ أهلِه ثم يَرفع صوتَه في الطرقات حتى يُسْمع كلامُه مِنْ مسافةٍ بعيدةٍ.

فصل

عدم جوضه فيما يخوض فيه العامة

وأما المجالسُ العامَّةُ، فأتحلَّى فيها بِحلية الوقار ولُزوم السكينة، وعدم الكلام فيما لا يعْنِي، والخوض فيما يخوض فيه الجالسون مِنَ الأمور التي أرَى الخوض فيها غير لائقٍ، وقد يتَّفق أنِّي أحضر مجتمعاً لِإكرامٍ أو نحوه فلا أتكلَّمُ فيه بكلمةٍ واحدةٍ مطلقاً إلى أنْ أنصرفَ. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فصل

تخلقه بالحياء مع الناس

ويمنعني الحياءُ مِنَ التمتع بكثيرٍ مِنَ المباحات التي يتمتع بها الناس في مجالسهم، بل وسائر شؤونهم مِنْ ملبسٍ وغيره. كما يمنعني الحياءُ مِنْ أخْذِ كثيرٍ مِنَ الحقوق والمطالبة بها، ولا تسمح نفسي بمواجهة مَنْ هي عنده بها، وإذا وقع وتكلَّمتُ في ذلك فأتكلَّمُ وأنا في خجلٍ وحياءٍ كأنَّ الحقَّ ليس حقِّي وإنما هو حقُّ المخاطَبِ. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فصل

بعده عن الأماكن المزدحمة

وإذا خرجتُ فلا أحبُّ المرورَ في الشوارع العامرة بالناس والدكاكين، بل أختار الطُّرقَ الفارغةَ مِنَ الناس، وأجد عند المرور في الشوارع العامرة ضِيقاً في نفسي وحرجاً. وكثيراً ما أذهب إلى محلٍّ مِنْ طريقٍ بعيدةٍ لأنَّها فارغةٌ وخاليةٌ عن الناس مِنَ الطريق القريبة.

فصل

تعامله مع الباعة

ولا أُحبُّ مُماكَسَةَ الباعَةِ إذا اِشتريتُ حاجةً مِنْ حوائِجي بِنَفْسِي، ويغلِبُنِي الحياءُ عن الأخذِ والردِّ معهم في الزيادة والنقصان، ولِهذا أُفضِّلُ في شراء حوائِجي أنْ يقومَ به غيري.

فـصـل

تشبهه بأهل الفضل و الدين

وأُحبُّ التشبهَ بهيئةِ أهلِ الفضلِ والدّين، وأكره ما فيه التَّشبهَ بأهل هذا الوقت الذين يَحْذُونَ حَذْوَ الكفار خطوةً بخطوةٍ، فأخالفهم في هيئة لِباسِهم، ومَحبَّتِهم للتصنُّعِ والتَّزيُّن مِنْ مسح أسنانهم بالفُورشَةِ الإفرنجية مع اِستعمال الأدوية معها للزيادة في تبييضِ الأسنان، وكثرةِ اِستعمال الروائح العِطرية مِنَ الكُولُونْيا وغيرها مِنَ العطور الإفرنجية المحضة التي أَراها لا تُوافِقُ إلّا النساء.

وأما الطِّيبُ الجيّدُ المستخرَجُ زَيتُه مِنَ الأزهار المختلفة فيُعجبنِي كثيراً، وهو يخالف الكُولُونيا مِنْ كلِّ الوجوه، ولو لم يكن في الكُولُونيا إلّا كونها طِيب الكفار الخاص بهم والذي لا يَعرفون غيره ولا يُحبُّون اِستعمالَ ما سواه لكان كافياً في تركِهِ.

ومما جرَى عليه عملُ الناس اليوم، أنهم يتصنَّعون في التَّعمُّمِ تصنُّعاً غريباً حتى لَيُخيَّلُ إليكَ أَنَّ الرجل غير لابِسٍ للعِمامة، وإنما هي قطعةٌ مِنْ ثوبٍ على رأسه مِنْ كثرةِ ما يَحتالون في شَدِّها ولَفِّها، وشدَّةِ تنميقِها حتى لا تَظهر طيَّاتُها متراكمة بعضها فوق بعضٍ.

أَضِفْ إلى هذا، أَنَّهم يُصَغِّرونها جدًّا لأجل ذلك أيضاً، ولا يَرمُونَ طَرَفاً منها خلْفَهم كما هي السُّنَّةُ، بل يفعلون ما وَرَدَ النَّهيُ عنه وهو الاقْتِعاطُ.

وهيْأَتِي أنا ولله الحمدُ مخالِفة لِعَملِهم هذا ومنافية له تماماً، فلا أتكلَّفُ في العِمامة بِما يكون مُخِلًّا للمروءة، وأُرْخِي عند تعَمُّمِي طَرَفاً منها ورائي كما هي السُّنَّةُ مع كبرها الكبر المناسب.

وأما الملابس، فإِنَّ للرجال فيها اليوم نِظاماً غريباً. فالجُلُّ منهم ترك اللباسَ المغربيَّ وصار يلبس اللباسَ الفِرنْجِيَّ في داره وغيرها. والآخَرونَ يلبسون اللباسَ المغربيَّ لكن مع تأنُّقٍ فيه وتحذلُقٍ وتَنَطُّعٍ بالِغٍ، مِنْ تضْيِيقِ الجَلَّابَة ليظهر حُسنها كما يفعل النساءُ، مع سَبْكِ ''القبْ'' عند الخروج سبكاً أنيقاً بحيث لا تكاد تُفرِّق بينه وبين ''قب'' المرأة بِفارقٍ مطلقاً. وكلُّ هذا تخنُّثٌ وضَعفٌ في النفس يخالفان المروءةَ والفتوةَ وشهامةَ الرجل. وقد عافاني اللهُ مِنْ كلِّ هذا ولله الحمد والمِنَّة، ولم يجعل في قلبي أَدنَى اِلتفاتٍ لِمِثل هذا التَّزين الممقوتِ المخالِفِ لِسماحة

الشريعة الناهية عن التكلف.

وربما يجلس إزائي الرَّجلُ الذي يَكْبرني بِسنين كثيرةٍ فأَظهرُ لِلرَّائِي أَنَّنِي أَكْبَرُ منه وأنا الذي أَفوتُه بِتلك السِّنِين مِنْ أجل ما فيه هو مِنَ التَّزين والأناقة الواصلة إلى أناقة النِّساء، وما فيه أنا مِنْ هيئة الرجال والشيوخ الكبار. وقد وقع هذا فعلاً فظَنَّ الناس أَنَّنِي أكبر مِمَّن هو أكبر مِنِّي في الواقع لأَجلِ حالي وهيأتي. والحمدُ لله على هذا الحال، فإِنَّ الرسولَ صلى الله عليه وآله سلم يقول: « **خَيْرُ شَبابِكُمْ مَنْ تَشَبَّهَ بِكُهُولِكُمْ وَشَرُّ كُهُولِكُم مَنْ تَشَبَّهَ بِشَبَابِكُم** ». والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فصل

إعفاؤه للحيته ومخالفته للعامة

وأَمَّا اللِّحيَة فقد أعلَنَ الناسُ اليوم محاربَتَها والقضاء على العمل بها، لا فرق بين صغيرهم وكبيرهم، ولا بين عالِمِهم وجاهِلِهم. وإذا وقع ونزل وحصل لِرجلٍ كبيرٍ إعفاؤها فإنَّما يترك منها ما يَظهر لك عند القُربِ مِنه ومواجهتِه. وأما إذا كنتَ بعيداً عنه فتَحسبه بِدونِها، وذلك في نظره هو الإعفاء الذي أمر به الشَّرع.

وهذا حال الشيوخ الكبار، وأما الشُّبَّان والكهول فقد يُمكن أَنْ تَرى النُّجومَ في الأرض ولا تَرى اللحيةَ في وجه شابٍّ أو كهلٍ مِنْ رجال هذا الوقت، حتى يُخَيل إليكَ أَنَّ اللحيةَ عندهم بِمنزلة العَانَةِ تَماماً يَجِب حلْقُها، ومنهم مَنْ لا يَصْبِرُ على حلْقِها أكثر مِنْ يومٍ وليلةٍ، بل الكثير منهم لا يَخرج مِنْ داره صباحاً حتى يَمُر عليها بِالمُوسَى كما يفعل النَّصارى واليهود تماماً. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ومِنَ العجَبِ أَنْ تَرى أهلَ العِلم يُسايِرون رجالَ هذا العصر المُظْلِم في ذلك، فيَحْمِلون هم الآخَرون لِواءَ العَداوة ويَرفعون رايةَ المُحاربَةِ لِلِحاهُم، فيقُصُّونَها قصًّا يَخدش في مُروءتِهم بل في إيمانهم ودينِهم. لأَنَّ حالَهم في ذلك لا يخلو عن أمريْنِ لا ثالث لهما: إمَّا أَنْ يكونُوا يَفعلون ذلك مِنْ قَصِّها قصًّا يُذهِبُ بَهاءَها بل يُذهِبُ اِسم اللِّحيةِ عنها تماماً مُجاراةً لأهلِ هذا العصر وحُبًّا في اِتِّباعهم وسعْياً في الدخول في حظيرتِهم والكَيْنونة معهم لِيُقْبِلوا عليهم ويَرْضَوا بهم في

مجالسهم وأنديتِهم ويَسْلَمُوا مِنْ سخريتِهم وضحكهم عليهم لأجل اللِّحى.

وإمَّا أَنْ يكونوا يفعلون ذلك بُغْضاً في إعْفائِها وكراهيةً في طُولِها وإستقذاراً لِهيئتها كذلك. لا ثالث لِهذيْنِ الأمريْنِ وكِلاهُما يدلُّ على ضعف الإيمان وفساد العقيدة وخور العزيمة.

فالأَوَّلُ فيه اِختيارُ اِتِّباعِ أهل الفساد والمتشبِّهين بالكُفَّار المارقِين مِنَ الدِّينِ والإيمان على اِتِّباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والاقتداء به والاهتداء بِهديْهِ صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولا يَخفَى ما في ذلك والعياذُ بالله.

والثاني فيه اِحتقارٌ واستقذارٌ لِمَا كان عليه الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم، واتَّصَفَ به ولم يُفارقه حتَّى اِختاره اللهُ للرفيق الأعلى؛ بل وأمر به أُمَّته وحثَّهم عليه وبيَّن لهم العلَّةَ والسبب فيه، وهو كونُه شعاراً للإسلام وسنَّةً مِنْ سُننِه وعلامةً مِنْ علاماتِه التي يمتاز بها عن أهل الأديان الأخرى. ففي اِحتقار ما كان هذا حالُه وحُكمه كفرٌ مُجرَّدٌ مِنْ غير شكٍّ، ولا يَخلو صاحِبُ هذا الاعتقاد مِنْ أَنْ يكون يَرَى أَنَّه اِتَّصف مِنَ الصِّفات بِأفْضل وأحسن مِمَّا اِتَّصف به الرسولُ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ إعفاء اللحية، وهذا كفرٌ لا خلاف فيه مِنْ مسلمٍ.

وإمَّا أَنْ يكونَ يفعل ذلك اِتِّباعاً للمشركين وأهل الكتاب ومُجاراة لِمَنْ تبِعَهم مِمَّنْ يَزعم الإسلامَ مِنْ أهل هذا العصر الفاسد؛ وهذا أيضاً فسوقٌ وخروجٌ مِنَ الدِّين لِاخْتِيار صاحِبه الاقتداء بأهل الضلال والفساد على الاقتداء بِسيرة خيْرِ العِباد. نعوذ بالله مِنْ كلِّ سوءٍ وضلالٍ.

وقد منَّ الله تعالى عليَّ منذ نَبَتَ الشعرُ في وجهي بإعفاء اللحية والتمسك فيها بالسُّنَّةِ، وقد أعفيتُها وأنا بِمصر. وإعفاؤُها هناك يحتاج إلى صرامةٍ في الدِّين وقوةِ إيمانٍ لِما يُلاقِيه الملتحِي مِنَ السخرية والاستهزاءِ مِنَ الناس جميعاً، لا فرق بين عالِمِهم وجاهِلِهم.

ورأيتُ بسببها مِنْ مِثْلِ ذلك شيئاً كثيراً، وكنتُ أفرحُ وأُسَرُّ بالإذاية في سبيل التمسك بحبل السُّنَّةِ. ولحيتِي الآنَ أطول مِنْ لحيةِ الشيوخ ذَوِي السبعين والثمانين سنَةً. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فصـل

في سلامة المصنف من الوسوسة في سائر الأحوال

وعافنِي اللهُ تعالى مِمَّا اِبتلَى به كثيرٌ مِنَ الناس مِنَ الوسوسة في وضوئِهم وصلاتِهم وسائرِ شؤونهم، حتَّى يخرج ذلك بهم إلى حدِّ التكلُّفِ المُزري، بل يَصِلُ بهم ذلك إلى أَنْ يتقذَّروا مِنْ فضل طعام المسلمين، والشربِ مِنْ إناءٍ عقِبَ شُرب مسلمٍ منه، وغير هذا مِنَ الأمور التي أراها مُخلَّةً بالمروءة. ونطلب مِنَ الله تعالى أَنْ يُديم عليَّ عافيتَه وعفوَهُ بفضله ومَنِّه.

أَمَّا الوضوء، فإنِّي أتوضأ بِحَفنات مِنَ الماء، وأغتسل بالإناء الذي لا يَكْفِي غيري لِلوضوء فضلاً عن الغسل. ولا يَحصل لِي ولله الحمدُ أدنَى شكٍّ ولبْسٍ في وضوئي وغسلي بذلك القدر مِنَ الماء. كما أَنَّنِي لا أتجاوز في الغسل أكثر مِنْ خَمْسِ دقائق، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وأما المسائل الأخرى مِنْ أكلِ ما فَضلَ عن أحدٍ مِنَ المسلمين أو الشرب مِنْ إناءٍ شَرب منه، فهذا لا يَخطر في بالي ولا أتخيل في فكري الاحترازَ منه والبعدَ، اللهم إنْ رأيتُ بعينِي ما يدعو إلى البعد مِنْ ذلك. وأما إذا غاب عن عينِي المانعُ فلا أتكلَّف البحثَ والوسوسةَ كما يفعل الناس، بل في كثيرٍ مِنَ الأحيان أقصد الشربَ عَقِب شُربِ المسلمين مِنْ إناءٍ لِأَجْلِ التبرك بِآسارِهِم، وإقتداءً بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث طلَبَ ما فَضَل عنهم في محلِّ طهارتهم. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

فصـل

في صبره وجلده

ورزقنِي اللهُ مِنَ الصبر والتحمل والجَلَدِ ما يهون به عليَّ كل شيءٍ أُصاب به في نفسي. وقد أُبْتَلَى بالمرض المؤلم فلا يَعْلم به مَنْ حَولي حتى يقع الشِّفاء مِنَ الله، فلا أَبثُّ شكواي ولا أذهب إلى الطبيب إلَّا عند الضرورة. والحمدُ لله ربِّ العلمين.

فصل

في كرهه المبالغة في التجمل

ولم يجعل اللهُ في قلبي موضعاً لِملاحظة الناس في كثرة التَّجمُّل وتحسين الثياب عند الخروج والاجتماع بهم. ورجالُ هذا الوقت يتصنَّعون في الزينة كما يتصنَّع النساء تماماً، وقد أشرتُ قبل هذا بقليلٍ إلى بعض عوائدهم المُبالَغِ فيها لحدٍّ كبيرٍ في اللِّباس والتزين. وهذا مِنْ وَهَن النفس وضعفِها، ووقوفها مع العوائد الحاجبة لها عن الترقي مِنْ ظُلمتِها.

ومرةً قال لي أخٌ لِي هل تستطيع المشيَ حافياً إلى المكان الفلاني وعَيَّنه، وكان يظنُّ أنني لا أستطيع، فما كاد يُتمُّ كلامَه حتى نزعتُ الحذاء مِنْ رجلي وشرعتُ في السير. وقد قال لي هذا وهو ماشٍ معي في الطريق، فلمَّا رأى منِّي ذلك لم يستطع أَنْ يتابع السير معي، وفارقني في الحال إلى أَنْ تقابلْنا في المحلِّ الذي كان مُعَيَّناً الاجتماعُ فيه. وقد مررتُ حافياً على أهمِّ طرق المدينة وأسواقها، الأمر الذي كان مثار عجبٍ. والحمدُ لله على فضلِه ومِنَنِه التي لا تُعدُّ ولا تحصَى.

فصل

في صفة أكله

وأما الأكلُ، فليس لي فيه حالٌ مخصوصٌ ولا سيرةٌ متَّبعةٌ، وإنما هو على حسب ما يتَّفق حضوره ووجوده في الدار. ولا أشتهي مِنَ المأكولات إلَّا الحلوى في بعض الأحيان، وما سواها فعندي سواءٌ في سدِّ الجوع ودفْعِ ضرره. والحمد لله.

فصل

تخلق المصنف با الرحمة و العطف

وجعل الله تعالى في قلبي الرحمةَ والعطفَ على كلِّ ذِي رُوحٍ، ولا أستطيع النظر إلى حيوانٍ يُعذَّب، ولا تَسمح نفسي بضرب البهيمة إذا ركبتُها، ولا أترك أحداً يضربها، وأترك لها الحرية في السير. ولا أستطيع مشاهدة ذبْحِ الحيوان مطلقاً فضلاً عن أَنْ أباشره بنفسي، ولا يُعترَض

عليَّ بمباشرة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم لذبح الحيوان بنفسه، فإنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بعثه الله مُشرِّعاً ومبيِّناً للناس أمْرَ دينهم، مع كونه صلى الله عليه وآله وسلم أَرْحم الناس بالمخلوقات بل هو عينُ الرحمة صلوات الله عليه وآله وسلم.

وعندنا هِرَّةٌ في البيت يبلغ بي البرور بها والعطف عليها إلى درجة أَنِّي أُوثِرها باللحم عن نفسي إذا حضرتْ وأنا آكلُ، حتى أَنَّ أهلي يلمْنَنِي على ذلك. والحمدُ لله.

فصل

في حبه لزيارة الأولياء ومراقهم

ومِنْ محبتِي في أهل الله تعالى أَنِّي لا أدخل بلدةً فيها قبرٌ يُنسب لِولِيٍّ مِنَ الأولياء إلَّا زُرتُه وتبركتُ به، إلَّا إذا حالت الأعذار ومنعتِ الأشغالُ مِنْ ذلك. ولـمَّا كنتُ بالقاهرة لم يكن يمرُّ عليَّ أسبوعٌ بدون زيارة ضريحٍ مِنْ أضرحتها والتبرك بقبر وليٍّ مِنْ أوليائِها. وحصلَتْ لي بركةُ ذلك ولله الحمدُ.

وقد كنتُ ملازماً في القاهرة زيارة ضريحِ الإمام أَبِي عبدِ الله مُحمَّدِ بنِ إِدْريس الشافعي رضي الله عنه كل يومِ جمعة، وضريحِ السيدة نَفِيسَة رضي الله عنها كل يومِ أَحدٍ، وضريحِ الإمام الشهيدِ المَولَى الحُسينِ بنِ عليٍّ عليهما السلام كل يومٍ، وفي مسجده أُصلِّي العِشاء.

والخلاف في وجوده في ذلك المكان شهيرٌ، وبعضُهم حقَّقَ وجودَ الرأس الشريفِ وحده، ولكنَّ سيدي عبدَ الوهاب الشَّعراني أخبر عن طريقِ الغيب بوجوده فيه. ووقعتْ له في ذلك حكايةٌ لطيفةٌ حكاها في اِختصاره لِتذكِرَةِ القُرطُبِي، فلتُنظَر.

وعلى كلِّ حالٍ فينبغي للإنسان أَنْ يَقصده لأجل التبرك بِقَطع النظر عن وجوده وعدم وجوده، والأعمالُ بالنِّيَّات، ويكفي في ذلك نِسبتُه لِلحُسين عليه الصلاة والسلام.

فهذا ما كنتُ ملازماً لزيارته، وأما ما كنتُ أتردد إليه في بعض الأحيان، فهو قبرُ السيدة سكينة، والسيدةِ عائشة، والسيدةِ رُقَيَّة، والسيدةِ زينب، والسيدةِ فاطمة النبوية، وكلُّهنَّ مِنْ آل البيت رضي الله عنهن جميعاً. وفي وجود بعضهن خلافٌ مذكورٌ في محلِّه. وقبرِ سيدي عُمر بنِ

الفارِضِ، وسيدي عبدِ الوهاب الشَّعْراني، وشيخِه سيدي علِيٍّ الخَوَّاص، ونُورِ الدِّينِ الشُّوني، وسيدي علِيٍّ البَيُّومي، وعلِيٍّ المُرْصِفي، وسيدي الحسنِ الأكبر، يقال إنَّه أخُ سيدي أحمد البَدَوِي رضي الله عنه، وقبرِ السلطان الحنفي، وسيدي عنان، وسيدي علِيٍّ السدار، وقد ترجمه الشَّعْراني في ''الطبقات''، وقبرِ الإمام السيوطي، والإمام اللَّيْثِ، والقُطبِ الدَّرْدير رضي الله عنهم جميعاً، وزرتُ غيرَهم ولكن مراتٍ قليلة.

أما العلماءُ ومَنْ لم يشتهر بالولاية، فزرتُ منهم الحافظَ اِبنَ حَجَر رحمه الله، والطَّحاوي، والعَيْنِي والقَسْطَلاني شارحي البخاري، والسيدَ مُرتَضَى الزَّبِيدي، وجماعةً يَطول ذِكْرُهم. وقد كانت زيارتي لهم على سبيلِ التَّبَع إذا كانوا في الطريق لزيارة وليٍّ مِنَ الأولياء.

وزرتُ بمدينة طَنْطَا ضريحَ القُطبِ الكبيرِ سيدي أحمدَ البَدَوي رضي الله عنه، وبالإسكندرية ضريحَ أَبِي العَباس المُرْسِي، وياقُوت العَرْش، والبُوصيري صاحِبِ البُردة رضي الله عنهم.

وبِتُونُس ضريحَ سيدي أحمدَ بنِ عروس رضي الله عنه، وبالجزائر سيدي عبدِ الرحمن الثَّعالِبي رضي الله عنه، وبِتِلمسان ضريحَ سيدي أَبِي مَدْيَن الغوث رضي الله عنه، وبِفاس ضريحَ الإمام مولاي إدريس رضي الله عنه، وسيدي عبدِ العزيز الدَّبَّاغ، وسيدي علِيٍّ الجَمَل، وسيِّدي محمد بنِ إبراهيم وشيخِه محمد أَيُّوب، وغيرِهم مِنْ رجال (القُباب) رضي الله عنهم. وبِزَرْهون ضريحَ مولاي إدريس الأكبر فاتح المغرب رضي الله عنه، وبِسَلا ضريح سيدي عبدِ الله بنِ حَسُّون، وابنِ عاشِر رضي الله عنهما. وبآزمُّور ضريحَ مولاي أَبِي شُعَيب رضي الله عنه. وبِتَاغْيا مِنْ قبيلة زِيان ضريحَ مولاي أَبِي يَعْزَى رضي الله عنه. وبالقصر الكبير ضريحَ الإمام أَبِي الحَسَنِ علِيٍّ بنِ غالِب رضي الله عنه. وبِفَحْصِ طنْجَة ضريحَ الإمام قاسِم بنِ إدريس بنِ إدريس رضي الله عنهم، وكان مِنَ الأوتاد كما سمعتُه مِنَ الوالد رحمه الله.

وبِتُجْكانْ مِنْ قبيلة بْنِي مَنْصور بِجِبال غْمارة، ضريحَ الجَدِّ سيدي الحاج أحمدَ بنِ عبدِ المؤمن، وابْنِه ـ والدِ والدِي ـ سيدي الحاج الصِّدِّيق رضي الله عنهم، والجدِّ الأعلَى عبدِ المؤمن. وبِقبيلة بْنِي بُوزْرَةْ ضريحَ سيدي أحمدَ الفِيلَالي رضي الله عنه. وبجبلِ العَلَم مِنْ قبيلة بْنِي عْرُوس ضريحَ القطب الأشهر والغوث الأكبر فخرِ المغرب مولانا عبدِ السلام بنِ مَشِيش رضي الله عنه.

وبمدينة طَنْجَة ضريحَ سيدي أحمدَ بنِ عَجِيبَة جَدِّ والدتي، وقد تَرجَمَه أَبُو الفَيْضِ في

"سُبْحَة العَقِيق". وضريحَ والِدِ الوالدة سيدي عبدِ الحفِيظِ بنِ أحمدَ بنِ عَجِيبة، وله ترجمةٌ كذلك فِي"سُبْحَة العَقِيق" وغيره، وضريحي الوالِدِ والوالدة رضي الله عنهما وألحَقَنِي بهما في دار الكرامة، وهُما مِنْ أصحاب الكرامات والمناقب الفاخِرة، وأُكْثِرُ مِنْ زيارتهما والدُّعاءِ عِندهما، وقد وجدتُ بركةَ الدعاء عندهما. والحمدُ لله حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه إلى يوم الدِّين.

فصل

في أسفار وتعرفه على أحوال الناس

وقد جُلتُ في كثيرٍ مِنْ مدن الدِّيار المِصرية وقُراها، وكذلك في كثيرٍ مِنْ مدن المغرب وبَوادِيه. ودخلتُ إلى تونس، والجزائر، وقَسَنْطِينَة، ووهْران، وتلمسان، واطَّلعْتُ على أحوال الناس، ووقفتُ على عوائدهم، مِما زادني ذلك معرفةً وخبرةً بكثيرٍ مِنَ الأمور. وبالله التوفيق.

فصل

في ثناء العلماء على مؤلفاته

وقد قرأَ تآلِيفي كثيرٌ مِنَ الناس، وأَثْنوا عليها ومدحوها وبالغوا في الإطراء، وفي مقدِّمتهم وطلِيعَتِهم **شقيقِي الحافظُ المجتهدُ أَبُو الفَيْضِ شِهابُ الدِّينِ أحمدُ** أَمْتَعَ اللهُ بهِ، فقد اِطَّلع على أغلب مؤلَّفاتي وأَثْنَى عليها، وقرظ بعضَها بتقريظٍ حسَنٍ، وإليكَ ما قرظ به كِتابي "**الباحِث عن عِلَلِ الطَّعنِ في الحارِث**" قال بعد الدِّيباجَة:

"**.. أمَّا بَعد: فإنَّ مَنْ قرأَ هذا الجزءَ المُسمَّى بالباحِث، لِشَقِيقِنا العَلاَّمة المحدِّثِ الواعِيَةِ النَّاقدِ البصِير بالعُلومِ الأَثَرِيةِ والرِّوائِيةِ، جَمالِ الدِّينِ أَبِي اليُسْرِ عَبدِ العَزيزِ بنِ محمدِ بنِ الصِّدِّيقِ أبْقاه اللهُ وأدام توفِيقَه، وكان مِنْ أهل الفضلِ والإنصاف والتَّذَوق لِطَعْمِ التحقيقِ في العلوم بِلا تَعَصُّبٍ ولا اِعْتِسافٍ؛ عَلِمَ أنَّه مِنَ العُدُولِ الذين قال فِيهِم النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: « يَحْمِلُ هذا العِلْمَ مِنْ كلِّ خَلَفٍ عُدُولُه، يَنْفُونَ عنه تَحْرِيفَ الغَالِّينَ وانْتِحالَ المُبْطِلِينَ وَتَأْويلَ الجَاهِلِين »؛ ومِنَ الطائفةِ المنصورة الوارِدِ فِيهِم بالطريقِ**

المتواترِ عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « لَا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظاهِرِينَ علَى الحقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُم وَلَا مَنْ خَذَلَهُم حتَّى يأتِيَ أَمْرُ اللهِ وهُمْ علَى ذلك ». بل يَعْلَمُ أَنَّه مِنْ آياتِ اللهِ تَعالَى التي قال عنها فِي كِتابه العَزيز: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَاتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ﴾.''

فَلَئِنْ كان اللهُ قد نسخَ آياتِه الباهرةِ في هذه الأُمَّةِ مِنْ حُفّاظِ الحديثِ ونُقَّادِ رِجالِهِ الذَّابِّينَ عنه في صدْرِ هذه الأُمَّةِ، فهو سبحانه بِفضلِه وجُودِه لم يَقْطَع عن هذه الأُمَّةِ آياتِه في تلك الباب، بل أَظْهرَ منها في آخِرِها مِثلَ ما أَظْهرَ في أوَّلِها، وفي كلِّ قَرنٍ مِنْ أُمَّتِهِ صلى الله عليه وآله وسلم سابِقُونَ إلى الخيراتِ. ولولا وجودُ تعَبٍ مُلِمٍّ بِنا في هذه اللَّحْظَةِ لَأَمْلَيْنا في مدْحِ هذا الجُزءِ وتأيِيدِهِ ما يَفُوقُ حَجمَه أو يُماثِلُه علَى أَنَّ في كِتابِنا ''فَتْح المَلِكِ العَلِيِّ'' وكِتابِنا ''البُرهان الجَلِي'' ما فِيه كِفاية لِتأيِيدِ هذا الجُزءِ الشَّرِيفِ والبحثِ المُنِيفِ.. '' إلخ.

وكتب مِثل هذا التَّقريظ على كِتابي ''التدمير لِمَا ذَكَره النَّابُلْسِي فِي رؤْيا فاطِمَة والحَسَن والحُسَين عليهم السلام مِنَ التَّعْبِير''، وعلى كِتاب''فتْح الرَّحمان''.

وكتبَ إليَّ مِنْ طنْجَة وأنا بِمِصْرَ وقد أطلعتُه على مقالةٍ كتبتُها في مسألة التقليدِ، كتبَ يقول: ''.. وقد أعجَبَتْنِي مقالَتُكَ المطبوعةُ لِلغايةِ، كما أُعْجِبَ بِها كثيرٌ مِنَ الإخوان، لا سِيَما فُلان وفُلان ..''.

وكتب أيضاً يقول: ''.. وأَمَّا مُؤلَّفاتُ سيدي عبدِ العَزيزِ فَحَسَنةٌ، و''رفْعُ العَلَمِ '' جميلٌ للغايةِ. ولعلَّه يُوَفَّق لِتخريج أمثالِه مِنْ كُتب التصوف كالعَوارِفِ وغيرِها؛ أما اِستدراكُكَ على ''اللآلئ المصنوعة'' فيَدلُّ على طُولِ باعٍ وشدَّةِ عنايةٍ بالحديث. زادك اللهُ حِرصاً وعنايةً به، آمين.''.

وكتب في ضِمنِ جوابٍ له عن بعض المسائل أثناء كلامٍ ما نصُّه: ''.. التواترُ الذي يُكَفَّر مُنكِرُه هو التواتر الضروري الذي يكون مجبولاً على التصديقِ به كلُّ أحدٍ بخلافِ النَّظَرِي الذي لا يَحصلُ إلَّا لِلبُزَّلِ في الحديثِ كسيدي عبدِ العزيزِ زاده اللهُ حِرصاً وعِنايةً بالحديثِ، ومعرفة طُرقِه ورجالِه..''. إلى غير هذا وهو كثيرٌ.

ولَـمَّا اِطَّلَعَ **الشَّقِيقُ أَبُو اَلْمَجْدِ السَّيدُ عَبدُ اللهِ** علَى كِتابي: ''الباحِث عن عِلَلِ الطَّعْنِ في الحارث ''، كتبَ إليَّ مِنْ مِصْرَ يقول: ''.. **إنَّه كتابٌ عجيبٌ سَلكْتَ فيه مَسلَكَ الاجتهادِ والنَّقدِ في التَّجريح، وهو حقيقٌ بالطَّبعِ**..''.

وكذلك أثنَى على كِتابي في الردِّ على النَّابُلسِي وأَعْجَبه، وقال: ''**إنَّه مِنْ أَحْسنِ ما كَتَبتَ** ''. وأثنَى أيضاً على كِتابي ''قَطْع الوَتِين'' وقال بعد وقوفِه عليه: ''**إنَّه غريبٌ في بابِه مُفِيدٌ** ''.

وقد قرأتُ كثيراً مِنْ مقالاتي على **شيْخِي عَبدِ السلامِ غُنيْم** وأنا بِمِصر، فأُعْجِب بها غايةً وإستحسنها كثيراً وقال لي: ''**هذا مِنْ باب خَرْقِ العادةِ والبَركَةِ العَائِدَةِ عليكُم مِنْ والِدِكُم وإلَّا فالعَادةُ لا تُعطِي مِثْلَ هذا لِمِثْلِكَ** ''. وقد قال هذا لأنَّه يَرَى نفسَه وقد مرَّت عليه نحو أربعين سنةً أو أكثر في خدمةِ العِلم ولا يَجِدُ القُدرةَ على كِتابةِ خِطابٍ، فضلاً عن تحرير مقالٍ. ولله الحمدُ.

وكتبتُ مرةً مقالةً في مجلة ''الإسلام'' تتعلَّق بِأَبِي حَنِيفَةَ، فاطَّلَعَ عليها **الشيخُ محمدُ زاهد الكَوْثَري**، وكيلُ مشيخةِ الإسلام بالبلاد التُّركية سابقاً، فأَعجَبَتْه وأثْنَى عليها في مجلسٍ وأنا حاضرٌ.

كما أثنَى كثيرٌ مِنَ المِصريِّين مِنْ أهل العلم والأدب على ما وقفوا عليه مِنْ مقالاتي في المجلَّات، وما أطلعْتُهم عليه مِنَ المؤلَّفات. وقد أطلعتُ بعضَهم على كِتابي ''**نَظْم اللَّآلِ فِيما أخذه الشمسُ اِبنُ طُولُون مِنْ كُتب الجَلال**''، فأُعْجِب به غايةً لِحُسن نِظامِه وطَرافَةِ موضوعه، مع غرابته وبُعْدِ أفكار الناس عنه.

ولَـمَّا اِطَّلَع بعضُ إخوانِنا الأفاضل على كِتابي: ''الإفادة بِطُرُقِ حديثِ: « **النَّظَر إِلَى عليٍّ عِبادَة** »''، أُعْجِب به أَيَّما إعجاب، وقال لي مشافهةً وبِدون شُعورٍ: ما كنتُ أظنُّكَ على هذه المعرفة والاطِّلاع. وردَّ إليَّ الكتابَ مصحوباً بورقةٍ مكتوبٍ فيها ما نصُّهُ: ((**إِلَى العالِمِ العَلَّامة، الدَّرَّاكة الفهَّامة، الجهْبذِ النِّحريرِ، المحدِّثِ الكبيرِ، سيدِي عبدِ العزيزِ بنِ الصِّدِّيقِ: سلامٌ عليك ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه أما بعد: فقد اِتَّضح الحقُّ وزهَقَ ما كنتُ أعتقده في مُعاويةَ وأصحابِه الضَّالِّينَ المُضِلِّينَ، المُبغِضِينَ لآلِ بَيتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا الدَّاء القبيح هو الذي أدَّاهُم إلى قِتال سيدِنا الإمامِ عليٍّ عليه السلام، ولعْنِه على المنابر، ولا تُوجَد علامةٌ على بُغْضِ الإِمام أَعْظَم مِنْ هذَيْنِ الفِعْلين القبيحيْنِ. وأَمَّا**

المقلِّدون الجامدون الذين لا يُميِّزون الحقَّ مِنَ الباطل، فيقولون إنَّ معاويةَ وأصحابَه كانوا مجتهدين مخطِئين. وما هذه إلَّا دسيسةٌ دَسَّها في أفكارهم الشيطانُ لِينحرفُوا عن آلِ البيتِ، الذين جعلَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام الانحرافَ عنهم عليهم السلام علامةً على النفاق، والانخراطَ تحت لوائهم علامةً على الإيمان. رضيَ الله عنكم يا سيِّدَنا عبدَ العزيزِ، ما أعظمَ شأنَكم وأشدَّ اِحترامَكم لآلِ البيتِ الطَّاهِرِ بالقولِ والفعلِ. وتعجَّبتُ مِنْ سعة اِطِّلاعِكُم على أحوال الرجال وأسانِدِهم، فَلَكُم المكانة العُليا في الصناعة الحدِيثِيَةِ كما أفاده تأليفُكم المُباركُ المسمَّى بِالإِفادةِ. وقديماً سمعتُ مِنْ شيخِنا سيدي الزَّمزَمِي شقِيقِكم يقول: ''إنَّ سيدي عبدَ العزيزِ سيُدْرِكُ مرتبةَ الأخِ الأكبرِ في عِلمِ الحديثِ مع الاجتهاد فِيه'' وصَدَقَ فيما قال. وأسألكم دعاءً صالحاً في مواطِنِ الإجابةِ. والسلام)).

وأطلعتُ هذا الأخَ أيضاً على كِتابي ''**التَّدمير**'' فردَّه بعد قراءته مصحوباً بتقريظٍ هذا نصُّه بعد الديباجة: **((أَلَا ومِنَ العلماء العامِلِين التَّقِيُّ الطاهرُ، الحافظُ الماهرُ، الجهْبذُ الناقدُ، أَبُو اليُسْرِ السيدُ عبدُ العَزيزِ بنُ الصِّدِّيقِ، فإنَّه قد أطلعَنِي حفظه الله ورعاه وجعل الجنةَ منزلَتَه ومأواه، على رسالةٍ مباركةٍ سمَّاها ''التدمير لِما ذَكَره النَّابُلْسِي مِنَ التَّعبِير''، فوجدتُها تُنبِئُ عن سعةِ اِطِّلاعِه على علومٍ شتَّى، وعلى شدَّةِ اِحترامِه لأهل البيتِ الكِرامِ. ثم قال: جزاك الله عنّا خيراً يا سيدَنا عبدَ العزيز وزادك عِلماً وخشيةً وعِزَّةً وِاحتراماً.**

جَزَى اللهُ عنَّا أَبناءَ الصِّدِّيقِ خَيراً وسَقاهُم مِنْ رَحِيقِ
قَامُوا لِأَجْلِ الدِّفاعِ عَن الدِّينِ بِالتَّأْليفِ والخطابَةِ والتَّعليقِ

..)) إلخ ما قال.

وكتب إليَّ بعضُ الأفاضل مِنْ أهل العلم بعد أَنْ قرأ كِتابي ''**الباحث**''، يقول بعدَ الدِّيباجة، أمَّا بعد:

((فقد قرأتُ كِتابَكم المسمَّى ''الباحث''، فوجدتُه مؤلَّفاً ما سَبَقَكم أحدٌ إلى موضوعِه. ومَنْ لزم قِراءته حتى يَعْلَق بذهنه، يُغْنِيه عن كثيرٍ مِنْ كُتب المصطلح، بل تحصل له مَلَكَةٌ عجيبةٌ ويتعلَّمُ قواعدَ فنِّ الحديث التي لا يجدها في ''أَلْفيةِ العِراقِي'' وشرحِها، بل ولا في أصلِها. فرضِيَ الله عنكم وزادكم بسطةً في العِلم والجِسم، والنورِ والمعرفة به، وأمدَّنا مِنْ

بحر محبتكم في آلِ بيتِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وخصوصاً فاطمة وابنَيْها وبعْلِها عليهم الصلاة والسلام. فوالله يا سيدي لولا تقريظُ سيِّدي ومولاي الشيخ - يعني الأخَ أبا الفَيْضِ - قد كفَى وشفَى في مدحِ الكتابِ لِاشتمالِه على كلِّ الثَّناء، لكان مِنَ الواجب علينا أنْ نَبذلَ المجهودَ في ذِكْرِ ما نستطيع قولَه، ولكنْ لم يَبقَ لنا مع مدْحِ أخِيكم قولٌ ولا تقريظٌ. والحقَّ أقول، هو الذي يَعرف مكانتكم وطولَ باعِكم. فأنتم واللهِ تَحْذون حذْوَهُ لا في المؤلَّفاتِ النَّفيسةِ ولا في الصناعةِ الحديثِيَةِ، بل في كلِّ شيءٍ. فالحمدُ لله على محبتِكم ومعرفتِكم، متَّعَنا اللهُ بِكم في الدنيا والآخرة. آمين)).

وكتب الشَّقيقُ أَبُو الفَيض أَمْتَعَ اللهُ به، لِبعض الإخوان الراغِبِينَ في السُّنَّةِ يُرشِدُه إلى الكُتب التي يهتدي بها إلى معرفة عِلْمِ الحديثِ ومُخالَطَةِ مسائِلِه بعد كلامٍ:

((فأرجوكم رجاءً خاصًّا أَنْ تُطالِعُوا ''الجامِع الصَّغِير'' مرتين أو ثلاثاً، و''اللَّآلِئ المصْنُوعة'' مرتين أو ثلاثاً، ورَدِّي على اِبنِ خَلدون، وكِتابِي ''فتْح المَلكِ العلِيِّ''. فإنَّ في هذه الكتب المذكورة مِنَ الصناعة الحديثية ما تَخرج مِنْ مُطالعتِها مُحدِّثاً إنْ شاء الله كما وقع لنا ولأخِي سيدِي عبدِ العزيز)).

وكتب إليَّ بعضُ الإخوان مِنَ الإسكندرية، وهو مِمَّن اِجتمع بي هناك وتذاكرنا في أنواع العلوم، يقول:

((إلى حضرة أخي وأستاذي، وحُجَّتِي وعِياذِي، صاحِبِ الهِمَمِ العالية والأخلاق العظيمة السامية، صاحِبِ الصِّدِّيقِيَّةِ والنفحاتِ المؤمِنِيَّة، واللَّحظاتِ الدرقاوِيَّةِ والمعارف الشاذلِيَّة، أميرِ أُمراءِ المُؤمِنِينَ في الحديث في القديم والحديث، الحافِظِ الأُصُولِيِّ البارِعِ الأَلْمَعِيِّ

فَلِي مِنْهُ أُستاذٌ ولِي مِنهُ مُرْشِدٌ ... ولِي مِنْهُ شَيخٌ ذُو اِتِّصالٍ ولِي ولِي

مَنْ تحلَّى في حيوانِ الرِّجالِ بِأبْهَى تَطريزٍ، مولانا صاحبِ الفضيلة السيدِ الشيخِ عبدِ العزيزِ بنِ قُطبِ الوجود وكَعبةِ أربابِ الشُّهودِ كهفِ أُولِي التحقيق مولانا الشيخ محمدِ بنِ الصِّدِّيق، أدام اللهُ وجودَه ونفعنا بِعِلْمِه وجُودِه. آمين)).

وكَتب إليَّ أبُو الفَيْضِ يَطلب مني أَنْ أُرسِل إليه ترجمتِي لِيُدرجَها في كِتابه ''العِقْد الفاخِر

بِما لِأَحْمدَ بنِ الصِّدِّيقِ مِنَ المَفاخِر'' قائلاً: ((**إِنَّ ترجمتَكَ وترجمةَ سيِّدي عبدِ اللهِ مِمَّا أَفْتخِرُ بـه**)).

ومثلُ هذا كثيرٌ، ولكنْ خرج مِنْ تحت اليد لأنَّ الهِمَّةَ لم تكن متعلِّقةً به. وإنما ذكرتُ هنا ما وقفتُ عليه مِنْ ذلك تحدُّثاً بالنعمة وإظهاراً لفضل الله على عبدِه.

وقال بعضُ الأدباء:

يَحْيا لَنا عبدُ العَزيزِ الأَلْمَعِي ... اَلسَّيدُ الصِّدِّيق ثاني اَلْأَصْمَعِي
فَهُو الإِمامُ بِعَصرِنا وهُو الذِي ... جازَ اَلْمُلوكَ بِرَغْمِ أَنْفِ المُدَّعِي
وَهُوَ الذِي جَازَ اَلْقَبُولَ مَقامُهُ ... لِسَماحِهِ اَلْحُلْوِ السَّرِيعِ المَشْرَعِ
فَلْيَحْيَ لِلأُدباءِ كَوابِلٍ مُمْطِرٍ ... مِنْ كفِّهِ ويَزِيدُ عِندَ اَلْمَطْمَعِ
وَيدومُ ما قالَ القَائِلُ لِجُودِهِ ... يَحْيَا لَنا عَبدُ العَزيزِ اَلْأَلْمَعِي

وقال أيضاً:

يَحْيا لَنا عبدُ العَزيزِ إِلَى اَلْمَدَى ... اَلْأَلْمَعِيُ الصِّديقُ من سنَّ النَّدى
فَهُوَ الْإِمامُ بِعَصْرِنا وَهُوَ الذِي ... حازَ الفَضائلَ وَالعُلىَ والسُّؤْدَدا
لَا زالَ حَيّاً فِي العُلَى يُحْيِي العُلىَ ... ويَدومُ لِلعِلْمِ السَّنِيِّ مُؤَيِّدا

وقال آخرُ في ضِمن رسالةٍ إليَّ:

أَدامَ سَعْدَكَ مَنْ أَعْطاكَ أَوَّلَهُ ... وَلا اِسْتَردَّ حياةً مِنكَ يُعْطِيها
عِشْ لِلمَجدِ حِصناً ثابِتاً مُشرِفاً ... وَلتَبْقَ كالشمسِ لِلدُّنيا ومَنْ فِيها

فصل

في ذكر شيوخ المصنف رحمه الله تعالى

أذكر فيه شيوخي في الرواية والإسناد، فقد يسَّر لي اللهُ سبحانه عدَّةَ شيوخٍ، أجاز لي بعضُهم مشافهةً وكتابةً، والبعضُ الآخرُ كتابةً لا غير، لعدم الاجتماع واللُّقِيّ. وقد كاتبتُ وأنا بالقاهرة شيوخاً في الحجاز والشام واليمن، وبعض مدن مِصْرَ كَدمْياط، وحصلتْ لي مشيخةٌ لا بأس بها والحمدُ لله.

واستجاز لي الشقيقُ أَبُو الفيض بعضَ الشيوخ في رحلةٍ إلى مِصرَ والشام، وسأذكر هنا بعضَهم على ترتيب الحَرف بإختصارٍ، وسأجمع مشيخةً مُطوَّلةً نذكر فيها ما لنا مِنْ شيوخ الرواية. وإنما ذكرتُ هذه الجملة هنا لِتَتِمَّ الفائدةُ ويُعْرف أسانيدي إلى الكتب مَنْ أجزتُه بالرواية عنِّي وسمع منِّي كُتبَ الحديث كالمُوَطَّأ وغيره. والحمدُ لله.

١ ـ **أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الصِّدِّيق**: شقِيقِي أَبُو الفَيْضِ، صاحبُ التآليف الكثيرة المفيدة، الحافظُ الحُجَّةُ الذي أَلْقَت إله علومُ الرواية بالمقاليد، وحاز قصبَ السَّبقِ في مضمارها وأَتْقن فُنونَها، فلا يوجد له نظيرٌ في مشرق الأرض ومغربِها في الإحاطةِ بِأُصولِها وأقوالِ أئمَّتِها. وبِحَقٍّ: إنَّه اِبنُ حَجَر هذا العصر مِنْ غير مُنازِع ولا مُخالِفٍ. وتآليفُه شاهدةٌ بِهذا لِمن قَرأها وسَبَر غورَها مع التَّضلُّعِ واليَدِ الطُّولَى في علوم الدِّراية كالأصول وغير ذلك.

وقد وصل إلى درجة الاجتهاد والاستنباط ونَبْذِ التقليدِ في كلِّ ما يُتقِنه مِنْ كلِّ العلوم، وله إستِنباطاتٌ عجيبةٌ وإستخراجاتٌ للمسائل في الأحكام مِنْ أدلة الكِتاب والسُّنة لم يُسبَق إليها مِنْ أحدٍ قَبله. وله المصنَّفاتُ الجيّدةُ الكثيرةُ، والتآليفُ العجيبةُ الدَّالةُ على اِطِّلاعِه وتبحُّرِه وإتقانِه لِعلوم السُّنة والحديثِ، وهي تزيد على المِئَتيْنِ. وقد قرأتُ الكثيرَ منها ولله الحمدُ، وإنتفعتُ بها.

وقد قدَّمتُ في هذا الكتاب بعضَ أسماء ما قرأتُه منها، وقدَّمتُ أيضاً أَنَّ كتابَ "فَتْح المَلِكِ العلِيِّ" مِنَ الكتب التي فهمتُ بها عِلمَ الحديث وفتحَتْ لي أبوابَ مسائلِهِ العويصة؛ على أَنَّ كُتبَه كلَّها كانت لي كالمفتاح لِفَهْمِ هذا العلم. فتوصلتُ بسببها إلى إتقانِ كثيرٍ مِنْ مسائل علم الحديث الشريف، ووقفتُ بواسطتِها على نُكَت وفوائد يَعزُّ وجودُها في غيرها، ولا يمكن الحصولُ عليها إلَّا بعد مطالعةٍ كثيرةٍ وبحثٍ عظيمٍ.

كما اِنتفعتُ بِمذاكراتِه في المجالِس. وهو الذي لقَّبَنِي بِجَمالِ الدِّينِ وكَنَّانِي بِأَبِي اليُسْرِ. فقد كتب إليَّ مِنْ مُعْتقَلِه بِالعَذِير يقول: "**ولمَّا كانت الكُنَى والألقاب لازِمَةً لِلمُحدِّثين، فإنِّي لقَّبتُكَ جَمالَ الدِّين، وكنَّيتُكَ أَبا اَلْيُسْرِ**".

سمعتُ منه صحيحَ البخاري كلَّه مِنْ لفظِه مرتيْن، وفي الثانية بلغ السماعُ فيها إلى ما يقرب مِنَ المُجلدِ الأول، وسمعتُ مِنْه مِنْ لفظِه نحو ثُلثَي صحيح مُسْلِم.

وقرأتُ عليه بِقراءتي وهو يَسمع، الأحاديثَ الأُولَى مِنَ الصحيحيْنِ، وسُنَنِ أَبِي دَاود،

والتِّرمذي، والنسائي، وابنِ ماجَه، والدَّارِمي، ومُوطإِ مالِكٍ مِنْ روايةِ يَحيَى بن يَحيَى اللَّيْثِي ومُحمدِ بنِ الحسنِ الشَّيْباني، ومُسندِ الإمامِ أَبِي حَنيفةَ، ومُسندِ الإمام الشافِعِي مِنْ رواية الربيع بنِ سليمان المرادي بِجمْعِ أَبِي العَباسِ أَحْمَدَ بنِ يَعقُوب الأَصَم، وسُننِه أيضاً مِنْ رواية إسماعيل بنِ يَحيَى المُزني، ومسندِ الإمامِ أحمد، وكتابِ الآثار لِمُحمدِ بنِ الحَسَنِ، وسُننِ الدَّارَقُطنِي، ومُستخرَجِ أَبِي نُعَيمٍ على صحيح مسلم، وسننِ أَبِي مُسلِمٍ الكسجي، وسننِ سعيدِ بنِ منصور، ومصَنَّفِ اِبنِ أَبِي شَيبةَ، وشرْحِ السُّنة لِلبَغَوي والمصابيح له، ومسندِ الطَّيالِسِي، ومسندِ عَبدِ بنِ حُمَيْد، ومسندِ الحارِثِ بنِ أَبِي أُسامَة، ومسندِ البَزَّار، ومسندِ أَبِي يَعْلَى ومُعجمِه، والزهدِ لِابنِ المُبارَكِ، ونوادرِ الأُصول لِلحكِيمِ الترمذي، والدُّعاء للطبراني، واِقْتضاء العِلم العَمَل لِلخَطِيب، وتاريخِ يَحيَى بنِ مَعين، ومُصنَّفِ عبدِ الرَّزاق، والسُّننِ الصغرى والكبرى كِلاهما لِلبَيْهَقي، ودلائلِ النبوة له.

ومستخرجِ أَبِي عَوانَة على صحيح مسلِم، وصحيحِ اِبنِ حِبَّان، والمُستدرك لِلحاكِم، وصحيحِ اِبنِ خُزيْمَة، وصحيحِ الإسماعِيلي، وعملِ اليوم والليلة لِابنِ السُّنِّي، والحِلْيَةِ لِأَبِي نُعَيم، وتاريخِ اِبنِ عَساكِر، والشِّفا لِلقاضِي عِياض، والفَرَجِ بعدَ الشِّدة لِابنِ أَبِي الدُّنْيا، والذُّرية الطاهرة لِلدُّولابِي، ومِشكاةِ الأنوار للشيخ الأكبر رضي الله عنه؛ وأجازني بِباقِيها مشافهةً وكتابةً.

وسمعتُ منه الحديثَ المُسلْسَلَ بِالأَوَّلِيَةِ الحقِيقِيَةِ بالجامِعِ الأعظم بِطَنْجَة في شهر رمضان سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف. وأجاز لي بجميع مروياتِه عن شيوخه المِصريين والشامِيين والحِجازيين، والهِنديين، والمغاربة مِنْ تُونسيين ومُراكشيين، الذين يَبلغ عددُهم مائة وأربعين أو أكثر. وأسانيدُهم مذكورةٌ في ثَبَتِه اللطيفِ المسمَّى ''المُعجَم الوَجِيزَ''. وكتب لي إجازتَه بِخطِّه، قال فيها:

''حَمْداً لِمَن خصَّ أصحابَ الحديثِ الحافِظِين لِدِينِه القويمِ بِعُلوِّ الإسنادِ، ورَفَع قَدرَهُم في القديمِ والحديثِ وخصوصاً يوم المَعادِ، وجعلهم خلفاءَ رسولِه فكانوا مَلجأً لِكافَّةِ العِباد. وصلاةً كاملةً شاملةً لِفضائل الصَّلواتِ بجميع الأعدادِ، وسلاماً يَفوق كلَّ سلامٍ متَّصِلاً مُسلسلاً إلى يومِ التَّنادِ على منبعِ الكَمالاتِ وبحرِ فُيوضاتِ الإمدادِ سيدِنا وسندِنا محمدٍ أَفْصحِ مَنْ نطق بِالضَّادِ، وعلى آلِه وأصحابِه الذين بلَّغوا عنه ما سمعُوا، وبَلَغوا الغايةَ في الإرشاد. أما بعدُ:

فلمَّا كان الإسنادُ قَدره جليلٌ وفضلُه أَظْهر مِنْ أَنْ يُقام عليه دليلٌ، إذ مِثلُ مَنْ يَطلبُ الحديثَ بِلا سندٍ كمِثلِ حاطِبِ ليلٍ، ولِذا ضرب العلماءُ الأجلَّةُ لِأَجلِهِ آباطَ الإبلِ جيلاً بعد جيلٍ. وكان شقيقي العلّامةُ المحدِّثُ الرَّاوِيَةُ، المؤلِّفُ البحَّاثةُ النَّفَّاعةُ سَيِّدي عبدُ العَزيزِ مِمَّنْ رمَى في هذا الفنِّ بالسهمِ المُصِيبِ، فَنال منه أعظمَ حظٍّ وأوفرَ نصيبٍ، وطلب مني أَنْ أُجيزَ له روايةَ ما قرأتُه أو سمعتُه أو أُجِزْتُ به مِنْ كُتب السنة المشرفة، بعدما سمع مني صحيحَ البخاري بكامِلِه مرةً، وبعضَهُ مرةً، وسمع مِنِّي أيضاً النِّصفَ مِنْ صحيحِ مُسلِم، وأوائلَ العَجْلُونِي وغيرَها مِنْ كُتب السُّنة، والعلوم والفوائد المتعلِّقةِ بها. فأجبتُه إلى ما سأل وقلتُ: إنِّي أجزتُ له أَنْ يَروي عنِّي سائرَ مروياتي بالقراءة والسماع والإجازة، كما أجاز لِي ذلك أشياخي البالِغ عددهم فوق المائة، وهم مذكورون بأسانيدهم ورواياتهم عن شيوخهم في مشيخَتِي المتضمِّنة نُصوص إجازاتِهم، مما يَجبُ عليه إذا أَحبَّ اتِّصال الأسانيد أَنْ يَنسخَ منها أصلاً لنفسه. كما أَنَّ بعضَ أسانيدي مذكورٌ في بعضِ مؤلَّفاتي كإرشادِ المُرْبِعين، وفَتْح المَلكِ العَلِيِّ، وغيرهما مِما أجزتُه بجميعه أيضاً إجازةً عامةً مطلَقَةً. وأجزتُ له أَنْ يُجيزَ عنِّي لِمن يريدُ الرواية عنِّي مباشرةً رغبةً في عُلوِّ الإسناد، وذلك ما دمتُ في قيدِ الحياة.

وأُوصِيه بالعمل بالكتاب والسُّنةِ والوقوفِ معهما أصولاً وفروعاً، ونبْذِ التقليدِ وعدم الالتفاتِ إليه وإلى أهلِه قديماً وحديثاً. وأسألُه أَنْ لا ينساني مِنْ صالِح دعواتِه وأَنْ يكونَ مِنْ أهل الإنصاف في العِلم والاعترافِ بالحقِّ لأهلِه. وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ وعلَى آله وصحبِه وسلَّم. وحَرَّره بِقلمِه الفقيرُ أحمدُ بنُ الصدِّيقِ، في ثالِثِ وعِشْرِي ربيع الثاني مِنْ سنة تِسْع وسِتِّينَ وثلاثمائة وألف'' اهـ

ووصفنِي في غير موضعٍ بالمحدِّثِ العلّامةِ النابغةِ. وذكرني في خطبة كِتابه ''العِقْد الثمين في الكلام على حديثِ: إنَّ الله يَبغضُ الحَبْرَ السَّمينَ'' بِقولِه بعد كلامٍ: ''لَمَّا شرع شقيقِي المحدِّثُ النابغةُ السيد عبدُ العزيز في كِتابةِ جزئِه الذي سمَّاه 'قَطْعُ الوَتِينِ مِمَّن يُحبُّ السِّمَنَ ويَغْبط السَّمين'..'' إلخ.

وقد ترجم شقيقي أَبُو الفَيْضِ لِنفسِه ترجمةً واسعةً في ''سُبْحة العَقِيق بِذِكْرِ مناقب سيدي محمدِ بنِ الصدِّيق''، ثم أفردَ لِذِكر أخباره وأحواله كتاباً سمَّاه ''العِقد الفاخِر''، فليُطلب تفصيل أخباره منهما.

ومِنَ المِنَنِ التي طوقنِي بها أَنَّه لَمَّا رحل إلى مِصْرَ والشامِ إستجاز لي شيوخاً رَوَى عنهم بعضُ شيوخِه، وصِرتُ معهم مِنْ حيث الروايةُ عن هؤلاء الشيوخ في طبقةٍ واحدةٍ. وهذا أعزُّ ما يَظفر به المحدِّثُ. وذلك الفضل مِنَ الله.

وهو الآن بعيدٌ عن طَنْجَة، معتَقلٌ بمدينةِ آزمُّور. وقد تبلبل لذلك فِكري وتشوش ذِهنِي وتغيَّر خاطري. وعندما وقع إعتقالُه بَقيتُ مدةً مِنَ الزمن وأنا لا أدري مِنْ أُموري شيئاً. ولَحِقنِي ذهولٌ ونسيانٌ لأحوالي لِعِظَم الخَطْبِ وفداحةِ الأمرِ. ولله الأَمرُ مِنَ قَبلُ ومِنْ بعد.

والسببُ في ذلك أَنَّه عَزَّ عليه ما يُذيقُه الإسبانُ للمسلمين مِنَ العذاب والتَّنكيلِ، فأراد أَنْ ينتقم مِنَ العدوِّ ويأخذ ثأرَ إخوانِه وبَنِي عُمومَتِه، الذين ضُربوا وجُلِدوا بالسِّياط، وإنْتُهِبت أموالُهم وإنْتُهِكتْ حُرماتُهم. فإتَّفق مع جماعةٍ على أَنْ يُعطِيهم السِّلاحَ ويَخرجوا لِقِتال العدوِّ المشترك. وأنفَقَ على ذلك مالاً عظيماً.

فلمَّا خرج المُقاتِلون، تَبدَّل لهم الرأيُ وظهر لهم غير ما أَظْهروه أولاً مِنَ الحزمِ والشجاعة والعزم على العمل، فتفرقوا بعد إجتماعِهم وخارت عزيمتُهم بعد رَباطة جأْشِهم، وجَبُنوا بعد الشجاعة، فألقوا سلاحَهم في الغاباتِ والأوديةِ ثم عادوا راجعين مِنْ حيث خَرجوا، معتذرين بِشتَّى الأعذار، وكلٌّ منهم يُلقي تَبِعةَ رجوعه على صاحبه. فلما رأَى أخِي مِنْ هذه الجماعة ما رأى أَضْربَ عنها صفحاً، وسعَى في إخراج جماعةٍ أخرى زعموا أنهم لن يكونوا كالسابقِين. فلمَّا خرجتْ لم يكن نصيبُها أحسن مِنَ الأُولَى مِنَ الخور والجُبن والخوف، بل زادت على الأُولَى أنَّ بعضَهم إستسلم للعدوِّ لعنه الله، فأخذه بشيءٍ مِنَ الشِّدة فحكَى له أسراره ومَنْ دعاه إلى حَمْلِ السلاح، وبذلك كانت الطامة الفادحة. فإنَّ العدوَّ بِدوره إتَّصل بحكومة طَنْجَة الدولية وعرَّفها بتصريحاتٍ وإعترافاتِ المقبوض عليهم مُنَدِّداً بِها، ومُوعِزاً إليها خروج السلاح على عِلمٍ منها وتغافُلٍ، وطلب منها تسليمَ صاحبِ الحركة، وكان كلُّ هذا مصحوباً بالتهديد.

فقامت الحكومة الدولية بِطَنجة على إثر هذا التهديد إتِّقاءً للشرِّ ودفْعاً للتهمة عن نفِسها، على ساقِ الجدِّ والاجتهاد في التحقيق في القضيَّةِ، وأَظْهر رجالُ البوليس فيها إخلاصاً ما بَعده إخلاص، لا سِيَما مَنْ يَزعم منهم أَنَّه مُسْلِمٌ ـ قبَّحهم الله ـ. فأَلْقَوا القبضَ على جماعةٍ مِنَ الناس، وصاروا يُذيقونَهم سوءَ العذاب لِيعتَرفوا بِما إعترف به المقبوضُ عليهم في أرض العدوِّ. وكان

لِلبوليس المنسوبين لِلإسلام، المدَّعِينَ للوطنِية، غَرضٌ في هذا الاعتراف لِيُحَقِّقوا التهمةَ وتَعظُم العقوبة ـ لعنة الله عليهم ـ، فمن إعترف منهم ألقوه في السجن، ومَنْ لم يعترف أخذوه بالضرب والإهانة والإذاية في نفسِه وجسمه.

فلما تمَّ لهم البحث مع هؤلاء الناس، وصار الأمرُ متوقِّفاً على رئيس الحركة الذي جرى ذِكْرُهُ على أَلْسِنة كثيرٍ مِنَ المقبوض عليهم وطلب العدوُّ تسليمَه إليه وهو أَخِي أَبُو الفَيْضِ، لم يستطيعوا أَنْ يَقبضوا عليه في المنزل كسائر الناس، ولا أَنْ يتعرضوا له في الطريق لِعِلْمهم بِما يَنْجُم عن ذلك مِنْ فِتنةٍ عظيمةٍ قد تكون سبباً في هلاك الأرواح. ففكَّروا ودبَّروا مكيدةً توصَّلوا إليها بسبب بعض البُلْهِ الأغبياء، وذلك أَنَّهم بعدما بَحثوا في المنزل عن شيءٍ مِنَ السلاح كما هي العادة، وقد سلكوا أثناء البحث كلَّ ما يُمكِنُهم أَنْ يَسلكوه مِنَ الأدب والكياسة والمروءة. كلُّ ذلك لِيَتَوصَّلوا به إلى القبض على أخِي، لأنهم يعلمون أنهم مهما أَظْهروا شيئاً مِنَ العنف والقوة فإِنَّ ذلك يُفسِدُ عليهم خُطَّتهم المُدبَّرة ومكيدتَهم المُبيَّتة في شأن الاعتقال. فإنصرفوا مِنَ البحث وهم لا يُظهِرون شيئاً يدلُّ على سوء طويَّتِهم، ولكنهم قالوا: نَرجو أَنْ يأتي إلينا الشَّريفُ لِمركز البوليس للمفاهمة لا غير. وقالوا هذا القول وهم يعلمون أَنَّه غيرُ مُجْدٍ ولا نافعٍ، فلا بدَّ مِنْ شيءٍ آخر مع هذا القول يُتمِّم لَهم الأمر ويُزيِّن المكيدةَ، وذلك الشيء المُتمِّم لِهذه المكيدة هو ذلك الأبلهُ الغبيُّ الذي لعبوا به وما دَرَى ذلك، ونالوا به وَطَرهُم وهو في غفلةٍ عمَّا هنالك.

فجاء هذا الأبله إلى أخي وقال له: لا مانِعَ مِنَ النزول، وزيَّنه له. فإمتثل أخي كلامَه لِمَا كان عنده مِنَ الثِّقةِ وحُسنِ النِّية. فَنَزل معه إلى مكتب البولِيس وكان ذلك آخر خرجةٍ لأخي مِنْ منزِله. فإِنَّه لَمَّا ذهب إلى مركز البوليس وسألوه عن القضية، وأعطاهم ما عنده مِنَ المعلومات، وإستمرَّ البحثُ معه نحو أربعَ ساعاتٍ، أَعلموه بأنَّه لا يُسمح له بالخروج وأَنَّه معتقَلٌ إلى أَنْ يُبثَّ الحكمُ في القضية. فوجد أخي نَفسَه أمام الواقع وأَنَّه محوطٌ بالبوليس مِنْ كلِّ جانبٍ قد حِيلَ بينه وبين كلِّ مَنْ يريد الاتصالَ به. وفي تلك الليلة أردتُ الاتِّصالَ به فلم يَسمحوا لي، وكان ذلك يوم السبت فاتح جمادى الأولى سنة تِسع وستِّين وثلاثمائة وألف.

ومِمَّا يَجدر ذِكْرُه هنا، أَنَّه لَمَّا كان أخِي نازلاً مع ذلك الأبله، أردتُ أَنْ أقولَ له أخشَى أَنْ يكونَ شأنُ هذا الرجل مِثل (المْعَلِّمْ عُمَر)، ثم أحجمتُ وتركتُ، وقد صدقَتْ فِراستِي، وكان شأنُه كشأن (المْعلِّمْ عُمَر). ولا تَعلم سِرَّ هذا التمثيل إِلَّا بِذِكْرِ قِصة (المعلِّمْ عُمَر)، وذِكْرها

يَطول. وقد ذكرتُها في « السفينة « فراجِعْها، ففيها عِظةٌ وعبرةٌ لِمن اِعتبر.

وقد بات أخي ليلةَ الأحدِ الثاني مِنْ جمادى الأولى في مركز البوليس، وفي الصباح اِنتقل وهو مُحاطٌ بِقوةٍ مِنَ البوليس إلى محلٍّ خارج المدينة يُعرف بِعَزَرِيتُو. فمكث فيه أيضاً يوماً أو يومين ثم دخل لِمحلٍّ آخر قريبٍ مِنَ المدينة يُعرف بِبَنِي مَكَادَة، وهو محلٌّ فيه مركزٌ للبوليس ومُعسكرٌ للقواتِ المحافِظة على الأمن في الفَحْصِ. ومكث فيه مدَّةً طويلةً إلى أَنْ صدر الحكم في القضية مِنَ المحكمة المختلِطَةِ، وقد حكمَتْ على أخي أَبِي الفَيْضِ بِثلاثِ سنواتٍ ونِصف سِجناً، وغرامةً قَدْرها خمسون ألف فرنْكٍ. وبعد صدور الحكم عليه اِنْتقل إلى المُعتقَلِ الذي بين مدينَتَي آزُمُّور والجَدِيدَة المُسمَّى بِالعَذِير. ومكث فيه ما يَقرب مِنْ ثمانية أشهرٍ ثم اِنتقل بعد ذلك إلى دارٍ خاصَّةٍ في مدينة آزُمُّور نفسِها. ولازال فيها إلى الآن، أعنِي سنة إحدَى وسبعين هو وأهلُه.

وقد وجد في الاعتقال راحةً مِمَّا كان فيه مِنْ عناءٍ وتعبٍ مِنْ أجل مقابلة الناس والنظر في شؤونهم، وغيرِ ذلك مِنْ مسائل الحياة. فاِنْصرف إلى المطالعة والكتابة، وطالع في هذه المدَّةِ عدَّةَ مُجلَّداتٍ ولازال يُطالع ويُؤلِّف. وألَّفَ كُتباً لطيفةً نفيسةً كالتفسير الذي سمَّاه ''الإِقْلِيد في تنزيلِ كِتابِ الله تعالى على أهل التَّقليدِ''، وهو غريبٌ مفيدٌ لم يُسبَقْ إليه، وجاء في مجلَّدٍ. وغيرَهُ مِنَ التآليف التي جاوزت العِشرين.

فعَلَى الرغم مِن اِعتقاله وبُعْدِه عن داره، فقد يسَّر الله له فيه إخراجَ هذه التحف اللطيفة، والفوائد المُنِيفة. وكل يومٍ أُكاتِبه مِنْ طَنْجَة ويُكاتِبني، ولم يَنقطع بيننا الاتِّصالُ ولله الحمدُ. وقد زُرتُه مرَّاتٍ كثيرةٍ، وكلُّ مرَّةٍ أذهبُ في الطائرة لِتعذُّرِ المُرور في البرِّ مِنْ أجل مراقبة العدوِّ لعنه الله ودمَّره.

فهذا ملَّخصُ قصةِ سببِ اِعْتقال صاحِبِ الترجمة التي كانت عليَّ كالصاعقة والدَّاهية الساحقة، واِنصرفتُ بسببها عن التأليف والمطالعة مدةً مِنَ الزمن، ولازِلتُ في شيءٍ مِنْ ذلك حيثُ لم يَمُنَّ اللهُ تعالى عليه بالفكاك والخلاص والرجوع إلى الدار، وإِنْ كان الأمرُ والحمد لله لا يَدعُو إلى القلَقِ الذي كان يُخالج النفسَ أوَّلَ القضيةِ.

وقد علَّمتنِي هذه القضية أموراً كثيرةً كنتُ عنها غافلاً، وأظهرتْ لي أسراراً عجيبةً وكشفتْ لي عن أخلاق الرجال وأحوال الناس كشفاً ما كُنتُ أُدركه بعد سِنينَ مِنَ المخالَطَةِ والمعاشرة. والحوادثُ نافعةٌ مِنْ هذه الناحية، ولا يَظهر الطَّيِّبُ مِنَ الخبيثِ إلَّا بِصُروفِ الدَّهرِ وتقلُّباتِ الزمان،

وإلَى اللهِ تُرجَعُ الأُمور. ولو فَصَّلتُ تاريخَ هذه القضيَّةِ وما ظهَر مِنْ عجائب وما حدث بسببِها مِنَ الغرائب، لرأيتَ العجَبَ العُجابَ ولكتبتُ ما يَبلغ مجلَّداً، ولكِنْ فيما أشرتُ إليه كفاية والعِبرةُ حاصِلَةٌ بِما قَصصْتُ عليكَ. فلنكتف بذلك الآن، ولعلَّ أبَا الفيض شرح حالَها في كِتابِه ''العِقد الفاخِر''. واللهُ أعلَم.

٢ ـ **أَحمدُ رافِع الطَّهْطاوِي**، العلَّامةُ الأديبُ، صاحبُ الثَّبتِ المسمَّى ''إرشاد المستفيد إلى بيانِ وتحرير الأسانيد''. وقد مكث في تحريره ما يَقرب مِنْ عشرين سنَةً، ولذلك جاء غايةً في النَّفاسةِ والجودة، كذا أخبرني مَنْ وقف عليه مِنْ أهل الفنّ. وقد وجدتُ إجازتَه لي مقرونةً بإجازةٍ للشَّقيقِ أَبِي الفَيْضِ. ولـمَّا دخلتُ إلى مِصْرَ وجدتُه اِنتقل إلى رحمة الله، وكانت وفاتُه في سنة خمسٍ وخمسين. واللهُ أعلم.

٣ ـ **أحمدُ بنُ محمدِ بنِ محمدٍ الدلبشاني، المَوصلِي المِصري**، الضَّرير، أَبُو الفُتوح، الفقيهُ الحنَفِي رحمه الله. اِستجازه لي شقيقي أبو الفيض يوم الخميس الحادي عشر مِنْ رمضان سنة اِثنين وأربعين وثلاثمائة وألف. ولَمَّا رحلتُ إلى القاهرة سنةَ خمسٍ وخمسين أدركتُه على قيد الحياة، لكنه ملازمٌ بيته لِمرضٍ أقعده، ولم أتمكَّن مِنَ الاجتماع به. وكان مِنْ هيئة كبار العلماء في الأزهر، وهو يَرْوي عن أَبِي المَحَاسِن القَاوقْجِي بِما في أثباتِه، وعن الشيخ أحمدَ بنِ مَحجوبٍ الفَيُّومِي الرِّفاعي، عن الشيخ إبراهيم السَّقّا بأسانيده المعروفة.

٤ ـ **خَلِيل بنُ بدْرِ بنِ مصطَفَى بنِ خَلِيل الخالِدي المَقدِسيّ**، الرَّحّالةُ، الحنفيُّ، قاض القُضاة بالدِّيار الفلسطينية، أبُو الضِّياء. اِجتمعتُ به في القاهرة أيام إقامته بها، وبها كانت وفاتُه عن سنّ عاليةٍ. تولىَّ القضاءَ ببلاد فلسطين ودِيارِ بَكْرٍ، وغيرها مِنْ بلاد العجم. ورحل وجال في البلاد شرقِها وغربِها. وكان له اِطِّلاعٌ واسعٌ على الكتب وخِبرةٌ تامَّةٌ بمكتباتِ البلاد التي دخلها، وهو الذي أرشد دارَ الكتب المصرية إلى طبع ''تفسير القرُطبِي''. ولم يكن له باعٌ في العلم، وتعدُّدٌ اِجتماعيٌّ به. وكان جميلَ الخطِّ، ومع كونِه ثَرِيّاً ذا مالٍ فقد كان ضنِيناً بِما يَملك للغاية، لا يَجود منه بقليلٍ ولا كثيرٍ. وأقام بالقاهرة مدةً مِنْ غير أَنْ يتزوج أو يتخذ خادماً يَخدمه حتى مات، ولم يَعلم أحدٌ بِموتِه إلَّا بعد مدَّةٍ ولم يَحضر جنازتَه أحدٌ مِنْ معارفِه لعدم عِلمهم بِوفاتِه، ولكونه لم يكن يُوصِلُ أحداً إلى منزله رحمه الله.

وكان لا يشتري شيئاً صغيراً أو كبيراً إِلَّا بصيغةِ الإيجابِ والقَبول، ولا يكتفي بِما جَرى به العُرف مِنْ دلالة القرائن على ذلك ولو لم يَحصل التلفظُ، في أشياء أخرى شاهدتُها منه في بَيعِه وشرائه تدلُّ على تديُّنِه. أجاز لي بما له مِنْ مروياتٍ عن الشيوخ، وكتب لي إجازةً بخطِّه، وهو يروي عن محمد أسعد المقدسيّ، وعن الشيخ عبدِ الرحمن الشِّربيني الشافعي شيخِ الجامع الأزهر، وعن محمدِ ابنِ عبدِ الرحمن الرُّومي.

٥ ـ **عبدُ الباقِي بنُ مُلَّا عليِّ بنِ محمدِ بنِ مُلَّا مُعين بنِ مُلَّا مُبين، الأنصاري، اللَّكْنوي ثمَّ المَدَنِي**، الحنَفِي، صاحبُ ''الإسْعاد بِالإسناد''، و''نَشْر الغَوالي مِنَ الأسانيد العَوالي''. كتب إليَّ بالإجازة مِنَ المدينة المنورة ومعها كِتابه: ''نَشْر الغوالي مِنَ الأسانيد العوالي'' في شهر ذِي الحِجَّة سنة ١٣٦٣هـ، وشيوخه مذكورون في الكِتابيْن المذكوريْن.

٦ ـ **عبدُ الحيِّ بنُ عبدِ الكَبيرِ بنِ محمدٍ الحَسَني، الإدريسي، الكِتَّانِي الفاسِي.** صاحبُ ''فهرس الفهارس'' وغيره. اِجتمعتُ به في داره بِفاس مرتين، الأُولى في سنة خمسين أو إحدى وخمسين، والثانية في شهر رجب سنة ١٣٦٧هـ. وتذاكرتُ معه في مسائل شتَّى، وله خِبرةٌ بالرِّجالِ المتأخِّرين ومعرفةٌ بِمروياتِهم. وهو رجلٌ غريبٌ في شكلِه وأحوالِه، يَميلُ إلى العَظمة وأُبَّهةِ الملوك، وشَرْحُ ذلك يَستدعِي طولاً.

وأخبرني في هذه المرة الأخيرة أنَّه تَرك الكِتابةَ ولم يَعد له ميلٌ إليها، وهمُّه اليوم كله في الاشتغال بالسياسة. رحل وحجَّ وجال، ودخل مِصْرَ والشام والجزائر وتونس، وغيرها مِنَ البلاد. وقابل الشيوخَ وكاتَبَ أصحابَ الرِّوايات مِنَ الهند، واليمن، وبلاد العَجَم، وجَمع الكُتُبَ. غير أنَّه كان يَكذِبُ، فقد رأيتُ في ترجمة عبدِ القادرِ شَلَبِي الشَّامِي، الطرابلسي، ثم المَدَنِي الحنَفِي رحمه الله، مِنْ مشيخة أَبِي الفَيْضِ، أنَّه ذكر له عن صاحِبِ ''فهرس الفهارس'' أنَّه كَذَب فِيما اِدَّعاه في ''فهرس الفهارس'' مِنْ روايتِه عن الشيخِ حَبِيبِ الرَّحمنِ الهِنْدي، لِأنَّه كان في أواخر عمره ملازماً له وخصيصاً لِخِدمتِه وكِتابةِ كلِّ ما يَصدر عنه مِنْ إجازاتٍ وفَتاوى وغيرِ ذلك، وأنَّه لم يكتب لِعبدِ الحيِّ إجازةً، وإنَّما كَتبها لِأَخِيهِ مُحمدِ بنِ عبدِ الكَبيرِ.اهـ. فاللهُ أعلمُ بحقيقة الأمرِ.

وحَكَى لي مِثلُ هذه الحكاية عن هذا الشيخِ، حُسامُ الدِّينِ المَقْدِسي، الكُتبِي بِمِصر، فإنَّه لَمَّا حجَّ واِجتمع معه حكَى له هذه القصة أيضاً.

أجاز لي بطلبٍ مِنْ وليِّ نعمتِي والدي قدَّس الله سرَّه لَـمَّا قَـدِم علينا في طَنْجة. وشيوخه مذكورون في كِتابه ''فهرس الفهارس والأثبات ومُعجَمُ المَعاجِم والمَشيَخات والمُسلسلات''. ولَـمَّا زُرتُـه بِفاس سنة ١٣٦٧ طلبتُه منه فأَرسلَه إليَّ. وهو كِتابٌ مفيدٌ في بابه، جامعٌ في موضوعِه، يقع في مجلَّدين، وهـو أَنْـفعُ مؤلَّفاتِـه.

وقد أخبرني العلَّامةُ محمدُ زاهدُ الكَوْثَـري الحنَفِي أَنَّه رأَى عبدَ الحيِّ يَذكر بعضَ كلامِه في تراجِم الرِّجال في تعليقِه على ذُيولِ تَذكِرةِ الحُفَّاظِ بالحرف الواحد مِنْ غير أَنْ يَعْزُوَهُ إليه، بل يَنْسِبه إِلَى نفسِه، قال لي: ومع ذلك فالكِتابُ فيه فائدةٌ. اهـ

وهو مع هذا يَحتوي على بعض الأغلاط، كما رأيتُ الإشارةَ إلى ذلك في خِطابٍ للعلَّامةِ أَحمد رافِع الطهْطاوي لِلشَّقيقِ أَبِي الفَيْضِ. والله أعلم.

٧ ـ **عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ الصِّدِّيقِ**، شقِيقِي أَبُو المَجْدِ، العلَّامةُ المُطَّلعُ المُحدِّثُ، له معرفةٌ ودرايةٌ بالعلوم العقليةِ، وعِنايةٌ بِعِلم الحديث والسُّنَّة. قرأتُ عليه ''جَمْع الجَوامِع'' بِشَرحِ الجلال المَحَلِّي، وشيئاً مِنْ ''ألفية العِراقي'' بِشَرْحِ المُصنِّفِ بالجامِع الأزهر. وسمعتُ منه مُسلسل عاشوراء بِحقِّ سماعِه مِنَ الشَّقِيقِ أَبِي الفَيضِ، وإلى الآن لم أحصل منه على روايةٍ عامةٍ عنه. وله تآليفُ مفيدةٌ في مواضيع مختلفة، وقرأتُ كثيراً مِنْ كُتبِه.

٨ ـ **عبدُ الله بنُ محمدِ غازِي، الهِندي، ثمَّ المَكِّيِّ**، صاحبُ ''تاريخ مكَّة'' والثَّبتِ، وغير ذلك. أرسل إليَّ إجازتَه العامة مِنْ مكَّة المكرمة بواسطة الوجِيه مُحمد نصيف، ونصُّها:

((الحمدُ لله ربِّ العالمين. والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أمَّا بعدُ: فإنَّ العالِمَ الفاضلَ المحترمَ الشيخَ محمد نصيف طلب مِنَ العبدِ المُفتقِرِ إلى رحمةِ مولاه عبد الله غازي الإجازةَ في روايةِ الحديث وغيره مِنَ العلوم، لِلعلَّامةِ الفاضِلِ والفَهَّامَةِ الكامِلِ، السيدِ عبدِ العزيزِ بنِ محمدِ بنِ الصِّدِّيق الغُماري. وإِنِّي وإِنْ لم أكن أهلاً لذلك، ولكن لَزم علَيَّ اِمتثالُ أمرِهِ، فأقول: أجزتُ العالمَ النبيلَ والفاضلَ الجليلَ الحسيبَ، السيدَ عبدَ العزيزِ بنَ محمدِ بنِ الصِّديق الغُماري إجازةً عامةً في جميعِ ما يَجُوزُ لي روايتُه مِنْ منقولٍ ومعقولٍ، وأُصولٍ وفُروعٍ، كما أجازني بذلك مشايِخي الأَعلام..)) ثم ذَكَر بعضَ شيوخِه. وله شيوخٌ كثيرون ذَكَرهم في ثَبتِه، وكان ذلك سنة ١٣٦٢. ولـمَّا رحل شقِيقِي أَبُو الفيض إلى الحجِّ سنة ١٣٦٨ وجده قد اِنتقل إلى رحمةِ الله.

٩ ـ **عليٌّ بن الخوجة الحَنفِي التُّونُسِيُّ**، مُفتِي الحنَفية بها، قدِمَ القاهرة في طريقه إلى تُونُس بعد أداء فريضة الحجّ. فاجتمعتُ به في دار الكُتب المِصرية يومَ السبت السابع والعشرين مِنْ ذِي الحِجَّة سنة ١٣٦٢. وأجاز لي بالرواية عنه، ووعدني بإرسال إجازةٍ يَذكُر فيها شيوخَه عند رجوعِه إلى بلدِه، فلَمْ يَفعل. ولم يتيسَّر لي الاتصال به في رحلتي إلى تونس سنة ١٣٦٧ .

١٠ ـ **عمرُ بنُ حَمْدان بنِ عُمرَ بنِ حَمدان المحرسي، التُّونسيُّ ثم المدنِيُّ**. العلَّامةُ المالكيُّ الأثريُّ الصُّوفيُّ. أجاز لي بالنيابة عنه شقيقي أبو الفيض، فإنَّه أَذِنَ له في أَنْ يُجيزَ نيابةً عنه كلَّ مَنْ أَحبَّ الرواية عنه. وشيوخُه مذكورون في ''المعجم الوجيز'' لأَبِي الفيض.

١١ ـ **مُحسنُ بَانَاصِر بَاحَربه، أَبُو الثَّناءِ الحَضْرَمي، البيبَرْسِي**، الفقيهُ الشافعي رحمه الله. اِجتمعتُ به في القاهرة عام قُدومِي إليها. وسمعتُ منه المسلسل بالأولية، وأجاز لي سائرَ مروياتِه كما أجاز له السيد عَيْدَرُوس بنُ عُمر الحبشي، صاحبُ ''عِقْد اليواقِيتِ الجوهرية'' بكلِّ ما فيه.

١٢ ـ **محمدُ بنُ إبراهيمَ الببلاوي، الصوفيُّ**، الشريفُ الحسني. اِجتمعتُ به في داره بالقاهرة كثيرا. وهو ذُو حظٍّ مِنْ علمٍ، وله ولوعٌ بِعِلم الفلسفة خاصةً، يَبحث فيه ويقرأ كُتبَه، ويَعتنِي برسالة ''الزوراء'' لِلجَلال الدَّواني.

وكُنَّا نقضي معه في بيتِه بعضَ الليالي مِنْ شهر رمضان في المذاكرة والبحث في مسائلَ شتَّى، وأخلاقُه حسنةٌ، وله ميلٌ إلى التصوف. وقد جرت بينِي وبينه مذاكرةٌ في شأن قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُوتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خيراً كَثيراً** ﴾. وذلك أنَّه اِستدلَّ به في مجلسه على مدْحِ الفلسفة التي سمَّوها حِكمةً كذباً وزوراً. فقلتُ له: الحكمة المذكورة في الآية الشريفة هي السُّنَّةُ لاغير. وذَكرتُ له حينئذٍ دليلَ ذلك مِنَ الكتاب العزيز نفسِه، وبيَّنتُ له عدم جواز إطلاق الآية على هذه العلوم التي يزعم أهلُها أنها علومُ الحِكمة، وهي علوم الضَّلال والحيرةِ والفتنة والظُّلمةِ.

أجاز لي بِمروياتِه، وليس له إلَّا شيخٌ واحدٌ وهو شيخُ الإسلام أَبُو الحَسنِ علِيُّ الببلاوي عن محمدِ اِبنِ أحمدَ عليش، عن الأمير الصغير، عن والده الأمير الكبير. وكان ذلك يوم السبت ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣٦٢.

١٣ ـ **محمدُ زاهِدُ بنُ الحَسَنِ بنِ علِيٍّ الكَوْثَري، القُوقاسِيُّ، الحَنَفيُّ**، وكيلُ المشيخةِ العثمانية سابقاً. اِجتمعتُ به في القاهرة كثيراً، وتذاكرتُ معه في مسائل كثيرةٍ، وهو على اِطِّلاعٍ

واسعٍ ودرايةٍ تامةٍ بأحوال الرجالِ وقضايا التاريخ، وله خِبرةٌ بأقوال الفِرَقِ والنِّحَل ومذاهب المِلَلِ. ومعه تواضعٌ ومَحبةٌ لأهل البيت. وإذا زُرتُه في بيتِه وحضر وقتُ الصلاة كان يُقَدِّمني للصلاة ولايُحبُّ أَن يتقدمَ هو مع إمتناعي الشديدِ عن التقدم.

وله معرفةٌ بِعِلْمِ الفقه وأصوله، إِلَّا أنَّه شديدُ التَّعصب لِمذهبِه حتَّى صار يَفقِد صوابَه، ويَفوه بِما لا يُعقل وَلَا يُقْبل في حقِّ مَنْ خالف مذهبَه أو رامَ إنتقادَه. وبسبب ذلك قَلَّ الانتفاعُ بكُتبِه وأبحاثِه لأهل الإنصاف ومُحبِّي معرفة الحقائق، لأنَّها لا تَخرج عن دائرة الدِّفاع عن مذهبِه والذود عنه بحقٍّ أو باطلٍ. وقد أشرف الآن على السبعين، وطاف وجال، وكَتب وألَّف. ومؤلَّفاتُه وأبحاثُه خاصة في مذهب أَبي حنيفة، حتى صار يقال عنه بِحقٍّ: حامِي حِمَى مذهب أبي حنيفة.

ولو ألَّف وكَتب في غير هذا لأفاد جدًّا، لأنَّه ذو اِطِّلاعٍ واسعٍ وخبرةٍ بِعلومٍ كثيرةٍ، أصلح اللهُ حالَه. سمعتُ منه المسلسلَ بالأولية بمنزله بِالعَبَّاسية بالقاهرة، ودعاءَ الفَرَجِ المسلسلَ بقولهم: وأَخْرَجه مِنْ جيبِه. وناولنِي ثَبتَه المسمَّى « التحرير الوجيز فيما يبتغِيه المستجيز »، وقرأتُ عليه بلفظي وأجاز لي بِما فيه. وكان ذلك في ليلة الجمعة ٢٧ مِنْ ربيع النبوي سنة ١٣٦٢.

١٤ ـ **محمدُ الخَضِرُ بنُ الحسينِ، التُّونُسِيُّ، ثم المِصريُّ**، الأديبُ اللغويُّ. اِجتمعتُ به في القاهرة مراتٍ، وهو على بصيرةٍ مِنْ علوم الأدب ولاسيما اللغة. أجاز لي بِمروياتِه عن شيوخه، وقد ذكرتُهم في ''المشيخة''.

١٥ ـ **محمدُ راغِب الطَّباخ الحلَبِيُّ**، صاحبُ « تاريخ حلَب »، و''الأنوار الجليَّة''وغير ذلك. كتب إِليَّ بالإجازة مِنْ مدينة حَلَب في شهر شوال سنة ١٣٦٣. وشيوخه مذكورون في ثبته ''الأنوار الجلية''. وتوفي في أواخر رمضان سنة سبعين وثلاثمائة وألف، عن ثمانٍ وسبعين سنة.

١٦ ـ **محمد سعيد بن أحمد الفرا الدِّمشقِيُّ**، الفقيه الحنفي، شمسُ الدِّين أبو عبدالله. اِستجازه لي شقيقي أبو الفيض جزاه الله خيراً. وشيوخه ذكرتُهم في ''المشيخة''. توفي في بيروت سنة ١٣٤٥. وهو مِنْ شيوخ محمدِ بنِ جعفرَ الكِتَّاني رحمه الله.

١٧ ـ **محمدُ بنُ أَبِي المَحاسِنِ بنِ خَليلِ اِبنِ إبراهيمَ بنِ محمدِ بنِ عليٍّ القصيباتي، القاوقجي، الطَّرابلسي، ثم المِصري**، الشريف المَشِيشيُّ. اِستجازه لي شقيقي أَبُو الفيض يوم الخميس عشرين جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين، وشيوخه مذكورون في مشيختي. توفي سنة خمس

وأربعين وثلاثمائة وألف .

١٨ ـ **محمدُ بنُ عبدِ اللطيفِ خضير الدّمْياطِيُّ**، الضريرُ. أرسل إليَّ بالإجازة كتابةً مِنْ ثغر دمْياطَ في شهر رجب سنة ١٣٦٢. وقد ذكر شيوخه فيها، كما أجاز لي بالطريقة القادرية والرِّفاعية. وبعدما أرسل لي الإجازة صار يُكاتِبني، وكتب إليَّ مرةً يسألنِي عن حديث: « **خَيْرُ النِّساءِ مَنْ بَكَّرَتْ بِبِنْتٍ** »، فأجبتُه عنه بجوابٍ مطولٍ.

١٩ ـ **محمدُ بنُ يوسفَ البيْبانيُّ، الدِّمشقِيُّ**، بدرُ الدِّينِ، أَبو التاج، شيخُ الإسلام بالديار الشامية، الفقيه الشافعي. اِستجازه لي شقيقي أبو الفيض في رحلته إلى الشام، فكَتَبَ لي إجازةً ذكر فيها شيوخَه.

٢٠ ـ **يُوسفُ بنُ إسماعيلَ النَّبْهانِي**، بُوصيريُ عَصْرِهِ، صاحبُ المؤلَّفات الكثيرة، والمنظومات الشهيرة. أروي عنه بالإجازة العامة لِمَنْ أدرك حياتَه كما في ثَبتِه المسمَّى: "هادِي المُرِيدِ إلى طُرق الأسانِيد"، فقد قال في آخر هذا الثَّبت بعد أَنْ ذكر قولَ العلماء في جواز العمل بالإجازة العامة لِمن أدرك عصرَ الراوي: ((وقد رأيتُ اِستناداً لِمَا ذُكِر، أَنْ أُجيزَ بِجميعِ مروياتي ومؤلفاتي كلَّ مَنْ شاء هذه الإجازة مِنْ أهل عصري إجازةً معلَّقةً على قبوله ومشيئته)) اهـ. وأنا قد أدركتُ عصر النبهاني رحمه الله وكان سِنِّي عند وفاته أكثر مِنْ اِثني عشر عاماً، وتوفي سنة خمسين أو إحدى وخمسين، وشيوخُه مذكورون في ثبتِه المذكور.

فصل

عزمه على وضع معجم لشيوخه

فهذا ما أحببتُ ذِكْرَه هنا مِن الشيوخ، ولازال عندي البعضُ الآخرُ سأجمعهم في معجمٍ خاصٍ بهم. ولم ألتفت إلى الرواية إلَّا بعد أَنْ مكثتُ في مِصْرَ مدَّةً مِنَ السنين؛ مع أَنِّي لَمَّا دخلتُ إليها وجدتُ بها جماعةً مِمَّن لهم رواية عالية على قيد الحياة، ولم آخذ عنهم لعدم توجُّهي إلى هذا الفنّ. فلما بدأتُ في الاشتغال به والاعتناء بعلومه وفنونه، كان أولئك الشيوخ قد اِنتقلوا إلى الدار الآخرة. وما حصل لي ووَقَع عندي مِنَ المرويات يكفي والحمدُ لله. لأنَّ الغرضَ مِنْ ذلك كلِّه الآن هو التبركُ بِبقاءِ سلسلة الإسناد، ورَبْطِ الرِّوايةِ بمن تقدَّم مِنَ الأمجاد، وقد نِلْنا تلك الفضيلة

الشريفة، وأسعَدَنا الحظُّ بالدخول في أهل تلك الزُّمرة المنيفةِ.

فصل

البدء في ذكر نسبه الطيني

بِما تقدَّم في هذه الفصول اللطيفة، ظهر لك شَرفِي الرُّوحي، ولنذكر في هذا الفصل الشَّرفَ الطِّينِي والفخرَ المعدني، لِنَجمعَ بين الشَّرفيْن ونُظْهرَ الفَخرَين، ويَتِمَّ الشكرُ بالتحدث بالنِّعمتيْنِ؛ وذلك بِذِكر نُبذةٍ مِنْ أحوال والدي ووالدتي وما خصَّهما اللهُ به مِنَ الفضائل، وشَرَّفهما به مِنْ حُسْنِ الشمائل مع بيان نسبِهما الشريف وحَسَبِهما المُنيفِ. والحمدُ لله على فضلِه ومِنَّتِه لا رَبَّ غيرُه.

وقد أَلَّف في ترجمة الوالد رضي الله عنه جماعةٌ مِنْ أهل العلم، وأَجْمعُ ما كُتِب في ذلك، كِتاب شقِيقِي أَبِي الفيض المسمَّى: ''سُبْحَة العَقِيقِ بِذِكْرِ مناقِبِ الشيخ سيِّدِي محمدِ بنِ الصِّدِّيق''، وهو في مجلدٍ ضخمٍ، جمَع فأوعَى ولم يترك صغيرةً ولا كبيرةً إِلَّا أحصاها. وفيه فوائدُ علميةٌ كثيرةٌ، واختصره في مجلدٍ لطيفٍ سمَّاه ''التَّصوُّر والتَّصْديق''. ويلِيه في كِبَرِ الحجم، كِتابُ الفقير المنتسِبِ أحدِ مَنْ ظهر إلى الوجود بِفضلِ صُحْبَةِ الوالِدِ رضي الله عنه، العَرْبِي بنِ العَرْبِي بُوعَيّاد، وسمّاه: ''نَسَمات وادِي العقِيق'' .

ولِلأخِ الأديبِ أَبِي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ الأزرقِ الفاسِيِّ، ثم الزياتي، كتاب في ذلك سمَّاه: ''حادِي الرَّفيق''. وللفقيه المفتِي المؤرخِ أَبِي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ العَيَّاشِي سْكِيرِجْ الأندلسِيُّ، ثم الفاسيُّ: ''نُبْذةُ التَّحقِيقِ''. ولم أقِفْ إِلَّا على كتاب أبي الفيض ومختصرِه، وكتابِ بُوعَيَّاد. وسألخِّصُ ما أذكره هنا مِنْ كتاب أَبِي الفيض ''التَّصوُّر والتَّصْدِيق''. والحمدُ لله ربِّ العالمين.

ترجمة والدي رضي الله عنه

هو محمدُ بنُ الصِّدِّيقِ بنِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ قاسِم بنِ محمدِ بنِ محمدِ (مرتين) بنِ عبدِ المؤمنِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ المؤمنِ بنِ عليّ بنِ الحسنِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أحمدَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عيسى بنِ سعيدِ بنِ مسعودِ بنِ الفُضَيل بنِ عليّ بنِ عُمَرَ بنِ العَربي بنِ علّال بنِ موسى بنِ أحمدَ بنِ داودَ بنِ إدريسَ بنِ إدريسَ بنِ عبدِ اللهِ الكامِلِ بنِ الحسنِ المُثَنَّى بنِ الحسنِ السِّبْطِ بنِ عليٍّ وفاطمةَ الزهراء بنتِ مولانا وسيدِنا وسندِنا ووسيلتِنا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم. هذا هو النسب المعروف الشائع بين عائلتِنا والموجود بأيديهم في بعض التقاييد القديمة.

ولادتُه رضي الله عنه: ولد ليلةَ الجمعة خامس رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف، بِتُجْكان مِنْ قبيلةِ بْنِي منْصور الغمارية. وحفظ القرآن وهو صغير برواية ورشٍ، ثم شرع في حِفْظه بالرواياتِ السبعِ فقرأ ختمةً برواية المَكِّي على شقيقِه سيدي أحمد رحمه الله.

طلَبُهُ لِلعِلم: وبعد فراغه مِنْ حِفظ القرآن، شرع في طلَبِ العلم بِبلده على أخيه العلّامةِ البارِعِ صاحِبِ الأخلاق الحسنةِ سيدي محمدِ القاضِي، وعلَى اِبنِ عمّه العلّامةِ المُحقِّقِ زَيْنِ العابِدين بنِ محمدِ المُؤذن، فأخذ عنهما بعضَ المبادِيء.

رحلتُه لِلطَّلب: وبعد هذا، رحل به والدُه إلى فاس سنة اِثنتي عشرة وثلاثمائة وألف. وأَنْزلَه بمدرسةِ الشَّرَّاطِين. ولم يذهب به إلى زاويةِ أصحاب أبِيهِ لينقطع لِلعِلم ولايَشغله الفقراءُ عن طلبِه.

فابتدأ يَقرأ الأَجْرومِيَّةَ بِشرْحِ السُّوداني على أَبِي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ التِّهامِي كَنُّون، وبعضَ الكُتب الصغيرة على غيره.

وحضر على شيخِ الجماعة الإمامِ الصُّوفِي أَبِي العَبَّاسِ سيدِي أحمدَ بنِ الخَيَّاط، في الخُلاصةِ بِشرْحِ المَكودِي، وصحيح البخاري بِشرحِ القَسْطَلاني، والشمائل بِشرحِ جُسُّوس، والهَمْزِيَة، والمُرشد المُعِين.

وعلَى العلّامة الصالِحِ سيدي الفاطْمِي الشرَّادِي في المختصَرِ، والخلاصة بِتوضيح اِبنِ هِشام والمَكُودي معاً، وفي مختصَرِ السَّعْدِ على التلخيص، وتحفة الحُكَّام لِابنِ عاصِمٍ إلَّا أَنَّه لم يَحضر مِنْ هذه إلا القليل.

وعلَى العلّامة محمد بنّانِي إمامِ جامِعِ الدِّيوان، في المختَصَرِ والخُلاصة. وعلى العلّامة محمد جْنِيونْ (بالتصغير) في المختصر بِشرحِ الدّرْدِير، وفي المُطَول بحواشيه، وفي صحيح البخاري وشفاء القاضي عِياض. وعلى وَلِيّ اللهِ صاحبِ الأحوالِ أَبِي العَلاءِ إدْرِيس عَمُّور أوائل الخُلاصة والسُّلَّم في المنطق.

وعلَى الشريف أحمد العَلَمِي الأَربعين النَّووية، وأوائل رسالة العَضُد، ورَجَز ابنِ كِيران في الاستعارة. وعلَى العلّامة النَّحوي خليل الحشمي المعروف بِسِيبَوَيه الخُلاصة لِابنِ مالِكٍ، قراءة بحثٍ وتحقيقٍ.

وعلَى العلّامةِ الجليل الصوفي الوجيه السيد الكامِلِ الأَمْرانِي مختصر خليل، مجرَّداً عن الشروح، بل كان يقرِّر المتن ويحله مع بعض أبحاثٍ رائقةٍ.

وعلَى العلّامة محمدِ بنِ التُّهامِي كُنُّون كتاب الجمل للمجراد، وقطعة كبيرة مِنَ الخلاصة، وأوائل الشمائل بِشرحِه هو أعنِي كُنون، وقطعة مِنَ الهمزية، وجملة كبيرة مِنَ المختصر بِشرحِ الخُرْشِي.

وعلَى الولِيّ الصالحِ سيدي عبدِ الملكِ العَلَوِي الضَّرير، مختصر خليل بِالخُرْشِي، مِنْ أولّه إلى الوقت المختار، وقطعة مِنْ شرْحِ السنوسية، ومبحث الفصاحة والبلاغة مِنْ شرْحِ التَّلخيص. وعلى الفقيهِ المفتِي سيدي المهدِي الوزّانِي أبواباً مِنَ الخُلاصة، وعلَى الفقيه أحمدَ بنِ الجيلاني لامِيَةَ الأفعال وقليلاً مِنَ التَّصريح للأزهري.

وعلَى العالِمِ الجليلِ أحمدَ بنِ الطَّيِّبِ الفِلالي، لامِيَةَ الأفعال أيضاً. وعلَى العلّامةِ الشريفِ سيدي المَامُونِ العِراقِي الخُلاصة. وعلَى الشيخِ الإمامِ العلّامةِ المحدِّثِ الصُّوفِيّ أَبِي عبدِ الله محمدِ بنِ جعفرَ الكِتّاني، مختصرَ خليلٍ، قراءةَ بحثٍ وتدقيقٍ بشرحي الخُرْشِي والزُّرقاني معاً، وسمع عليه المُوَطَّأَ وبعضَ صحيحِ مسلمٍ، وقرأ عليه أيضاً جُلَّ الخُلاصة بِشرْحِ المكُودِي، ومقدّمة جَمْعِ الجَوَامِع لِابْنِ السُّبْكِي.

سُلوكُه لِطريقِ القَوْمِ: وفي هذه الأثناءِ حصل له مرضٌ ألزمه الفِراشَ، فبينما هو ذات يومٍ في بيتِه مِنَ المدرسة، إذْ دخل عليه الشيخُ الإمامُ العارِفُ القدوةُ، بقيَّةُ السلفِ الصالِحِ، القطبُ الربَّانيُّ سيدي محمدُ بنُ إبراهيمَ رضي الله عنه ونفعنِي به، فقال له: "أنا بِفاس وأنتَ وحدَك

بالمدرسة، هذا لايُمكِن. قُمْ مَعِي ''. فأخذه إلى الزاوية، وبَرَّ به وأكرمه غايةً، وأتاه بكلِّ ما يحتاجه مِنْ كتبٍ وملابسَ، وصار يَخدمُه بنفسه. وكلَّف الفقراءَ أصحابَه بِخدمتِه أيضاً ومراعاتِه.

ثم صار يَكتبُ له المُتون في لوحٍ، ويقول له:'' إنْ حَفِظتَه أَعْطيتُك رُبْعَ ريالٍ ''. فكان كلما حفِظ لوحاً أعطاه إياه تحريضاً له على حِفْظِ المتون. ثم لقَّنَه الوِرْدَ وجرَّده لِسلوك الطريق مع طلَبِ العِلم. فكان يرتضع لِبَانَ الثَّدييْنِ في آنٍ واحدٍ.

وقرأ معه أيضاً ''الحِكَم'' لِابنِ عَطاءِ الله، و ''العُهود المحمَّدية'' و ''المِنَن الكبرى'' للشَّعراني، ورسائل جَدِّهِ سيدي الحاج أحمدَ بنِ عبدِ المؤمِن، و''التَّنْوير'' لِابنِ عَطاءِ الله.

وكان إذا مرَّ بشيءٍ صعبٍ شديد سلوكه، يقول له: '' مُرَّ علَى هذا، فقد اِنقضَى زمانُه''. يريد بذلك التيسير عليه والإشارة إلى أنَّ فتْحَه سيكون مِنْ بابِ الفتحِ والمِنَّةِ لا مِنْ باب السلوك والمجاهَدة.

وكان يَرْفَقُ به غايةً، فلا يُكلِّفه بِما يُكلِّف به غيره مِنَ الفقراء، فكان يُوقِظهم جميعهم قبل صلاة الفجر بنحو ساعتين، ويتركه نائِماً إلى قُبيل الفجر بقليلٍ. حتى كان بعضُ الفقراء يَغار مِنه، فكان الشيخُ يقول لهم: ''اِبنُ الصِّدِّيق مِنَ المَحبُوبِينَ عندَ اللهِ تعالى ''. وأمره بالحضور على علماء القرويين، وعيَّن له مَنْ يَقرأ عليهم لِصلاحِهم و بركةِ عِلْمِهم.

ثم لَـمَّا كانت الزاويةُ بعيدةً عن القرويين، صار يصوم أيام القراءة حتَّى لا يَرجع وسط النهار إلى الزاوية لِتناول الطعام. وأمره الشيخُ أَنْ يَذكُر اللهَ جهْراً في شوارع فاس إذا نزل لِلدُّروس بعد أَنْ وضع السُّبْحَةَ في عُنقِه. فثَقُل عليه ذلك الأمر غايةً حتى كان يتمنَّى الموت، وكان يُخيَّلُ إليه أَنَّ حِيطانَ فاس تَنظر إليه وتَسخرُ مِنه ومِنْ صوتِه. ولم يأمره شيخُه بِشيءٍ أَثْقَل على نفسِه ولا أشد عليها مِنَ الذِّكر جهراً بالطريق، لاسيما مع صغر سِنِّه وطلبِه للعلم.

فاِستمر على ذلك نحو ثلاث سنين، جمع اللهُ له فيها بين الحصول على علم الظاهر والفتح في علم الباطن، ولم يحتَجْ بعدَها إلى شيءٍ وصار أعلَمَ أهل عصره ومِصْرِهِ.

وفي ربيع الثاني مِنْ سنة خمس عشرة، رجع إلى وطنِه، ثم عاد إلى فاسَ، فلَزِمَ شيخَه بالزاوية إلى سنة ثمانِ عشرة.

عودتُه إلى وطنِه وزواجُه: وفي سنة ثمان عشرة رجع إلى وطنِه، وعزم والدُه على تزويجِه ببلِده، فإختار هو أنْ يأخذ بنتَ خالِه الشريفِ البَرَكَةِ الصَّالحِ الذَّاكرِ النَّاسِكِ سيدي عبدِ الحفيظِ بنِ عجِيبة، بإشارةٍ مِنْ شيخِه. وكان خالُه يَسكن مدينةَ طنجةَ، فَقَصده لذلك الغَرضِ فأجابه، وشَرَط عليه السُّكنَى بطنجة. فكان ذلك هو السبب في سكناها، فتزوج بها وإستوطنها.

قراءتُه ونَشْرُه للعلم بطنجة: ولَمَّا إستوطن طنجةَ، شَرَعَ في تدريس العِلم بها. فقرأ الشَّمائل التِّرمِذِية، ثمَّ الأَجْرومِيَّة ثمَّ ألفية اِبنِ مالِكٍ بِشَرحِ المَكُودِي، ثمَّ بعدَ خَتْمِها اِفْتَتَحها مرةً أخرى بِشرحي اِبنِ هشامٍ والمَكُودي معاً. وقرأ لَامِيَةَ الأفعال والسُّلَّمَ لِلْأَخْضري بِشَرح بِنَّاني، وهمزية البوصيري، والمرشد المُعِين، ومختصرَ خَلِيلٍ بِشَرح الخَرْشِي.

ثمَّ اِشتهر أمرُه، وصار الطَّلبةُ يلجأون إليه ويُلِحُّون عليه، فَساعَدَهم. وفَتَح مرةً ''صحيح البخاري'' فأَتَى في قراءته له بِما بَهَر عُقولَ العامة والخاصة. وكانت مجالسُ دروسِه كلها تأخذ بالألباب لِكثرةِ ما يُبْرِزُ فيها مِنَ العلوم.

قال في ''نُبْذَة التَّحقِيق'' : ''وكان إذا أَنْعَمَ بِدرسٍ أو تَهيَّأَ لِموعظةٍ أو خُطبةٍ، اِزدحم الناسُ على محلَّاتِ القرب مِنه، وغَصَّت المحافِلُ بِهم'' إلى آخر ما قال.

وقال العبَّادِي فِيما جَمَعه مِنْ أخبار الشيخِ في وصفِ دُروسِه: ''كان القارىءُ يَسْرد الخرْشِي بعدما كان الشيخُ يأتي بكلامِه، وتقريرِ جميعِ ما عند الأجَاهِرةِ وبنَّاني والرهُوني، تقريراً لو كان أصحابُ تلك الكُتب أحياءً لَإسْتفادوا مِنْ كلامهم مالم يقصدوه مِنَ الفوائد زيادةً على ما قصدوه'' .

وقرأ فرائضَ المختَصَر على حِدة، وشرع في التفسير فقرأ نِصفَ الفاتحة في شهر رمضان، ثمَّ لم يتيسر له العود إليه بسبب اِنْقطاعه في البيت. وقرأ التفسير بعد ذلك على طريق إشارة الصُّوفِية مع الفقراء بِتفسير جَدِّه لِلأُمِّ سيدي أحمدَ بنِ عَجِيبة رضي الله عنه.

وبسبب هذه الدروس التي طار خبرُها في الآفاق وصارت الأَلْسِنةُ تَلْهجُ بها في البيوت والمجتمعات، تعرَّفَ إليه جمْعٌ مِنَ الأفاضل، فكانوا يُجالِسونه كثيراً ويَسمعون مِنْ فوائده ومُذاكرتِه في العِلم، والطَّريقِ، وأخبارِ الأولياء والشيوخ. فإشتاقتْ نفوسُهم للأخذ عنه، فلَقَّنَهم وِرْدَ الطريقةِ الشَّاذلية. ثمَّ صاروا يَجتمعون عليه وَهُم نفرٌ قليلٌ.

وكان أكثرُ اِجتماعِهِم بِدُكَّانِ الرجل الصَّالح سيدي محمد اَلْجَزِيرِي رحمه الله، وكان يَصنعُ الأحذيةَ. ثمَّ لَمَّا كَثُروا صار يَعقدُ معهم مجالِسَ الذِّكْرِ صباحاً ومساءً بِزاوية العارفِ بِالله سيدي محمد الحَرَّاق بِطنجة، وذلك أواخر سنة اِثنتين وعِشرين.

اِشتِهارُ أمرِهِ ونَشرُهُ لِلطَّرِيقِ: قال في ''النَّسَمات'': وعند دخول سنة ثلاث وعِشرين، فاضت أسرارُه وظهرتْ أنوارُه، وأشرقَتْ على الحواضر والبوادي شُموسُه وأقمارُه، وكُسِيَتِ البلدُ بظهوره حُلَّةَ الأُنس والفرح كما لَبِسَت عند موته ثوبَ البؤسِ والحزنِ والتَّرَحِ.

فتَوارَدَ الناسُ لِأَخْذِ الطريقِ عنه رجالاً ونساءً، وانْجذبت القُلوبُ إلى الله بِهِمَّتِه، وارتفعتْ هِممُ مَن سبقَتْ لهم العنايةُ عن حَضِيضِ الكون وخِسَّتِه، وصار جُلُّ مَنْ في البلد يَلهجُ بِذِكرِ الله، وانقلب حالُه مِنَ الغفلةِ إلى اليقظة وتعلَّقَ قلبُه بالله، وذلك كله غيباً بنفوذ هِمَّتِه وقوةِ حالِه مِنْ غيرِ أَنْ يَدعوَ أحداً لِأَخذِ الطريقِ عنه والانتسابِ إليه.

وفي هذه السَّنةِ أضاف إلى مجلِسِ الذِّكر المذاكرةَ مع الفقراء في مقامات الطريقِ وآدابِ السلوك، وكانت على ما يكون مِنَ الأُبَّهَةِ والأدبِ، والسكينةِ والوقارِ، والخشوع وفيضانِ الأنوار، حتَّى كَأَنَّ الفقراءَ الحاضرين على رؤوسهم الطير مِنْ قوة حالِه وعظيمِ هيبتِهِ وطِيبِ أنفاسِه.

وقرأ مع الفقراء رسائلَ جَدِّه القُطبِ سيدي الحاج أحمدَ بنِ عبدِ المؤمِنِ، ثمَّ رسائلَ شيخِه القطبِ الأكبرِ مولاي اَلْعَرْبِي اَلدِّرْقاوِي، مرَّتيْنِ، بِمذاكراتِه النافعة وإشاراتِه الجامعة، ثمَّ ''العُهود المحمَّدية'' لِلعارف الشَّعْراني، ثمَّ ''المَباحِث الأصلِيَة'' لِابْنِ اَلْبَنَّا بِشرْحِ اِبنِ عَجيبة، ثمَّ ''الحِكَم العَطائِيَة'' بِشرْحِه أيضاً، وأعادَها بِشرْحِ اِبنِ عَبَّاد، ثمَّ جُملَةً مِنْ تَفسيرِ اِبنِ عَجيبة رضي الله عنه. ''.

بِناؤُه لِزاويتِه بِطنجَةَ: وبعد إقامتِه بالزاوية الحرَّاقيَة نحو أربعةِ أعوامٍ، بنَى زاويتَه الكبيرةَ التي دُفِن بِها، وانتقل إليها.

رِحلتُه لِلحجِّ: وفي سنةِ تِسع وعشرين، توجَّهَ بأهلِه وجماعةٍ مِنْ أصحابِه إلى الحجاز لأداء فريضة الحجِّ؛ ومرَّ بطريقِه على الجزائر فزار بِها ضريحَ وَلِيّ اللهِ تعالى سيِّدي عبدِ الرحمنِ الثَّعالِبِي. ومنها ذهب إلى عَدَن، حيث لَم يُمكِنْه النزول في بُورْسَعِيد، فنزَل بِمَرْسَى عَدَن وأقام بِها تِسعةَ أيَّامٍ.

ثمَّ توجه منها إلى مَصْدع مِنْ بلاد الحَبَشة، فأقام بها ثمانية عشر يوماً، أَكْرَمَه فِيها أعيانُ البلد ووُجهاؤُها غايةَ الإكرام، وكانوا يتردَّدُونَ إليه للزيارة والتَّبركِ، والانتفاعِ بِالمُجالَسةِ والمذاكرةِ. وقَضَى بها عيدَ الفِطْرِ، ثم بَعدَه بأيامٍ توجَّه إلى جَدَّة ومنها إلى مكَّة المكرمة، وكان وصولُه إليها بعد منتصف شوال بقليلٍ.

فأقام بها نحو شهرين كانت كلُّها مواسمَ وأعيادَ عامرةً بأنواع الطاعات والمسرَّاتِ، يَجتمع إليه فُضلاءُ الحَرَمِ وعلماؤُه وشيوخُه، فتَمضِي مجالسُه معهم كأنَّها رياضٌ مُونِقَةٌ يُقتطَفُ منها أزهارُ العلوم والمعارف، وأنوارُ الفوائد واللطائف.

وكان في تلك الأيام يتظاهر بِمزيد العبودية والتواضع، والقناعةِ والتقشفِ، والاقتصادِ في المأكلِ والملبَسِ. ويَحُثُّ الفقراءَ على ذلك ويُحذِّرهم مِنَ التوسع وتناولِ الشهواتِ، ويقول لهم: ''هذه الأماكنُ الشَّريفةُ لايَليقُ بِها إلَّا الذُّلُ والتواضعُ للهِ تعالَى، ومِنْ تَمامِ ذلك التقليلُ مِنَ الشهواتِ، والزهدُ في الملذوذاتِ، إنْ كان المرءُ يريدُ قَبولَ الحجِّ والحصولَ علَى ثَمرتِه، وإلَّا فهو مجرَّدُ فسحةٍ وسياحةٍ ونزهةٍ، بل يَنبغي لِطالِبِ الآخرةِ والرَّاغبِ في رِضَى اللهِ تعالى أَنْ يُنفِقَ ما معه على فقراءِ الحَرميْنِ وأشرافِهما وعلمائِهما، عِوَضاً عمَّا سيُنفِقُه على شهواتِه وأغراضِه''.

وكذلك كان هو رضي الله تعالى عنه، لا هَمَّ له إلَّا التَّصدقُ والمُواساةُ، وصِلةُ العلماء والأشرافِ وأهلِ الخيرِ والصلاحِ. وكان لا يتظاهر بِعِلمٍ ولا مشيخةٍ، ولا ما فِيهِ رائحةُ تَقدُّمٍ وظهورٍ.

ولَمَّا طلب منه أهلُ مكَّةَ أَنْ يُلقِي دُروساً في المسجد الحرام، وأهلُ المدينةِ أَنْ يُلقِيَ دروساً في المسجدِ النَّبويِّ اِمتنع مِنْ ذلك وقال: كلُّ ما يُنْسبُ إلينا مِنَ العِلم والصَّلاحِ تركناه في بلدِنا، وخرجنا منه مُتبرِّئِينَ مِنْ عِلمنا وعَمَلنا، مُفتقِرين إلى الله راجين فَضْلَه وعَطفةَ رسولِه صلى الله عليه وآله وسلم.

وكانت وقفةُ عَرَفَة تلك السنة يومَ الجمعة التي وَرَدَ فضلُ الوقوف بها على سائر الأيام، ولَمَّا كان بِعَرفة وقف في موضِعٍ مَخصوصٍ، وأَخْبر الفقراءَ مِنْ باب الكشف أَنَّه الموضعُ الذي وقف به رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا الموضعُ الذي يقف به الإمامُ ويظنُّ الناسُ أنه موضعُ وقوفِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي أواخر الحِجَّةِ توجَّه إلى المدينة المنوَّرةِ، فهَلَّ عليه هلالُ المحرَّمِ فاتح سنة ثلاثين

قَبل وصولِه إلى المدينة بِمرحلَتَيْنِ. ولَـمَّا بلغ الـمكانَ الذي تَظهر منه قُبَّةُ النبِيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يَمْلِكه حالُه فرفَعَ صوتَه بالصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم، وصار يَسْتشفِعُ بِه إلى الله تعالى أَنْ يَمنحَه كمالَ الأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم ومع جِواره وسُكانِ مدينتِهِ الـمنوَّرةِ. وكان ذلك منه رضي الله عنه بِحالٍ قويّ، فَسَرَى في الحاضرين كلِّهم، فرقَّتْ قلوبُهم وذرفَتْ عيونُهم.

ثم لَـمَّا دخل المدينةَ المنورةَ بادر إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ثم خرج إلى البقِيعِ فلمَّا وصل إليه خلَعَ نَعلَيْهِ، فخلَعَ الناسُ نِعالَهم. فزار مَنْ به مِنْ آلِ البيتِ الأطهارِ والصحابةِ، والفُضلاءِ والأخيار.

ثمَّ رجع وأقام بالمدينة المنورة ثلاثة أشهرٍ، وأَقْبل عليه علماءُ المدينةِ ومَنْ كان بِها مِنْ علماء الأقطار، وفرحوا به وأَجَلُّوه وأَعْظموا منزلتَه الساميةَ في العِلم والحِفظ والاطِّلاع، والتَّبحرِ في سائر الفنون. فكانوا يجتمعون به في أغلب الأوقات وبكلِّ المناسبات، وعَمِلوا له ولائِمَ وعُزُوماتٍ. ثم في أواخر ربيع الأول، غادر المدينةَ مُتوجِّهاً إلى الشَّامِ، وفي اليوم الثاني لِقُدومِه شاع خبرُه بين العلماء والأفاضل، فسارَعُوا إلى زيارتِه والاجتماع به.

ثم بعد مدَّةٍ توجَّه إلى بَيْروت، فاِحتفل به أهلُها وجاءوا لزيارته وفي مقدِّمتهم العلَّامةُ الشهيرُ بُوصيري عَصْرِهِ الشيخُ يُوسف النَّبْهانِي، فَزاره وتبرَّك به.

ثم توجَّه منها إلى القاهرة وأقام بها نحو أربعين يوماً، اِشترى بها كثيراً مِنَ الكُتب، وزار ضواريحَ آلِ البيْتِ والأولياء المشاهير. وشَدَّ الرحلةَ إِلَى طَنطَا لِزيارة القُطْبِ سيِّدي أحمدَ البَدوي رضي الله عنه. وتَعرَّف إليه شيوخُ الأزهر وعلماؤه، وفي مقدِّمتهم عالِمُ الدِّيار المِصرية الشيخُ محمدُ بخِيت رحمه الله، فأحبَّه كثيراً وأجلَّه واِعتقد فضلَه، وصار بعد ذلك يُحِبُّه ويَذكره في المَجالِس والمَحافِل.

قُلتُ: وقد دخلتُ إلى القاهرة بعد زيارته لَها بمدةٍ طويلةٍ، واجتمعتُ مع مَن اِجتمع به مِنْ أفاضِلها وعلمائِها، فوجدتُهم لا يَذكرونه إِلَّا بالثَّناءِ الجميلِ والإطراءِ البالِغِ، حتَّى أَنَّ شيخِي العلَّامة البَحَّاثة الشيخ عبدَ السلامِ غُنَيْم وكان مِمَّن اِجتمع به كان يقول لي غير ما مرةٍ وبِمحضرِ الناس:

''**إنَّني لستُ أقرأُ معك إلَّا لِلتَّبركِ بِكَ، فإنَّ والِدَك رجلٌ عظيمٌ لم تَرَ عيْنِي مِثلَه، ولا اِجتمعتُ بِمَنْ يُشبِهُه في أخلاقِه وفضلِه، ولابُدَّ أَنْ يَلْحَقَكَ مِنْ بَركاتِه ما يُغْنيكَ عن الدَّرسِ. فإنَّ بركةَ الأسلافِ تَعودُ على الخَلَفِ**''. وقال لي هذا مِراراً وفي مجالسَ مختلفةٍ. وقال ذلك غيرُه أيضاً.

وكنتُ ذات يومٍ عنده في داره أَقرأُ الدَّرسَ، فدخل علينا الشيخُ محمدُ عبدِ السلام القَبَّاني أحدُ المُدرِّسين بكلِّية الشريعة، وكان مِمَّن لزم الوالدَ أيامَ إقامتِه في القاهرة في رحلته إليها للمرَّةِ الثانيةِ لِحضور مؤتمر الخِلافة وعَرف فضلَه وعلوَّ منزلتِه، فقال لِشيخي غُنَيم:''**واللهِ لقد فُزتَ بِصحبةِ هذا الشريفِ والتَّبركِ به، فإنَّ والدَه كان عظيماً**''. وصار يَصِفُه، مع أَنَّ هذا الشيخ أعنِي القَبَّاني مِمَّن يُتَّهم بعقيدة الوهَّابية، وعدم الاعتراف بالخصوصية ومزيَّةِ التَّبرك. وقد سمعتُ الثناءَ عليه مِنْ قومٍ لايعرفون للعلم والفضل معنىً، وإنما قالوا ذلك لِما بهرهم مِنْ أمرِهِ رضي الله عنه.

ثم توجَّه راجعاً إلى المغرب مِنْ طريق بُورْسَعِيد فلَمْ يتهيأ له الركوب، فأقام به نحو شهرٍ في اِنتظار وُرُودِ البابُور، وذلك يوم الأربعاء خامِس عشر جمادى الأولى سنة ثلاثين، وفي الشهر الذي بَعْده وصل إلى طَنْجَة.

لُزومُه لِبَيتِه والسببُ في ذلك: لَمَّا رجع مِنَ الحِجاز، وافَقَ رجوعه اِحتلال فرنسا للمغرب وتوقيع المعاهدة بينها وبين السلطان عبدِ الحفيظِ على ذلك، وتنازل هو عن المُلْكِ لأخِيه يُوسف. ثم توجَّه إلى الحِجازِ واِتَّصل في المدينة المنورة بِالشيخِ سيدي محمدِ بنِ جعفرَ الكِتَّاني، وأَظْهر له التوبةَ والإنابةَ والرجوعَ عمَّا كان عليه. فَغَرَّه ذلك منه لِسلامةِ نِيَّتِه، فأَقْبلَ عليه وأكرمه، ثم لَمَّا عزم عبدُ الحفيظِ على الرجوع إلى المغرب طلب مِنَ الشيخِ المذكور أَنْ يُرشِده إلى عالِمٍ يَقتدِي به ويهتدي بِهَدْيِه ويُعوّل في أمور دِينِه عليه. فأَرشَدَه إلى الشيخِ رضي الله عنه، وقال له: ليس بِالمغرب مِثلُه. لاسيما وهو بِطَنْجَة التي اِختار عبدُ الحفيظ الإقامةَ بها.

ثم كَتب الكِتَّاني إلى الشيخِ كتاباً يَطلب فيه منه مقابلَةَ عبدِ الحفيظِ، وإرشادَه إلى ما يريد منه أَنْ يُرشِده إليه. فلمَّا قرأ الشيخُ كِتابَ الكِتَّاني قال: غَرَّه عبدُ الحفيظِ بِظاهِرِ حالِه. ثم كتب جواباً له وعرَّفه بِشرْحِ حالِه وحقيقةِ أمرِه، وأنَّ ما تظاهر به مِنَ التوبةِ والإنابة هو مجردُ صورةٍ لا حقيقة لها.

ثم لـمَّا قدِم عبدُ الحفيظ إلى طنجةَ، أرسل إلى الشيخ يَطلب منه المقابلةَ والاجتماعَ، فامتنع الشيخُ مِنْ ذلك كلَّ الامتناع. فعاد يطلب الاجتماعَ، وكرَّر الرُّسل في الطلب، وطَلَب مِنْ بعضهم أَنْ يُغْرِيَه بالـمال، فأرسل إليه معه أربعةَ آلافِ ريالٍ. فردَّها إليه وصمَّمَ على عدم الاجتماع، فرجع إليه بالـمال فردَّه ووعد بالزيادة، وأمره أَنْ يَسلك معه كلَّ مسلكٍ ويتوسل إليه بكلِّ وسيلةٍ.

فصار الرسولُ يترددُ إلى الشيخِ في شأن المقابلةِ كلَّ يومٍ ويتوسل إليه، والشيخُ مُصِرٌّ على الامتناع. ثم سأل عبدُ الحفيظ بعضَ الواردين عليه مِنْ أهل البلد عمَّن يحترمه الشيخُ ويَستحيِي منه، فأرشده إلى بعض الفقهاء، وكان الشيخ يُحِبُّه ويُجِلُّه، فأرسل إليه وأعطاه أربعةَ آلافِ ريالٍ، وطلب منه أَنْ يتوسَّط له عند الشيخ في الاجتماع به. فجاء إليه ومكث معه مِنَ الضُّحَى إلى الظهر وهو يحاول مِنَ الشيخ المساعدةَ فلَمْ يُجِبه إليها، وقال له: ''لا أجتمع بِمَنْ سلَّم المغرب إلى فرنسا، وقَتَل سيِّدي محمدَ بنَ عبدِ الكَبيرِ الكِتَّاني ظُلماً، ولو فَعل ما فَعل''. ثم تعلَّقَ بغيرهما أيضاً فلَمْ يُفْلِحْ. وهكذا صرفه الله عنه فلم يجتمع به.

ثم بعد هذا بنحو سنةٍ وقعت الحربُ العُظمى، وحصل لِعبدِ الحفيظِ ما أَوْجَب سفره إلى إسبانيا. فلمَّا وصل إليها، اِتَّصل به سفيرُ دولة أَلْمانيا التي كانت في حاجةٍ إلى مَنْ يُثير الحربَ على فرنسا في المغرب، وطَلَبَ منه بصفتِه كان مِلكَ المغرب وقد اِنتُزِعَ المُلكُ مِنْ يده أَنْ يحارب فرنسا لِيعودَ إلى مُلْكِه، وأَنَّ دولتَه مستعدةٌ للمساعدة على ذلك بالـمال والسلاح. فأَظْهَرَ رغبتَه في ذلك، ولم يكن قصدُهُ في الواقِع إلَّا أَنْ يبتزَّ منهم الأموالَ لِيَصرفَها في شهواته، ويُبذِّرَها في ملذَّاتِه، لكنه رأَى أَنَّ ذلك لا يتِمُّ إلا بالشروع في العمل. ولم يَرَ مَنْ يَصلُحُ لذلك ويقوم به إلَّا الشيخ رضي الله عنه.

فأَرسلَ إلى وكيلِه بطنجة وهو عبد الهادي السلاوي، وأمره أَنْ يذهبَ إلى الشيخ ويَصحبَ معه الجزءَ الأخيرَ مِنَ البُخاري، ويتوسل إليه بالنبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وبرجال ذلك الجزءِ في أَنْ يَرضَى عنه ويَقْبل معاملتَه في شأن القيام على فرنسا ومحاربتها، وعرَّفه بأَنَّ دولةَ أَلْمانيا هي التي ستتولَّى المساعدةَ بالـمال والسلاح على ذلك. فأجابه الشيخُ لمَّا علمَ أَنَّ الأمرَ متعلِّقٌ بالدِّينِ، وأَنَّها دعوةٌ واجبٌ تلبيتُها والخوض فيها، إلَّا أنه لعدم تحقُّقِه مِنَ الأمر والنتيجة كلَّف بذلك اِبنَ أخيه الشريفَ سيِّدي الغالِي بنَ أحمدَ بنِ الصدِّيق.

وكان الألمانُ قد اِتَّصلوا أيضاً بعبدِ الملِكِ بنِ الأميرِ عبدِ القادرِ مُحْيِ الدِّين، وطلبوا منه القيامَ أيضاً وأَمدُّوه بالمال ووعدُوه بالسلاح. فاِتَّصل بالشيخ رضي الله عنه وطلب منه المعونةَ والمساعدةَ، فأجابه إلى ذلك، وأمر اِبنَ أخيه أَنْ يذهبَ إليه ويتَّفِقا معاً على الأمر. فاِستمرَّا على ذلك مدَّةً إلى أَنْ هيَّآ شؤونَ الخروج وخَرَجا معاً.

ووقعت لهما قضايا غريبةً، وأُلقِيَ القبضُ عليهما بقبيلة أَنْجَرَةَ. وصارت فرنسا تُرسِل إلى بعض زعماء القبائل الجبليَّةِ وتَعِدُهُ بأموالٍ تطير لها ألبابُ أمثالِه إِنْ هو سلَّم إليها المذكورَيْن. وكتب له الشيخُ بإطلاق سراحِهما، وأرسل إلى بعض أهل القبائل الغمارية فنزلوا وتدخَّلوا في القضيَّةِ، وسلَّم اللهُ أمر الرجلين بعد أَنْ كانا بين مخالب الموتِ. ووصلا إلى بعض قبائل الحدود الفرنسية المغربية وقاما بالدعوة إلى الجهاد، وشَرَعا فيه مدَّةَ الحرب بِتمامها إلى أَنْ وقعت الهُدنةُ. واِستشهد اِبنُ أَخي الشيخِ المذكور.

ولـمَّا شرَعَا في القتال، عزم الشيخُ على السفر مِنْ طَنْجة إلى غمارة. وكان والدُه قد توفِّيَ قبل ذلك بِنحو سنَتَينِ أو ثلاث، وبقيَ أمرُ الميراث بين العائلة الكبيرة موقوفاً على حضوره. فأراد إنهاءَ مسألتِهِ مع النظر في بعض مصالح تلك القبائل، وإمكان اِتِّصالها بمساعدة المحارِبين. فلمَّا علِمَ الفرنسيون بذلك، أرسلوا يطلبون منه التأخرَّ عن السفر لِمناسبة الحالِ الحاضرةِ خوفاً أَنْ يلتحقَ بالمحاربين. فاِمتنع مِنَ التأخر وأصرَّ على السفر، فاِلْتجأوا إلى القوة وفَرَّقوا البوليسَ في ضواحي المدينة، وأحدثوا لهم مواضعَ خاصةً، لم تكن مِنْ قبلُ، جعلوها على جميع الطرق المؤدية إلى جهةِ تِطْوانَ، لكونها طريق غمارة، وعرَّفوا الشيخَ أنَّهم سيستعملون القوةَ إِنْ خرج بغير إِذنِهم. فأَصرَّ على المخالفة لِأَمرهم وتنفيذِ ما أراد. فصار الفقراءُ يشترون السلاح ويُعدُّون العُدَّةَ ليوم خروج الشيخ، حتى يقابلوا البوليس بالقوة إِنْ تعرضوا للشيخ.

فلمَّا رأى الفرنسيُّون تَفاحُشَ الأمرِ، أَرسلوا إليه مِنَ الرِّباطِ عبدَ القادِرِ بن غَبْريط لِيكلِّمه في التأخر عن السفرِ، فلم يَنجع فيه شيءٌ مِنْ ذلك. والحالة كل يومٍ تزداد خطورةً، وصارت تحدث قضايا وحوادث يصطدم فيها الفقراءُ مع البوليس والشُّرَطِ وأعوان الحكومة بِما يطول شرحُه. ثم لـمَّا لم يجدوا بُدًّا مِنْ مساعدته، أرسلوا إليه يقولون: إنَّ أَمْرَك قد رُفِع إلى السلطان ولم يَبق لِحكام طَنْجَة فيه تدَخُّلٌ سِوَى تنفيذ أَمْرِ السلطان.

وأثناء ذلك ورد عليه مكتوبٌ مِنَ الوزير محمد الجَبَّاص يَطلب منه فيه أَنْ يساعد على السكينة وتهدئةِ الحالة، ويقول له: ((.. إنْ كانت لكم أسبابٌ أوجبَتْ عليكم السفرَ مِنْ ذلك الثَّغر المحوطِ فبَيِّنوها لِجَناب المَخْزن بمزيدِ ثِقةٍ وجميلِ اِعتقادٍ، إمَّا رأساً وإمَّا بواسطة النائبِ المَخْزني لِينظر فيها، وتُجابون عنها بِما يُرضيكم ويَسُركم بِحولِ الله. هذا وقد أَبْلَغنا لِجنابِكم المحترم أوامرَ مولانا الشريفة راجين وُرُود جوابكم بما يُحقِّق لمولانا أيَّده الله ما أدَّيْناه في جنابكم مِنَ الشهادة بِما نَعْلَمُه مِنْ صلاح أحوالِكم، وصفاءِ طوِّيتِكم.. إلخ. في عِشري رجب الحرام عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف)).

فأجابه الشيخُ وذكر له أسبابَ سفره التي أشرنا إليها، فوَرَد عليه كتابُ الإِذن بِالسفر. وهم إنَّما فعلوا ذلك ستراً للحالة، لِئلَّا يخرج الشيخ قهراً عنهم، وتَسقط منزلتُهم بين الناس. فسافر الشيخُ إلى غمارة، ومكث بها ثمانيةَ أشهرٍ عالج فيها القضية بعد أَنِ اِجتمعتْ إليه تلك القبائل. وكان زعماؤها يَرِدُون عليه كلَّ يومٍ، فَعَرف أَنَّ الخَرقَ اِتَّسعَ على الراقع، وأَنَّه لا مَردَّ لِقضاء الله. فرجع ونزل معه نحو ألف وستمائة رجلٍ إلى ناحية تِطْوانَ لِيُنهِيَ لهم القضيةَ مع حُكَّامِ الإِسْبان. فقابل المندوبَ السَّامِي وكلَّمه في شأنِ مصالح تلك البلاد.

ثم خرج راجعاً إلى طَنْجَة عن طريق القبيلةِ الأَنْجرِيَّةِ، ولـمَّا كان بها واِجتمع إليه أهلُها، خاف مِنْ ذلك بعضُ مَنْ كان مُتصدِّراً للزَّعامةِ طامعاً في نيْلِ المملكة، فدَسَّ إليه مَنْ يقتله، وهما رجلان مِنْ أهل القبيلة العُرُوسِيَّةِ. فاِفتضحا، وألقَى الفقراءُ القبضَ على أحدهما وهرب الآخر، وأمر الشيخُ بالعفو عن المقبوضِ فأُطلِقَ سراحُه.

ثم دخل الشيخُ إلى طنجة، وبعد الاستراحة شرع في قراءة ''صحيح البخاري''، وصار يتعرض للجهاد والحثِّ عليه، ويَذكر فرنسا فيسبُّها ويَدعو عليها بالهلاك والدَّمار، والحُكامُ حاضِرونَ في دروسه، وكلُّ ما يقوله يَصل إلى الفرنسيِّين بواسطة جواسيسهم، فيحاولون منْعَه مِنْ ذلك فلا يَجدون إليه سبيلا.

ثم كَثُرَ الخلافُ والنزاعُ والمناوشاتُ بين الفقراء أصحابِ الشيخِ وبين الحكومة وأعوانِها، وحصلت قضايا متعددة عارض فيها الفقراءُ إرادةَ فَرنْسا وحُكامِها، فاِنتصروا عليها وكانوا دائماً يُحصِّلون مقصودَهم بِفَواتِ مقصودِ الحكومةِ وإرادتِها.

وكان ينتصر لِفرنسا ويُبالغ في إرضائِها حاكِمُ طَنجة إِذْ ذاكَ، عبدُ السلامِ بنُ عبدِ الصَّادق. فلما طال الأمرُ وكثر الخلافُ، أراد أَنْ يُظهِر النُّصحَ التَّامَ ويُقدِّمَ الخدمةَ الجليلةَ لِيتوصلَ في نظرِهِ إلى مرتبةٍ أَعلَا مِمَّا هو فيه، وكان يطمع في ترقِيَتِه إلى نائبِ السلطان.

فصادف أَنْ وقعت قضيةٌ لبعض الأشرافِ الكِتَّانِيِّين المنتمِينَ إلى الشيخِ رضي الله عنه مع قاضِي طَنْجَة وقتئذٍ الفقيهِ عَلَّال الهَرابْلِي الفاسِي ولَطَمه في محكمتِه، فأَلْقَى الحاكمُ المذكورُ القَبضَ على الشريفِ الكِتَّاني، وتوهَّم أَنَّ الفقراءَ سيتعرَّضون له في شأنِه. فأوحَى إليه ظُلمُه وبُغضُه للشيخ والفقراء أَنْ يُعالِجهم بمكيدةٍ ظنَّ أنها ستنفعه في تشتيت شملِهم، وتُمَكِّن فرنسا مِنْ نفيِهم وتشريدهم.

فأرسل إلى جميع أعيان البلد ولم يغادر منهم أحداً، فلمَّا اِجتمعوا بِمسجدِ القَصَبة القريبِ مِنَ المحكمة، أَخرجَ لهم عريضةً يريد تقديمَها إلى السلطانِ، ضَمَّنَها شكايةَ أهلِ البلد بالشيخ والفقراء، ونسبوا إليهم عدَّةَ مَضراتٍ وإعتداءاتٍ وتشويشاتٍ لِلأمنِ والراحةِ، وطلب مِنَ الجميع أَنْ يوافِقُوا عليها بإِنْزالِ خُطوطِهم في العريضةِ، ووافق في ذلك هوىً في نفوسِهم فكانوا أَطْوَعَ له مِنْ بَنانِه. ثم وجَّه الكتابَ المذكورَ إلى السلطان وبقي في اِنتظار وُرود النتيجة، فلم يَظهر ما يَمُسُّ جانبَ الشيخ والفقراء بكلمةٍ واحدةٍ؛ ولكن ظهرت النتيجةُ في القائد وأهلِ طنجةَ، فعاجَلَهم الله بعقوبتِه وسَلبَهم ما كانوا فيه مِنَ العِزِّ والجاهِ، وسلَّطَ عليهم الذلَّ والمهانةَ، والفقرَ والاضطرارَ والحاجةَ، وسقطوا مِنْ عين الناس ومِنْ عينِ فَرنسا التي أرادوا إرضاءَها بِفِعلتِهم الشنيعةِ.

وأما القائدُ المذكورُ فأوقعه اللهُ في نفس الحفرةِ التي حفرها لِينفِيَ الشيخَ والفقراءَ، فأُخْرِجَ مِنْ بلده ووطنِه عَقِبَ ذلك بقليلٍ، وصار متغرباً في نواحي الدَّارِ البَيْضاء، وخُرِّبتْ أملاكُه بِطَنجةَ، واِنقرض منها ذِكْرُهُ وشُتِّتَ شملُه، وجمع اللهُ شملَ الشيخ والفقراء ولم يُصَبْ أحدٌ منهم بسوءٍ. ولله الأمرُ مِنْ قبل ومِنْ بعد.

قُلتُ: وقد زاده الله فوق ذلك أَنِ اِبتلاه بالفساد بعد كبره وإشرافِه على الهلاك، وصار يَصحب الفاجِراتِ والمُومِساتِ، واِبتُلِيَ أولادُه بِمثل ذلك أيضاً حتَّى أَنَّ أكبرَهم اِختلَّ عقلُه وجُنَّ بسبب الإدمان على الخمر وشُربِه ليل نهار، ومات على ذلك الحال، نعوذ بالله مِنَ السوء. وبلَغَنا أَنَّ الابنَ الآخر بِمِثل هذا الحال، وكفَى نُصرةً على عدوِّك أَنْ تراه مقيماً على معصية الله كما وَرَدَ.

ولـمَّا صدرت هذه الفِعلةُ الشنيعةُ مِنْ أهل طَنْجَة، دخل الشيخُ رضي الله عنه داره ولَـزِمَ بيتَه، وقطع التدريسَ والخروجَ إلى الزَّاوية، وقال: ''كانت علَى ظهرِنَا أَحمالٌ وأثقالٌ لِأَهلِ طَنجة، والآنَ قد أَنزلناها واِسترحنا مِنْ ثِقلِها '' وقال أيضاً: ''كُنَّا نريدُ لأهلِ طَنجة العِزَّ والرِّفعةَ بين الناس فَأَبَوْا إِلَّا الذلَّ والمهانةَ، فليَفْعلُوا ما شَاءوا ''. وبقِيَ في بيتِه مِنْ سنة سبع وثلاثينَ إلى أَنْ توفَّاه اللهُ تعالى سنة أربعٍ وخمسين، ولم يَخرج فيها إِلَّا مراتٍ معدودةٍ.

فهذا ملخص الحوادث التي صادفت الشيخَ عند رجوعه مِنَ الحجِّ، وكانت سبباً في اِعتكافِه ولُزومِه البيتَ رضي الله عنه وعدمِ الخروج منه إِلَّا مراتٍ، والتي منها ذهابُه إلى مِصْرَ لِحضور مؤتمرِ الخِلافةِ.

رِحلتُه إلى مِصْرَ لِحضور مؤتمرِ الخِلافةِ: وفي سنة خمسٍ وأربعين، سافر إلى القاهرة لِحضور مؤتمر الخلافة. إذ اِستدعاه المِصريُّونَ وألحُّوا عليه في الحضور بِمكاتِبَ متعددةٍ. فرأى أَنَّ إجابةَ دعوتِهم واجبةٌ لوجوب نَصْبِ الخليفة؛ وكان يرجو حصول فائدةٍ لِلإسلام مِنْ ذلك الاجتماع. فلمَّا حضر المؤتمرَ، وجد القومَ يلعبون ويمزحون، ووجد المؤتمرَ عبارة عن إلقاء الخُطب، والتَّمشدق بما يُظهر لِكلِّ واحدٍ مزيته في الخطابة والتفصُّحِ، مع ضعف الرأي وعدم التمسك بالشريعة في الأقوال والأعمال. فترك الحضورَ معهم قبل أَنْ ينتهيَ المؤتمرُ وأَقْبل على شأنِه مِنْ زيارة ضواريح أهل الله، وشراءِ الكُتب.

ثم توجَّه إلى الشام لِزيارةِ بيتِ المقْدِسِ وإبراهيمَ الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم مِنه إلى زيارة شيخِه سيدي محمدِ بنِ جعفرَ الكِتَّاني الذي كان وقتئذٍ مقيماً في بَيْروت، عقِبَ خروجِه مِنْ دِمَشق لوجود فِتنةِ الدُّرُوزِ مع فَرنسا. فزاره ثم رجع مِنْ طريقِ البحر إلى الإسكندرية لِزيارة ضريحِ أَبِي العَبَّاسِ المُرْسِي رضي الله عنه. ثم رجع إلى القاهرة وشَدَّ منها الرحلةَ إلى دسُوق لِزيارة سيدي إبراهيمَ الدّسُوقِي، وإلى طَنْطَا لزيارةِ سيدي أحمدَ البَدَوِي رضي الله عنهما.

ثم رجع إلى طنجة بعد أَنْ غاب في هذه السفرة ثلاثةَ أشهرٍ، ولَزِمَ بيتَه أيضاً. فكانت وفودُ الزوار تتوارد عليه مِنْ كلِّ ناحيةٍ كما هي العادة، بل زاد الأمرُ وعظُم بِانْقطاعه عن الخروج. فكان يعمر معهم أوقاتَه بالمذاكرة بأنواع العلوم والمعارف، مع القيام بِحقوق المسلمين، وقضاءِ حوائِجِهم بالتَّوسط والشفاعاتِ عند حُكام الدَّولتيْن الفرنسية والإسبانية، في المنطقتين السُّلطانِيَّة

والخَلِيفِيَّة، وذلك بالمراسلةِ تارةً مع بعضِ أصحابِه وأحياناً بالمكاتَبَة، فتُقضَى المآربُ وتُقبل الشفاعةُ مع شدَّةِ العداوة له مِنَ الجِهتَيْنِ. واللهُ تَعالى غالبٌ على أمرِهِ .

نبذةٌ في وصفِ حالتِه العِلمية: كان رضي الله عنه إماماً في سائر العلوم مُحقِّقاً للمنطوق منها والمفهوم، حافظاً متقِناً، واسِعَ الاطِّلاعِ، مديدَ الباعِ، قويَّ الحُجَّةِ والعارضةِ، فصيحاً فطِناً ذكياً، غايةً في الاستحضار بل آيةً وأعجوبةً مِنْ عجائب الدَّهر فيه؛ لم يكن في علماء عصره بالمغربِ والحِجازِ ومِصْرَ والشامِ مَنْ يُدانيه في ذلك إلَّا سيِّدي محمد بن جعفر الكِتَّاني في تراجِمِ الأولياء ومناقِبِهم خاصةً، والشيخ محمد بَخِيت في مسائِلِ الفقه والمعقول خاصةً.

وأمَّا الشيخُ فكان شأنُه في الاستحضار عجيباً يبهر العقولَ، بحيث كانت مجالِسُه العاديةُ على الدَّوامِ كأنَّها دروسُ كِبار العلماءِ الحُفَّاظِ الذين يَتعبون في جمْعِ ما يُلقون فِيها في الساعاتِ المتعددةِ؛ بل ما رأيتُ درساً جامعاً لغرائب العلوم ونوادر الأخبار ونفائس الفوائد كمَجالِسِه الدائمة مع ضيوفِه وزُواره وأصحابِه، حَضَراً وسفراً، في داره ودارِ غيرِه إذا دُعِيَ لَها، أو خرج لِبستانٍ في فسحةٍ ونزهةٍ.

فإِنَّ مجالسه مع طولها لم يكن يَذكر فيها الدنيا وأخبارَها، ولايتعرض لِزيدٍ ولا عَمرٍو، بل كانت مذاكرةً علميةً. والحاضرون كلُّهم سكوتٌ كأنما على رؤوسهم الطير يستمعون، إلَّا إذا سأل سائلٌ عن مسألةٍ أو إستفهم عنها، وما كان يتعرض لذلك إلَّا القليل مِنْ جُلَّاسه الذين لهم جرأةٌ على الكلام معه.

وكان المرءُ يسمع منه في المجلس الواحد مِنْ غرائب العلوم ونوادر الأخبار والنُّقولِ ما لا يُهتدَى إليه بعد البحث الطويل والاطِّلاع الشديد إلَّا في الأزمنة المتطاولة.

العلومُ التي كان له فِيها التَّضلُّعُ: الفقهُ والأُصولُ، والكلامُ، والتصوفُ والتفسيرُ والحديثُ، والنَّحوُ والصَّرفُ، والمنطِقُ، والتاريخُ والتراجمُ، والطِّبُّ، والأنسابُ، والسياسةُ الشرعِيةُ، وسِرُّ الحَرفِ، وخَواصُّ الأسماء، مع المشاركة القوية في سائر العلوم.

أما الفقهُ، فكان يستحضر جميعَ فروعه الخفيَّةِ والجليَّةِ، لاسيما الفقه المالكي فإِنَّه كان نَصْب عينيه بِعجره وبَجره؛ وقواعد القضاء والدَّعاوى والقوانين التي قنَّنَها المالكِيَّةُ في هذا البابِ.

وأما الأُصولُ، فكان يستحضر جميع مسائله في الخِلاف بين أئمَّتِه، ويَردُّ ويَقْبل ويُرجِّحُ

ويُزيّف منها بِحسب نظره واجتهاده.

زاره مرةً أشهرُ علماءِ فاسَ بِعلِم الأصول، وهو الفقيهُ الفُضيلي، فَذَاكره الشيخُ في مسألةٍ فَظهر عجزُهُ وقُصورهُ أمام الشيخ، واعترف هو بذلك فقال له: ''نحن فقهاءُ الدَّرسِ والكُرَّاسِ، فما دُمْنا في الدرس حَرَّرنا المسألةَ، وإذا قُمنا عنه تركناها ولم يَبقَ معَنا شيءٌ''.

وأما الكلامُ، فكان إليه المنتَهى في تحقيق دلائلِه وبراهينِه، مع الاطِّلاع التامّ على جميع المذاهب والنِّحَلِ والأقوالِ.

وأما التفسيرُ، فكان آيةً فيه. لا يُسأل عن آيةٍ أو يجري ذِكرُها في مذاكرةٍ إلَّا ويُبدِي فيها ويُعيد ويَذْكُرُ مِنْ معانِيها ما لا يستطيعُ ذِكرَه إلَّا مَنْ كان مُحرِّراً لها في تلك الساعة مِنْ جميعِ التَّفاسيرِ.

وأما التَّصوفُ، فهو عِلمُه ومِنْ صدرَه تتفجَّر منابعُه وعيونُه، سواءٌ تصوفُ الإرشادِ والعملِ والسلوكِ، وتصوفُ العِلم بالله وأهلِ الفناءِ في وحدةِ الوجود. إلَّا أنَّه كان إلى القِسمِ الأولِ أَمْيَل، لأنَّ عنايتَه كانت بالعمل والتخلُّقِ أكثر. وكان لايتكلَّم في الثاني إلَّا نادراً مع أهلِه لاسيما في بدايتِه وأوائل أمره. فإنَّه كان غيوراً على نشْرِ الحقائق، شديدَ التكتُّم لها كما كان أستاذُه سيدي مُحمد بن إبراهيم رضي الله عنه.

وأما النَّحوُ والصَّرفُ، فكان يُتقِنهما إتْقانَ مَنْ لم يَعرف غيرهما، وكانت دروسُه في الخُلاصة بِشرحَي المَكُودي وابنِ هشامٍ مِنْ أَعْجبِ الدروس وأمتعِها في هذا الفنّ.

وأما المنطِقُ، فكان يُتقنُه غايةً، واقتنَى كثيراً مِنْ كُتبِه، ودَرَّسه بِتوسُّعٍ واطِّلاعٍ وتحقيقٍ وبحثٍ لم يَر الطلبةُ مِثله.

وأما التاريخُ والتَّراجمُ، فشأنُه فيها أَعجبُ وأغربُ مِنْ كلِّ ما سبق. فإنَّه لايكاد يَذكر دولةً مِنْ ظهور الإسلام إلى عصره إلَّا ويُحدِّثك عنها حديثَ مَنْ حضرها، وكان واحداً مِنْ أعيانِها ورجالِ دولتِها لاسيما دُول المغربِ والأندلسِ. وكذلك تراجم العلماءِ والشيوخِ والأولياءِ ووقائعهم في سلوكِهم وتربيتِهم وأخبارِهم مع تلامذتِهم، وما إلى ذلك مع ضمّ الأشباه والنظائر.

وأما السياسةُ الشرعيةُ، ومعرفةُ الطُّرقِ والوسائل التي تقوم بها مصالحُ الدولةِ وينبنِي عليها

أساس العُمران ونَماؤه، وترقيةُ الأُمَّةِ إلى مَصافِ الدول العِظام، وكيفية اِستثمار الأموال بالوجهِ الشرعيِّ المُباح الذي لا ظُلمَ فيه ولا جَورَ على أحدٍ مِنَ الرعية؛ وكيفية حِفْظِ البلاد وحراستِها، ومعاملة الدول الأجنبية بِما لا مُخالفة لِلشَّرع فيه، ونحو هذا.

فكان إذا تكلَّم فيه تَخالُ أنه لا يفكر دائماً إلَّا فيه ولايشتغل بِغيره، كأنه أحدُ كبار الوزراء القائمين بأعباء الدولةِ ومصالح المملكة، مع مراعاة الحال الحاضرة وتغيُّرِ الوقت، وتبدُّلِ الأطوار، حتى كان إذا اِجتمع به أهلُ السياسة ومُكاتِبو الجرائد يرون منه ما لم يَخطر لهم على بالٍ، ويتعجبون منه غايةَ العجب، لِكونه مِنْ علماء الدِّين وشيوخ التَّصوفِ المُقْبِلين على علوم الآخرة والمُعْرِضين عن علوم الدُّنيا.

وأما الطِّبُّ، فما رأيتُ عالِماً يُشاركه فيه، بل أعرَضُوا عنه اِتِّكالاً على أطباء الفِرَنْجِ والمتخرِّجين على يَدِهِم فيه. أمَّا الشيخُ فكان شأنُه فيه شأنَ مهرة أطباء العرب الأقدمين، بحيث يداوي المريضَ على الوصف مِنْ بعيدٍ، بل مِنْ مُدنٍ أخرى. ولايُحصَى كم مريض حكم أطباءُ الفِرنج بِموتِه وعدم إمكان علاجه، فشفاه الله تعالى على يدِه وبأدويتِه التي كان يصفها للناس. ووقائعُه في ذلك عجيبةٌ نادرةٌ تبهر العقلَ، وهي مفصَّلةٌ في الأصلِ فراجِعْها.

وأمَّا الأنسابُ، فكان إليه المرجِعُ فيها، حتى كان يُخبِرُ أُناساً بِنسبِهم وكونِهم مِنْ أهل البيت مِنْ غيرِ أَنْ يكون عندهم عِلمٌ بذلك.

وأمَّا سِرُّ الحَرفِ والجدول والتَّصرف بالأوفاقِ، فقضاياه التي تدلُّ على تبرُّزه فيها ومعرفته بها كثيرةٌ، ذَكَر في ''سُبحة العقيق'' مِنها شيئاً فراجِعْهُ.

وكانت له المشاركة القوية في غير هذه العلوم، بل كان لِفرط ذكائِه وقوة جَنانِه وسرعة إدراكه لايكاد يتوجه إلى فنٍّ مِنَ الفنون إلَّا ويَطَّلع على حقيقتِه.

قلتُ: والأمر فيه هكذا. فإنَّني كنتُ أسأله عن علومٍ عصريةٍ حديثةٍ، واِصطلاحاتٍ لم تكن موجودةً معروفةً قديماً، وإنَّما دخلتْ لِلغةِ العربية عن طريق الكتب المترجَمَةِ إليها مِنَ الإنجليزية والفرنسية وغيرهما، فيُجيبني جوابَ العارفِ بها المُتقِنِ لها تماماً. ويتَّفق لي أَنْ أَقِف على كلامِ أحد علماء ذلك الفنِّ فأجده كما قال الشيخُ فيه مِنْ قبل.

وقد أُولِعتُ في صغري بِعِلم الجغرافية، وحصل لي غرامٌ به وشوقٌ إلى كُتبِه. فكنتُ أسأل

الشيخَ عمَّا يعسر عليَّ فَهمُه مِنه، فيجِيبني بِجوابٍ مُفصَّلٍ للمسألة مِنْ غير خلافٍ لِما هو مقررٌ في كُتبِ الفنِّ؛ ويَشرح لي جغرافية البلاد الأوربية كلِّ بلدٍ بِما له مِنَ المزايا الاقتصادية، وعدد سكانه، وما إلى ذلك مِنَ الدقائق التي لايتقنها إِلَّا مَنْ توجه لهذا العِلم بخصوصه، مطالعةً وقراءةً.

مؤلَّفاتُه وفتاويه: لم يكن مولَعاً بالتأليف لِشِدَّة نفوره مِنَ الظهور وما فيه رائحته، مع أنَّه لو تصدَّى للتأليف لكان أسهل عليه مِنْ جميع أهل عصره، لِكَثرة حِفظِه وسِعَةِ اِطِّلاعِه وشِدَّةِ إستحضاره، بحيث يُمكِنه إملاء الكُراسة في المسألة الواحدة بدون مراجعةٍ كما كان يُملِي ذلك دائماً في مجالِسِ مذاكرتِه، فلو ألَّف مع هذا الاطِّلاعِ الواسعِ لأَتَى بالعجب العجاب. ولكنه لم يَكتب إِلَّا بعض المؤلَّفات، أَحرقَ بعضَها، والبعض الآخر لم يُعثَر له على أثرٍ.

وقال مرةً لِمَنْ سأله عن التأليف: ''قد كنتُ مولَعاً بالكتابة قبل هذا، ثم رأيتُ الوقت لايساعد، فتركتُ ذلك وأحرقتُ بعضها ''. قال: ''وكنتُ أَلَّفتُ كتاباً في السيرة النبوية أيامَ الشبيبة حينما كنتُ أُدَرِّسُ الهمزيةَ مع الطلبة بِغمارة. وأظنُّه لا يزال عند بعض الطلبة الآن، إِلَّا أَنَّ فيه بعضَ أحاديث موضوعة كنتُ قلَّدتُ فيها بعضَ المتأخرين كالصَّبَّان، ثم اِتَّضح أنَّها موضوعة''. وأَلَّف كتاباً في العبادة ثم أَحرقَه.

وحدَّث بعضُ جُلاسِه أنَّه أَخرَجَ لهم في أواخر عمره تأليفاً في التَّعوذِ وقراءةِ البَسْمَلة في الصلاة على مذهب مالِكٍ، وقرأه عليهم. لكن لم يَعثر عليه أحدٌ بعد ذلك.

وتوجد بين يدي فقرائِه رسالةٌ تُسمَّى: ''النور اللائح في تكفير الذنوب والقبائح''، وهو لم يُسمِّها وإنما سمَّاها بعضُ أصحابِه. وكان سببُ تأليفها أنَّه خطب في عيد الفطر خطبةً تعرَّض فيها لِصلاة التَّسبيحِ ونوَّه بقدرها، فطلب منه الشريفُ أحمدُ بنُ عبدِ السلامِ الوَزَّانِي أَنْ يكتبَ له ما سمعه منه في الخطبة، فكتب له ذلك وضمَّ إليه أشياءَ أخرى مِنَ المكَفِّراتِ.

قلتُ: وقد وقفتُ عليها، وأوَّلُها: ((الحمدُ لله الذي جعل طاعتَه لِلسعادة مفتاحا، والرجوعَ إليه نَجاةً مِنَ النار ونجاحاً، نَحمده تعالى حمداً يكون سبباً لِرضاه ونَشكره شكْرَ مَنْ لا يُعوِّلُ في غفران ذنوبِه إِلَّا مِنْ عُلاه .. إلخ)).

وله خُطبُ السَّنَةِ كلِّها، ورسائلُ في الطريق نفيسةٌ تحتوي على قواعد نفيسةٍ ومسائل مهمةٍ للسَّالِكين. وله أجوبةٌ علميةٌ في مختلف الفنون كان يُجيبُ بها إملاءً مَنْ يَكتب إليه بالسؤال

عنها، أو يتعرَّض لها في مَكَاتِبه لِسببٍ يدعو إلى ذلك، لو تُتُبِّعتْ وجُمِعتْ لجاءت في مؤلَّفٍ حافِلٍ. وفي ''سُبحة العقيق'' جملةٌ حسنةٌ منها فانْظُرها. وله نَظْمٌ حَسنٌ في الدلالة على الله والنهوض إلى حضرتِه، يحفظه أتباعُه ويُنشدونه في مجالس الذِّكر.

نُبذةٌ مِنْ أحوالِه الزكية وأخلاقِه السَّنِيَّة: اِنفرد رضي الله عنه بالأخلاق المحمدية التي لم نرها مجموعةً في غيره ولا سمعنا بها عن أحدٍ مِنْ أهل عصره؛ لا مِنَ الموصوفين بالولاية والمشار إليهم بالخصوصية، ولا مِنَ المشهورين بالمشيخةِ ورُسوخِ القَدمِ في التَّسليكِ والتربيةِ، فضلاً عن غيرهم مِنْ أهل العلم الظاهر، مع اِجتماعِنا بكثيرٍ مِنْ شيوخ المغرب والمشرق، ووقوفِنا على أخبارِ جُلِّ مَنْ لم نره منهم مِنْ طريق أصحابِهم وكُتب تراجِمهم وأخبارهم، بل لم نر أخبارَ الشيخ مجموعةً إلَّا في السيرة المحمدية، وتراجِمِ كِبارِ أفراد الأُمَّةِ المحمدية، وكُمَّلِ رجالِها مِنَ السلف الصالح والخَلَفِ الناجح رضي الله عنهم وعنَى بهم، وسلك بنا بِفضلِه منهاجَهم، وحشرنا في زمرتِهم. آمين.

فمِنْ ذلك **شدَّةُ تعظيمه ومحبته واِحترامِه للشيوخ** الذين أخذ عنهم، ولو دروساً قليلةً مِنَ العِلم. فكان يبالغ في الأدب معهم ولايتقدَّم أمامَهم في شيءٍ مِنَ المسائل، ولا يُظهِر عِلمَه بِمحضرهم، وإنْ كان أَعلَمَ منهم، ولا يُجادلهم ولا يناظرهم في شيءٍ إلَّا على سبيل الندرة مع كمال الأدب والاحترام.

وكان شديدَ التعظيم والاحترام لِحَملَةِ العِلم، ولو كانوا حُسَّادَه وأعداءَه الذين بالغوا في إذايتِه والمجاهَرة بعداوتِه. **وكان يحترم حَملَةَ القرآن العظيم،** لاسيما حُفَّاظ السَّبْعِ والمُتقِنِينَ لِعِلم القراءات، بل كان يتعشَّق هذا الصِّنفَ مِنَ الناس ويطير فرحاً عند رؤيتِه واحداً منهم، ويُكرمُه بكلِّ ما لديه ويحفظ ترجمتَه وأخباره ويتحدث بِها عنه في غيبتِه تشويقاً للسامعين إلى الاشتغال بِحفظ القراءات، وعملاً بالوارد في إكرام حَملَةِ القرآن. وربما علَّلَ ذلك في بعض الأحيان بقوله: ''إنَّ هذا العِلمَ كاد يَنقطع'' .

وكان يبالغ في إكرام مُعلِّمِ أولاده القرآن، ويحترمه اِحتراماً زائداً ويُنزله منزلةً ساميةً، ويُغدِق عليه مِنَ العطايا ما لم يعهد له نظيرٌ مِنْ غيرِه. **وكان يحترم أولادَ الشيوخ وحَفَدَتَهم،** ويبالغ في إكرامهم قياماً بِحقوق آبائِهم وأجدادِهم.

وكان لأهل البيتِ أشدَّ اِحتراماً وتعظيماً ومحبَّةً مِنْ كلِّ ما تقدَّم، على أيِّ حالةٍ كانوا، لا يشترط فيهم صلاحاً ولا عِلماً ولا فضلاً ولا تقوَى. ويقول:''علينا أَنْ نَقومَ بِواجِبِهم ونَكِلَ أمرَهُم إلى الله تعالى'' .

وكان يُربِّي أولادَه مِنْ صغرهم على الزهد في الدنيا والرغبةِ في الآخرة وتعلُّقِ القلب بالله وبمحبتِه، والإقبال على العِلم والعمل، وتركِ ما فيه شهوات النفس وحظوظها. ولا يَسمح لهم بالتشبه بأهل الدنيا وأولاد الأغنياء في الملابس، لا في جودة الثياب ولا في كيفية اللِّباس.

وكان وصّالاً لِرَحِمِه الدِّينِي والطِّيني، أمَّا الدِّيني فقد ذكرنا صنيعَه مع أشياخه وأنجالهم وحفدتِهم. وأمَّا رَحِمَه الطِّينِي، فكان لايَنسى أحداً مع كثرتهم، بل يواسي الجميعَ ويَكسوهم كلَّ سَنةٍ ويدفع أَصْدقةَ مَنْ يريد التَّزوجَ منهم، حتى تترتَّب عليه في ذلك ديونٌ عظيمةٌ كلَّ سنةٍ. ويَنفعُهم بالمال والجاه والتَّوسط والشفاعات عند الحُكَّام مع كونِ الكثيرِ منهم يُؤذونه بأنواعٍ مِنَ الإذايات.

وكان لا يَخرج إلى السُّوقِ، ولا يمرُّ في الشوارعِ العامرة بالناس والدَّكاكين، بل إذا خرج يوماً لزيارة أخٍ أو إجابةِ دعوةٍ أو إلقاءِ درسٍ، يختار الشوارعَ الخاليةَ ولو كانت بعيدةً فِراراً مِنَ الشُّهرة وتعظيمِ الناسِ وسلامِهم عليه. **وكان يُسرِعُ في المشيِ، ويمشي قصْداً** لا يلتفتُ لرؤية مَنْ عن يمين الطريق وشِمالِها. **وكان لا يتولَّى شراءَ شيءٍ بنفسه** مِنْ أمتعة الدنيا وحاجياتِها، كيفما كانت إلَّا الكتب، **وكان لا يُماكِس فيها** ولا في غيرها إذا اِشتراه على سبيل النُّدرة.

وكان لا يَمدُّ رِجليْهِ لا وحده ولا مع أهلِه، لا في حالة المرض ولا في حالة الصِّحة. وربَّما مدَّ إحديهما قليلاً إذا تَعِب بحيث لا يَخرج بِمدِّها عن هيأة المتربِّع، وإنما كان يُكثِر مِنْ جلوس القرفصاء لا سيما عند المطالعة والكتابة.

وكان إذا غاب عنه أحدٌ مِنْ جُلَّاسِه تَفقَّده بالسؤال عنه، وإذا علِمَ بمرضه تعاهده بالسؤال وإرسالِ مَنْ يَنوب عنه في العيادة.

وكان إذا قصده أحدٌ لِلسَّلام عليه لا يُعطيه يدَهُ يُقَبلها إلَّا إذا اِنْحَنى هو على رأسِه يُقَبله أو كَتِفه.

وكان مُفردَ زمانِه في قضاء حوائج المسلمين والسَّعيِ في مصالحهم، لا يكاد يمرُّ

عليه يومٌ دون أَنْ يُجْرِيَ الحقُّ سبحانه وتعالى على يديه فيه قضاءَ حاجةٍ أو حوائج، على اِختلاف المراتب والطبقات.

وكان في بذلِ الجاه عند الحُكّام المسلمين والنصارى في الشفاعات لايُجارَى ولا يُبارَى، ولا يستطيع أحدٌ مِنْ أهل العصر أَنْ يُدرِكَ له فيه غباراً.

وكان لا يدعو أحداً مِنَ الناس بِاِسْمِه المجرَّد بدون سيادةٍ، ولا يذكره كذلك في غيبتِه. ولا يقتصرُ على ما جرَى به عُرفُ الناس مِنْ لفظِ (السِّي) بِحذفِ الدَّالِ، بل يَذكر لفظَ السيادة بِكاملِ حروفه لِلشَّريفِ والمَشروفِ، والعالِمِ والجاهل. **وكان كثيراً ما يخاطب الرجلَ** بِمَولاي، زيادةً في الإكرام والاحترام اِمتِثالاً لِأَمْرِ الله تعالى بِأَنْ نقولَ لِلناسِ حُسناً.

وكان لا يَمزح ويكره المزاحَ وينهَى عنه حتى صغار الأولاد، ويتعجب مِنْ أهل العِلم الذين يمزحون، لا سيما في دروسِهم.

وكان يُنزِلُ الناسَ على حسب منازِلهم التي أنزلهم اللهُ فيها، ويُعامل كلَّ واحدٍ منهم ظاهراً في المجاملة والإكرام والبِرِّ على قدر منزلتِه. فلا يُساوي بين الشريف والعامِّي، ولا بين العالِمِ والجاهل، ولا بين أهلِ النِّسبةِ والفقراءِ المتجرّدين لِذِكر الله، وغيرِهم مِنْ عوامِّ الناس اِمتثالاً لِلسُّنَّةِ الواردة بذلك.

وكان لا يَذهب إلى أحدٍ مِنْ أهلِ الدنيا وأغنيائِهم المشاهير، ولو ألحُّوا في دعوتِه لاسيما في أواخر عمره، وكذلك كان لا يَذهب إلى الحُكّامِ ولا إلى المَحاكِم، بل كان يُرسل في الشفاعات أصحابَه تارةً بالمشافهَةِ وأحياناً بالكتابة. وربَّما طلب مِنَ الحاكم أَنْ يَقدم إليه لِيكلِّمه في القضية إذا كانت مهمَّةً، فلا يتأخر عن ذلك لاسيما حُكّام النصارَى فإِنَّهم كانوا يريدون الشَّرفَ برؤيتِه والافتخار بالاجتماع به.

وكان شديدَ الكراهية للرِّياسةِ ولِمن يَميلُ إليها، ويستجهله غايةً، ويَعُدُّ قلبَه فارغاً مِنَ النور والإخلاص في الأعمال.

وكان لا يتميز عن العامة في الملبَسِ، ولا ينفرد عنهم بشيءٍ أصلاً مِمَّا يتفرَّدُ به العلماءُ وأربابُ المناصب والوجاهة. فلا يَلبس الكِساء ولا البُرْنُصَ، ولا يَركب البغلةَ كما هو حالُ علماء المغرب ووجهائه، قبل ظهور العربات بل وحالُ علماء الشَّرقِ أيضاً.

وكان يكره التَّشبهَ بأهل الدنيا في الملبَسِ والمعيشةِ وفِراشِ البيتِ، وكلّ ما فيه رفاهية وترفُّع على الناس.

وكان يغضب غضباً شديداً إذا رأى مِنْ أحد أولاده ميلاً لأبناء الدنيا في التشبه بهم والسَّير على منهاجهم، لأنَّه كان لا يَرَى ذنباً أعظم مِنْ حبِّ الدنيا والدخول في مداخلِها والتطلُّعِ إلى أهلِها؛ ويقول لأولاده: "اِفْعلُوا ما شِئتُم فإنّي أرجو لكم رحمةَ الله إلّا حب الدنيا وطلبها، والتشبه بأهلها، فإنَّه لا يُرجَى لكم فَلاحٌ مع ذلك. وكيف يَنظر اللهُ إليكم ويرحمكم، ويفتحُ بصائرَكم؛ وقلوبُكم ملطَّخةٌ بحبِّ الدُّنيا التي هي أبغضُ شيءٍ إلى الله تعالَى ؟".

وكان شديدَ الكراهية لِما فيه التشبه بالكفار ولو في الشيء اليسير، ويبالغ في الزجر عن ذلك والنهي عنه. ويتعجب مِنْ حال علماء مِصْرَ في التشبه بِهم في لَبْسِ أحذيتهم، وهيأةِ فراشهم ومساكِنهم، وفي الأكل بالشّوكة والسكين، وقَصِّ اللّحى وحَلْقِها، ويقول: "مَا شَمُّوا رائحةَ العِلم ولا وَصَل شيءٌ منه إلَى قُلوبِهم، وإنَّما هم سَماسِرةُ الشَّرِّ والفسادِ، يحترفون بِالعِلم ويأكلون به، ويُضلُّون مَنْ يقتدي بِهم".

وكان يكره الوظائف الحكومية وينهَى عنها كلَّ مَنْ يحبُّه ويأمره بالتباعد منها، والتَّكسب بالحِرفَةِ والتِّجارة؛ لاسيما خُطَّة القضاء والشهادة فإنَّه كان يُبالغ غايةً في الزَّجر عنها والتنفير منها.

وكان وقَّافاً عند الشبهاتِ، شديدَ التَّيقظ في شؤون الورع، يَنْتبه لِما لا يَنْتبه له غيرُه، ويَقف عندما لا يظن بأحدٍ الوقوف عنده مِنَ الدقائق والخفيَّاتِ. ولا يُقدِم على أمرٍ حتى يَعلَم حُكمَ الله فيه، ويُراجع أقوالَ أئمة المذاهب، ويُحيط بما في الأمر مِنْ رخصةٍ وعزيمةٍ وتخفيفٍ وتشديدٍ، وعند ذلك يترخَّص في الفعل والإذن لغيره أو يُرجِّح جانب المنع فيتأخر عنه وعن الإذن به.

وقضاياه في هذا كثيرةٌ جدًّا بالنسبة لأمور الحادثات والمختَرَعات الجديدة التي تحتاج إلى بحثٍ عن حُكمِ الله تعالى فيها. بل التَّنبه لِمسائل الورع كان مِنْ أخصِّ أحوالِه وأهمِّ الأمور عنده.

وكان لا يأكل طعامَ الكفار ولا حَلْواءَهم، وسمعتُه مرةً يقول: "مِنْ نِعَم الله عليَّ أَنِّي ما ذُقتُ الشُّكولاطة في حياتي". ولَمَّا توجَّه إلى القاهرة مكث طولَ مدةِ السفر لا يأكل إلّا الخبز والزبدة، ولا يأكل ما يُقدِّمه أهلُ البابور مِنَ الأطعمة الفاخرة لأهل الدَّرجةِ التي ركب فِيها، ولا مِنَ المباحة مثل السمك المَقْلِي، والبيض والخضروات.

وكان لا يُكثِرُ مِنْ تناول الشهوات، ولو كانت مباحةً سالِمةً مِنَ الشُّبَهِ والعِلل. ويَحثُّ على عدم تناولها وعلى التَّقلل منها، ويذمُّ المسترسلَ فيها لاسيما إذا كان مِنْ طلبةِ العِلم وأهلِ الطريق.

وكان لا يأكل في اليوم إلَّا مرتين، يُفطِرُ في الصباح ويتغدَّى بعد العصر، ولا يتعشَّى، لا في صيفٍ ولا في شتاءٍ. ويستقبح ثلاثَ أكلاتٍ في اليوم، ويقول: إنَّها مِنَ السرف والشره.

وكان جواداً سخيًّا، يجود بما في يده ولا يَعْظُمُ في عينِه شيءٌ يُعطِيه مِنْ مالٍ، وأَرضٍ، وعقارٍ، وثوبٍ، وطعامٍ، وغيرِ ذلك؛ بل كان عطاؤُه لِلْأَلْفِ كعطاء غيره لِلقِرْشِ الواحِد بل أهون مِنْ ذلك بكثيرٍ. فإنَّ الدنيا لم تكن تساوي في عينِه شيئاً فكان لا يُقيم لها وزناً. وأخبارُه في العطايا غريبةٌ عجيبةٌ لا يُسمع بِمثلها عن أحدٍ مِنْ أهل العصر ولا عمَّن قَبلَه بزمنٍ تعالى وأَمْرِ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم كما هو واجبٌ على كلِّ مسلمٍ موحِّدٍ، لاسيما في النصف الأخير مِنْ عمره فإنَّه كان يعلن بذلك ويدعو إليه. وأَمَر بكثيرٍ مِنَ السُّنن المهجورة في مذهب مالِكٍ، كالتَّعوذِ، والبسملةِ، والجهرِ بالتأمين، ورَفْعِ اليديْنِ في الانتقال، ووَضْعِ اليمين على الشِّمال، والسلامِ مِنَ الصلاة مرتيْنِ مع زيادة: ((ورحمةُ الله))، والآذان بين يدي الخطيب يوم الجمعة، وغير ذلك. وكان يُعطِّرُ مجالسَه الخاصة بِذِكر الاجتهاد والعمل بالسُّنة.

نبذةٌ فِيما أكرمَه اللهُ تعالى مِنَ الفضائل والمَزايا

فمِنْ ذلك جمالُ الصورة الحِسّيةِ والمعنوية، وكمالُ الذَّاتِ الجِسميَّةِ والرُّوحية. أمَّا جمالُ الصورة المعنوية وهو ما أكرمَه به مِنَ الأخلاق المحمدية فقد مَرَّ بعضُها.

وأمَّا جمال الصورة الحسّية، فقد أكرمه الله تعالى بكمال الذَّاتِ، واعتدالِ القامَةِ مع ميلٍ إلى الطُّولِ شيئاً قليلاً، وتوسُّطِ الجسم فلا هو سمينٌ كثيرُ اللحم، ولا هو رقيقٌ بين العُروقِ والعظْمِ. مستدير الوجه إلى الأَسَالَةِ، كبير العينيْنِ أسودهما، طويل الأشفار، واسع الفَمِ، مُفلَّج الثَّنايا، فصيح اللسان، أبيض اللون مُشرَباً بالحُمرة، كَثُّ اللِّحْيةِ أَسْودها إلَّا أنَّه شابَ في مُقتَبلِ كُهولتِه فكان يُديمُ الخِضابَ بِالحِنَّاء، فصارت حمراءَ مُزهِرةً زادتْه نُوراً وبهجةً؛ في أعلَى جبهتِه دينارٌ مُخالفٌ لِلجِسم مِنْ أَثَرِ السجود؛ جميل الأطراف، سليم الأعضاء، واسع الصدر، بعيد ما بين المنكبيْنِ،

إذا مشَى أَسْرَعَ في مِشيتِه ومشَى قَصْداً لا يلتفت يميناً ولا شِمالاً، إذا مَاشاهُ أحدٌ يَتعبُ في المشيِ مِنْ حيث يكون هو مستريحاً لأَنَّـها مِشيتُه العادية.

ومِنْ ذلك: النورُ والبهاءُ، والهيبةُ التي لم نَرَها على أحدٍ مِنْ أهلِ عصره، لا بالمشرق ولا بالمغرب، حتى كان لا يستطيع أحدٌ أَنْ يكلِّمه وهو يَنظر إليه مِنْ هيبتِه. وكان أعداؤُه يقابلونه في الطريق فما يَشعرون بِأنفسهم إِلَّا وقد اِنْحنوا لِتَقبِيل يَدِهِ. ولَمَّا كان بالقاهرة والإِسكَنْدَرِيَةِ، كان لا يَمرُّ بِشارِعٍ مِنْ شوارعِها إِلَّا قال الناسُ عند رؤيتِه: ''ما شاءَ الله، اللهم صلِّ علَى سيِّدِنا مُحمد '' اِستِعظاماً لِبهائِه وجلالتِه.

ومِنْ ذلك: الحريةُ وعدمُ الخوف مِنَ المخلوقِ، فكان يَصدعُ بالحقِّ ولا يخاف في الله لومةَ لائمٍ، وينفذ رأيَه وما يريده، معارِضاً بذلك الحُكَّامَ وأعاظِمَ الدُّوَلِ، كأَنَّه أكبرُ ملوكِ الأرض وأكثرُهُم جنوداً وأَمنعُهُم قوةً. وما ذلك إِلَّا اِعتماداً على الله تعالى وتعَزُّزاً بِجَنابِه واِحْتماءً بِنصرتِه وولايَتِه.

ومِنْ ذلك: حِفظُه مِنَ الذنوب مِنْ صِغره، وكونُه شبَّ ونشأ في طاعة الله تعالى لم تَحصلْ له صبوةٌ في شبابه، ولم تَجْرِ منه مخالَفةٌ في صِباه إلى بلوغِ كماله، كما كان يَذكر ذلك عن نفسِه تَحدُّثاً بِنعمة الله تعالى عليه، وكما كان يَذكره أقاربُه مِنْ أقرانِه ومَنْ كان أكبرَ سِنًّا منه، مِمَّن نَشأوا معه مِنْ صغره.

ومِنْ ذلك: ما اِختار الله له لِمحبَّتِه في الاقتداء بالنبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وموافقةِ سُنَّتِه في كلِّ شيءٍ، وسَعْيه أَنْ يَحصل له كلُّ ما حصل لِلنبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم. **أقولُ**: مِنْ ذلك، ما اِختار الله له مِنْ موافقتِه في كثيرٍ مِنْ أموره بِغير قصدٍ منه واِختيارٍ لِلنبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في حياتِه وبعد موتِه. ففي حياتِه تزوج قبل وفاتِه بِشهرٍ ونِصف أو نحوه، بِزوجةٍ لم يَدخلْ بِها لِأَنَّها زُفَّتْ إليه في رَمَضان، وكان الضعفُ ومَرَضُ القلبِ الذي مات مِنه قد اِعتراه مع الصيام إلى أَنْ مات في سادِس شَوَّال؛ وكذلك تزوَّجَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم قَيْلَةَ بِنْتَ قَيْسٍ الكِنْدِيَةَ، قَبل وفاتِه بِشهرين، وقِيلَ: في مَرَضِ موتِه، وقِيلَ: في ربيع الأول، ولم يدخل بِها لِتأخُّر قُدومِها عليه إلى أَن اِنتقل إلى الرفيق الأعلَى صلى الله عليه وآله وسلم.

ولَمَّا حجَّ الشيخُ رضي الله عنه، كانت وَقْفَتُه بالجمعة كما كانت وقفَةُ النبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، مع أَنَّ الشيخَ خرج للحجِّ قبل ظهور ذلك. لِأَنَّ خروجَه مِنْ وطنِه كان في شَعْبان كما سبَقَ.

وتوفي الشيخُ رضي الله عنه وعليه ديونٌ، كما توفي النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليه ديْنٌ كذلك. ولم يتزوجْ على زوجتِه الأُولَى إِلَى أَنْ توفيتْ، ثم أخذ بعدَها زوجاتٍ متعدداتٍ. وكذلك

فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لم يتزوجْ خديجَةَ رضي الله عنها إِلَى أَنْ ماتتْ، فأخذ زوجاتٍ متعدداتٍ.

وكانت زوجتُه الأُولَى فاضلةً عاقلةً صالِحةً، ذاتَ مناقبَ وكراماتٍ كما كانت خديجةُ رضي الله عنها ذاتَ مناقبَ جَمَّةٍ وفضائلَ عديدةٍ.

قُلتُ: وكان معه مَنْ يُنافِقُه في صحبتِه ومعاشرتِه، ويُخادعه في الاعتقاد ويُعامله في الظاهر بِخلاف ما في باطِنِه مِنْ عداوتِه وبُغضِه؛ كما كان حالُ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع المنافِقين.

ولا يُحصَى كم لَزِم بابَ الشيخِ مِمَّن يَدَّعي الصحبةَ والمحبَّةَ والخِدمةَ، وهو جاسوسٌ للكفار يُبلِّغ أخبارَه إليهم، ويأكلُ الخبزَ مِنْ وراء ذلك. وكان الشيخُ يطَّلعُ على أحوالهم في ذلك، ويَعرفهم غايةَ المعرفة، ولا يُظهر لهم شيئاً، بل ولا يُحبُّ أحداً مِمَّن عرفهم أَنْ يُشِيرَ لهم إلى شيءٍ.

وأمَّا بعد موتِه وانتقاله إلى الآخرة، فإِنَّ الله سلك به أيضاً مسلَكَ الرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم في محاربة بعضِ أصحابِه كَمُعاوِيَةَ ومَنْ تَبِعه، لِأَوْلادِه وأهلِ بيتِه عليهم السلام. فقد تجرَّد أيضاً لِمحاربة أنجالِ الشيخِ وإذايَتِهم ورَفْعِ لواءِ العداوة لَهم مَنْ كان يَزعم صحبتَه ومحبتَه، وخِدْمتَه في حياتِه، كما كان يَزعم مُعاويةُ الصُّحبةَ وكتابةَ الوحْيِ.

ومِنْ ذلك: كونُ نِعَمِه مكفورة غير مشكورةٍ ولا مذكورة، اِدِّخاراً لِثوابِها عند الله تعالى، دلالةً على كمال إيمانِه وكونِه مِنْ أهل ولاية الله تعالى ورحمتِه. فإِنَّ أكثر مَن ناله فضلُ الشيخِ وإحسانُه لم يَشكر ذلك ولا كان يَعترف به، لاسيما وقد أسكنَه اللهُ بالمدينة التي هي معدنُ هذا المعنَى وأساسه. وقد روَى الحاكمُ في "المستدرَك" بِسندٍ صحيحٍ مِنْ حديثِ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « **المُؤْمِنُ مُكفر** » يَعني يَصنع المعروفَ فلا يُشكر.

قلتُ: وفي حديثٍ آخر عند اِبنِ أَبِي الدُّنيا في "مكارم الأخلاق": « **رَحمةُ اللهِ علَى المُكفرين** ».

ومِنْ ذلك: كَشفُه الصريحُ وكثرةُ الكرامات التي جرتْ على يديه. **ومِنْ ذلك**: علوُّ مقامِه في المعرفة بالله تعالى وبلوغُه رتبةَ القُطبية، كما أشار إلى ذلك كثيرٌ مِنْ أولياءِ وقتِه وصلحائِه،

بل كان هو نفسُه يُشير إلى ذلك في أواخر عمره. إلى غير هذا مِنَ المزايا والفضائلِ التي تَفوق الحصرَ.

نبذةٌ في ذِكر بعضِ ما أجراه اللهُ على يديهِ مِنَ الكَراماتِ وأَخبرَ به رضي الله عنه مِنَ المُكاشَفاتِ:

وهو بابٌ واسعٌ لا تكاد تُحصرُ أخبارُه، ولا تَدخلُ تحت العدِّ وقائِعُه، إذ قلَّ أَنْ يوجدَ أحدٌ مِنْ أصحابِه المتفرقين في الأقطار الشاسعة مِنْ حواضرَ وبَوادي، إلَّا وعنده في هذا الباب أخبارٌ ووقائع مِمَّا شاهده بِنفسه أو سمع مِمَّن شاهده. خصوصاً وقد مات منهم العددُ الكثيرُ.

ومِنْ ذلك: أَنَّ اِمرأةً مِنْ قرابتِه جاءت لِزيارته وكان لها ولدٌ فمات، ولم تَحملْ بعده نحو عَشر سِنين، فقال لها:'' إِنَّكِ سَتَحمِلين قريباً بِولدٍ ذَكَرٍ فَسمِّيهِ حَمْزة، وسَيعِيشُ إنْ شاءَ الله تعالى''. فكان كما قال الشيخُ، ثم لم تَحملْ بعده إلى الآن.

ومنها: أَنَّه لَمَّا وُلِد آخرُ أنجالِه، قال لِزوجاتِه:'' إنَّ والدِي ماتَ وتَرك ولدَه فُلاناً اِبنَ شَهريْنِ، وأنا كذلك فَسَأَترِكُ ولدِي هذا اِبنَ شهريْنِ''، فمات بعد شهرين. فإِنَّ ولدَه المذكورَ وُلد سابِع رجب وتوفي هو سادس شوال، بعد شهرين وسبعة أيام أو ثمانية، ولم يكن في ذلك الوقت مريضاً، بل بعد ذلك بِشهرٍ تزوَّجَ مرَّةً أخرى.

ومنها: أَنَّه في السنة التي توفي فيها، قام ذاتَ ليلةٍ في منتصف الليل على عادته في كلِّ ليلةٍ لكنْ لم يَذهب إلى موضِع مُصَلَّاه، بل بقيَ بِداخلِ الغُرفةِ. وكانت الزوجةُ نائمةً، فاِنتبهتْ على سماع حركةٍ وجَلَبةٍ، وأخذٍ وعِراكٍ شديدٍ، وبعدها سقط الشيخُ سقطةً مُنكرَةً. فقامت فزعةً فإذا هو جالِسٌ يَلهثُ لَهثاً عظيماً، وإذا حاجِبُه مَشجوجٌ ووجهُه وصدرُه مَكْسوَانِ دماً؛ فسأَلَتْه عن الواقع فأجابَها بأَنَّه سقط على الحصيرِ. فقالت: كيف يَحصل مِثلُ هذا الجرحِ العظيمِ مِنَ السقوط على الحصيرِ مع أَنِّي كنتُ أسمع حركةً وجلبةً على إِثرها اِستيقظتُ ؟! فأصرَّ على ذلك وهو يَضحكُ ويَمسحُ الدَّمَ عن وجهِه.

ولَمَّا شاع خبرُ ذلك، سأله بعضُ مَنْ له به مزيد اِختصاصٍ. فأخبره بِأَنَّ ولِيًّا للهِ تعالى مِنْ أهلِ اليَمَنِ كان يتعرض لِبعض مَصالِحِ المسلمين، فحصل بينِي وبينه نِزاعٌ أدَّى إلى المضاربَةِ والمقاتلَةِ، فقتلتُه بعد أَنْ شجَّنِي.

ثم بعد هذا الحديث بِنحوِ سنةٍ توفيَّ رضي الله عنه، كما وقع لِجدِّه سيدي الحاج أحمدَ بنِ عبدِ المؤمِنِ، فإِنَّه بعد قَتْلِه لِلعَزْبَزُورِي مِنْ طريقِ الغيبِ بِسنَةٍ كانت وفاتُه أيضاً.

ومنها: أَنَّ بعضَ الفقراء لم يكن له في بدايتِه أولادٌ فأوصَى للشيخِ بِثُلثِ مالِه بعد الوفاة، وكَتب بذلك كتاباً وأَشْهد عليه ثم أتاه به، فبقِيَ عنده أزيَدَ مِنْ عشرِ سِنين. وفي يومٍ، أَرسلَ به إليه وقال له: ''إِنَّا كُنَّا قَبِلناه مِنكَ في وقتٍ لم يكن لك أولادٌ، وإِذْ رزقَكَ اللهُ أولاداً فأنتَ أَوْلَى به''.

فلمَّا ذهب الرسولُ به إلى الرجلِ المذكور، صار يُبدِي عَجَبه ويقولُ: هذه كرامةٌ عظيمةٌ. فإِنَّ والدي وصَله الخبرُ بِأَنِّي وصَّيتُ بالثلث للشيخ، فأَرسلَ إِليَّ قريباً يقول: ''لا بدَّ أَنْ تَرجعَ فيما أعطيتَ شيخَك وإِلَّا فأنا ساخِطٌ عليكَ''. فبقيتُ متحيِّراً خائفاً مِنْ سخطِ الوالد ومُستحيِياً مِنَ الشيخ. وبينَا أنا أفكر في ذلك ولم أُخبِرْ به أحداً، جِئتنِي بالكتاب مِنْ غيرِ طلَبٍ ولا سؤالٍ.

ومنها: أنه لَـمَّا رَكِبَ القطارَ متوجِّهاً مِنْ بُورْسَعِيد إلى القاهِرة، وقف البَابُورُ بِأَبِي صِير وكان وقت العصر، فنزل الشيخُ للصلاة ونزلَ مَنْ معه. فصار الركابُ يقولون: لا تَفعلوا فإِنَّ البابورَ لا يَقفُ هُنا إِلَّا قليلاً بحيث لا يُمكنكم الصلاة. فلَمْ يلتفتْ إليهم، وصار أهلُ المحطَّةِ أيضاً يَصيحون به ويقولون لَم يَبقَ لِقيام البابور إِلَّا دقيقة واحدة أو اِثنتان. فنزل وصلَّى العصرَ بالإِتْمامِ أربع ركعاتٍ ثمَّ سلَّمَ وركِب وركب مَنْ معه. وقام البابورُ وصار الناس متعجِّبِينَ لِتأخُّرِ البابورِ عن موعدِ قِيامِه.

ومنها: أَنَّه كان له أتباعٌ مِنَ الجنِّ كثيرون، كان أهلُ البيتِ يَرونَهم ووقعتْ لهم وقائع متعددة، فكانوا يذكرون ذلك للشيخ فيقول: ''لاتخافوا، فإِنَّهم فقراء يأتون للزيارة''.

ومنها: أَنَّه كان يقول لبعض أصحابه: ''يا فُلان اِصبِرْ، فَسَيمرُّ عليك أمرٌ عظيمٌ''، قال ذلك له مراراً. وبعد وفاتِه بنحو العامين، وقع ما كان يُخبِره به ورأَى مِنَ الشدائد والأهوال ما تَشِيبُ له الولدانُ؛ وحضر في حربِ إِسْبانيا، ثم في أوائلِ حربِ أَلْمانيا مع الحلفاءِ. ولا يَزال مَنفِياً عن وطنِه إلى اليوم.

ومنها: ما حَدَّثَ به بعضُهم، قال: أُلقِيَ القبضُ على بعض قرابتِي في مسألةٍ ثَوْرِيةٍ سياسيةٍ، فحُكِمَ عليه بالسجن لِمدةِ ثلاثين سنة. فذهبتُ إلى الشيخ مستشفعاً به، وحصل لي تشويشٌ عظيمٌ. فقال لي: ''كلُّ هذا لا أَصْلَ له، وأعتقد أَنَّ اِبنَ عَمِّكَ معَنا الآن في موضعِنا

هذاة''. فلم يَمرَّ العامُ حتَّى اِجتمعنا بذلك الموضِعِ عنده، ونُسخَ حُكمُ الثلاثين سنة.

ومنها: أَنَّ بعضَ أطباء الجبل شدَّدتْ عليه الحكومةُ الإسبانِيةُ ـ دمَّرها اللهُ ـ في التداوي، وأرادتْ مَنْعَه منه. فجاء إلى الشيخ فقال له:''لا تَخفْ فإِنَّهم سيأتون أَنفسهم لِلتداوي عندك''. فكان ذلك بعد وفاة الشيخ رضي الله عنه بنحو العامِ لـمَّا وقعت الحربُ بإِسْبانيا وكَثُر الجرحَى المنكسرة عِظامُهم، فكانوا يُرسلونَهم لِلتَّداوي عنده.

ومنها: أَنَّه أرسل يوماً لرجلٍ خيَّاطٍ، وأمره أَنْ يَخِيطَ له جلَّابةً ويُحضِرَها في اليوم الثاني. فاِعتذر بِأنَّه لايخيط بالليل لِضررٍ يعتريه عند الخياطة بالليل، وإنما يَخيط بالنهار منذ زمنٍ طويلٍ لأجل الضرر المذكور. فلمَّا رجع إليه الرسولُ بذلك، أعطاه شمعةً وقال:''قُلْ له يُوقِدها ويَخيطُ على ضوئِها ولايَخافُ مِنْ شيءٍ''. ففعل فأَذْهبَ اللهُ عنه ذلك الدَّاءَ ورجع إلى حالته الأولى، ولايزال كذلك إلى اليوم.

ومنها: أَنَّ بعض الصادقين حدَّث عنه أَنَّه لَمَّا كان وقتُ الجهاد بالقبيلة الأَنْجرِيَةِ، وكانت وقْعةُ صَدِينَة وكنتُ حاضراً بها، رأيتُ الشيخَ وقتَ المَعْمَعةِ في جهةٍ فقصدتُه للسلام عليه، فلم أَرَ له أثراً وكان وقته بِطَنْجة لم يَخرج منها رضي الله عنه.

وفاته: كان رضي الله عنه مريضاً بِضعف القلبِ والخفقان مصحوباً معه مِنْ مدةٍ طويلةٍ، إِلَّا أَنَّه لم يكن ظاهراً فيه إِلَّا في بعض الأحيان. ثم في أواخر شهر رمضان قوِيَ فيه، إِلَّا أنه لم يُلزِمُه الفراش، فكان يَخرج لِمحلِّ مقابلة الزُّوار والضيوف. ولَمَّا كان يوم عِيدِ شوَّال قابلَ كثيراً مِنَ الناس على عادتِه، وصرَّح لبعضهم بِأَنَّ هذا آخر اِجتماعٍ بينَنا.

قلتُ: وسمعتُه يقول قَبل وفاتِه بِيومين أو ثلاثة لِلفقِيهيْنِ السُّكيرِجْ والسُّمِيحِي أثناء مذاكرةٍ معهما:''لا عيشَ إِلَّا عيش الآخرة''، ولم أَتفطن إلى أنه كان يُشير بذلك إلى اِنتقاله القريب إلى الدار الآخرة، حتى فارقَنا بثلاثة أيامٍ.

وعند قُربِ الانتقال اِشتدَّ به الحالُ، فجمع أهلَه ومَنْ كان حاضراً مِنْ أولاده، وأوصاهم فحَثَّهم على التقوى والتمسكِ بالدِّينِ والعملِ بِالسُّنةِ، واِجتنابِ البدعةِ، وملازمةِ ذِكرِ اللهِ تعالى. ولَمَّا كان يوم الأربعاء سادس شوال اِشتدَّ عليه الحالُ أكثر مِمَّا كان، وظهرتْ عليه علامةُ الانتقال، وأرسل إلى بعض الفقراء فحضروا إليه، فأَمَرهم بِذِكرِ الله تعالى أيضاً إلى قُربِ المغرب، فأمر

بِخروجهم. فدخل عليه أهلُه وأنجالُه ولَمْ تَمضِ إِلَّا هنيهة حتى فاضت روحُه وإنتقلَتْ إلى الرفيق الأعلَى، وذلك سنةَ أربع وخمسين وثلاثمائة وألف. وكانت له جنازةٌ لم تَرَ طنجة مِثلها منذ خلقها الله تعالى، وحضر الناسُ مِنْ سائر مُدنِ المغرب. وذُهِب بِجنازته إلى الجامِع الكبير لِلصلاة عليه بِها، لِكثرة الناس وإزدحام الخلق. ورُئِيَ اليهودُ يَبكون في بيوتِهم مِنْ مهابةِ ذلك المحفل، وما جُعل فيه مِنَ النور والبهاء. وتبرَّكَ الناسُ بِنعشِه، ووُزِّعتْ سجَّادةٌ كانت تحته خيوطاً للتبركِ. وأخذ الناسُ الماءَ الذي غُسِّل به بعد جمعِهِ مِنَ الأرض وشربوه، وبعضهم أخذه وأوصَى أَنْ يُرشَّ به كَفَنُه يوم موتِه.

ثم رُدَّ إلى الزاوية، ودُفِنَ ليلة الجمعة. وبُنيتْ على قبره قبَّةٌ عظيمةٌ، وقبرُه يُزار ويُتبرك به، رضي الله عنه وعنَى به، وأكرمنا بِمجاورتِه في دارِ كرامتِه، إِنَّه سميعٌ مجيبٌ. والحمد لله ربِّ العالمين.

ترجمةُ والدتِي رضي الله عنها

هيَ فاطمةُ الزَّهراء بِنتُ عبدِ الحفيظِ بنِ أحمدَ بنِ عَجِيبَة، دفينِ طَنجة، اِبنِ أحمدَ بنِ عَجِيبَة ـ صاحِبِ التفسير وغيرِه ـ بنِ محمدِ بنِ المَهدِي بنِ الحسينِ بن محمدِ بنِ عَجِيبَة الحجُوجِي بنِ عبدِ اللهِ بنِ عَجيبَة؛ ثمَّ إلى سيِّدي سَحْنُون بنِ مولاي إبراهيمَ بنِ محمدِ بنِ مُوسَى بنِ عبدِ اللهِ، ثمَّ إلى مولاي أحمدَ بنِ إدريس الأَصغَرِ بنِ إدريس الأكبر رضي الله عنهم أجمعين. هكذا في ''فهرست القطب أحمد بنِ عجيبة رضي الله عنه''، وأطال في تحقيق ذلك.

كانت رضي الله عنها مِمَّنْ تخلَّقتْ بالأخلاق المحمدية على التحقيق، وشربتْ مِنْ عين مدد الشيخ الوالد رضي الله عنه، فأخذتْ منه ما كان يتحلَّى به مِنْ شريف الخصال، وعظيمِ الشمائل. وإقتدتْ به في الأفعال والأقوال فنالت بذلك جليلَ الثناء وعظيم الفضائل.

وأنا وإِنْ كنتُ لا أعرفها، لأَنَّها توفيتْ رضي الله عنها وتركتْنِي اِبنَ سنتين أو ثلاثة، فقد سمعتُ أخبارَها ممن عاشرها مِنْ أهل الدار ومِنْ غيرهنَّ، بل سمعتُ الكثيرَ مِنْ أحوالِها الشريفة وسيرتِها المنيفة مِنْ مولانا الوالد رضي الله عنه. فإِنَّه كان كثيرَ الثناء عليها والإشادة بأخلاقها، والشهادة لها بالمزية والخصوصية، وإثبات الولاية والمعرفة. كما سمعتُ الكثيرَ مِنْ شمائلها العظيمة

التي لا توجد في نساء هذا العصر ولا نساءِ مَنْ قَبْله، مِنَ الرجال الذين كانوا يَلزمون خدمة الدار، ومِنَ الذين كانوا يَرِدُونَ على الشيخ ضيوفاً وزُواراً. فإنَّهم كلَّهم يحكون عنها مِنْ حَميدِ الأخلاق وجميلِ الخصال ما يَستحيل وجودَهُ في نساء هذا العصر الصالحات، مِنَ الإيثارِ والعطفِ، والكرمِ والجودِ، والسؤالِ عن مريضِهم وعمَّن غاب منهم، وتعاهدهم بالمأكل والمشرب، وتفقُّد أحوالِهم الساعة بعد الأخرى، وعدم تكليفهم مِنَ الأعمال بِما يصعب أو يشقُّ عليهم. وإذا حضر أحدُ الملازِمينَ للبابِ فلا يُكلَّفُ بِعملٍ قبل إحضارِ الطعام له وتَنجِيزِ ما يَحتاجه منه.

وقد أجمعَتْ على وصفِها بهذا وبغيره مِنَ التواضع والعِبادة، وحُبِّ الفقراء ومَجالِسِ الذِّكر، وكراهيةِ الخوضِ فيما لايعنِي، ومحبتِّها للشيخ رضي الله عنه وحبِّه لَها، ومساعدتِها له في كلِّ ما يريد ويُحبُّ، وخِدمتِها له خدمة التلميذِ للشيخ، لا خدمةَ الزوجةِ للزوج كما هي عادةُ النساء. **أقول**: أجمعَتْ على الإخبارِ بهذا الرجالُ والنساءُ، ونَقَله الصغيرُ والكبيرُ مِمَّا أفاد القطعَ والتواترَ عند الس امع.

وأَمَّا محبةُ الشيخِ لها وثناؤُه عليها الثناء العاطر، وحزنُه علَى مفارقتِها وموتِها، فذلك مِمَّا يَنقلُه عنه الرجالُ والنساءُ وسمعناه مِنَ العددِ الجمِّ منهم. وقد وقفتُ على كتابٍ لِمولانا الوالد كَتَبه لِبعضهم يُجيبه عن تعزيتِه في الوالدة، ويقول له فيه بعد الدِّيباجة: ''.. وصلَ كتابُكم الشريفُ بالتعزيةِ في الشَّريفَةِ رحمها الله وألحقنا بِصالِحِ سلَفِها، وبارك فيكم وحفظكم. وهو المسؤول سبحانه أَنْ يُلحِقَنا بِها مؤمنين، ويَحشرنا جميعاً تحت لواء سيِّدِ المرسلين، ورزقنا الصبرَ والتأييدَ. فلقد أخذَتْ مِنَّا كلَّ مأخذٍ، ووَجِدْنا عليها وجداً لو وُضِع على أصلبِ حجرٍ لَأثَّرَ فيه، ولم نتأثَّر مِنْ فِراقِها الجسميِّ، بل مِنَ الروحيِّ الذي قَلَّ أَنْ يوجَدَ في نساء الزمان مع ما كانت عليه مِنَ المحبَّةِ في الفقراء عموماً، وفيكَ وفي إخوانك خصوصاً، والاعتناءِ بِشأنِهم وشأنِكم. ضاعف اللهُ عليها سوابغَ الرَّحَمات..''اهـ.

ولها رضي الله عنها كراماتٌ يَحكيها عنها أولادُها ومَنْ عاشرها مِنَ النساء والأقارب. ومِنْ أعظم كراماتِها التي تدلُّ على رسوخِها في الولاية كما أخبر عنها الشيخُ رضي الله عنه، وكشْفِها الصريحِ الذي يدلُّ على عُلوِّ المقام في المعرفة والقُربةِ، ما سمعتُه مِنْ أَبِي الفَيْضِ يَحكِيه عنها، أَنَّها قالت له ذات يومٍ: ''سَيأتِي عليكم وقتٌ صعبٌ لِلغايةِ.. ''. وقال:'' لَمْ يظهر معنَى هذا القول إِلَّا في هذه السِّنين الأخيرة، وذلك ما يَقربُ مِنْ ثلاثِينَ سنة على مرور وفاتِها، حيث ظهر لنا مِنَ الأمور مالم يَكن في الحساب''.

قلتُ: وأبُو الفيْضِ لَمَّا قال هذا القولَ في حَمْلِ كلامِها على ماحمله عليه، كان لَم ينزل بِنَا ما نزل مِنَ الكرب، بِسبب اِعتقاله وبُعدِه عن منزله. فلا شكَّ أنها كانت تُشير رضي الله عنها إلى هذه الحادثة، مع ما وقع فيها مِنَ الأمور العجيبة مِمَّن كان يَزعم صحبَتَنا وأُخوَّتَنا ومَحبَّتَنا، الأمر الذي جعل الإنسان كأنه لم يمكث في هذه البلدة السنين الطوال، ولم يعاشر فيها أحداً ولَم يَصِل معروفُه وخَيْرُهُ إلى الكثير منهم. وإلى الله تُرجع الأمورُ. فهذا منها رضي الله عنها كشْفٌ كَفَلَقِ الصبحِ، وإخبارٌ بِما سيحدث بعد ثلاثين سنة.

وقد تَرْجَمها الشقيقُ أَبُو الفَيْضِ في ''سُبْحَة العقيق'' فقال: [((هي السيدةُ الجليلةُ، الشريفةُ، الصالحة العارفة بالله تعالى، صاحِبةُ الكشفِ الصَّريحِ والفِراسةِ الصادقةِ، فاطمةُ الزهراءِ بِنتُ الشيخِ الجليلِ الزاهدِ الناسكِ، الصالحِ القائمِ، التَّالي لِكتابِ الله تعالى، الصُّوفِيِّ، العارفِ بالله سيدي عبدِ الحفيظِ بنِ الشيخِ الإمامِ العلَّامةِ العارفِ سيدي أحمدَ بنِ عجِيبة، دفِينِ طنجة، اِبنِ الشيخِ الإمامِ العارفِ الشَّهيرِ سيدي أحمدَ بنِ عجيبة، صاحِبِ التفسير وشرْحِ الحِكَمِ، وغيرهما مِنَ المؤلَّفاتِ، دفِينِ الزّمِّيج.

كانت رضي الله عنها مِمَّنْ أسعدها الحظُّ ووافاها السَّعدُ بِخدمةِ الشيخ الوالد قدَّس الله روحَه وسرَّه، وكانت تعاملُه معاملةَ التلميذِ الصادقِ المُخلصِ لِلشيخِ الكاملِ المُربِّي، لا معاملةَ الزوجةِ للزوج، قائمةً بشؤون الفقراء والضيوف الذين لاينقطعون في وقتٍ مِنَ الأوقات، مُؤْثرةً لِرضا الله تعالى بِخدمتهم والقيام بِحقوقِهم عن مصالحِ نفسِها والقيامِ بكامل حقوقِها، لا تَملُّ ولا تَضجر مِنْ ذلك، ولا مِنْ غيْبةِ الشيخِ طول يومِه وأكثر لَيلِه مع الضيوف والزوار. فنالت منه بذلك معرفةَ الله تعالى مع ما كانت عليه مِنْ عظيم التقوى وجميلِ الأخلاقِ الحسنةِ، مع الكبير والصغير، والجليل والحقير، والغنيّ و الفقير. كثيرةَ الصدقة والبرّ والإحسان، لاسيما مع ذوِي الرَّحِمِ الكاشِحِ المُعادِي، عملًا بِالسُّنة النَّبوية، وقياماً بأوامر الشرع المطهرة، حسبما كان يؤدِّبُها به ويُهذِّبها مولانا الشيخُ قدَّس الله سِرَّه.

فكانت تسير بسيرته وتقتدي به في الحِلْمِ والصَّفحِ، والعفوِ ومقابلةِ الإساءةِ بالإحسان، إذ كان لها مِنْ أقاربها الكثير مِمَّن يَحسدها ويُؤذيها بأنواعٍ مِنَ الإذايات، وهي لا تفْتأُ تتعاهدهم بِالصِّلاتِ والهدايا مِنْ مالٍ وملبوسٍ ومأكولٍ وغيرِ ذلك، كلٌّ علَى قدرِ مقامِه.

وكانت شديدةَ التعظيمِ لِجانِب الله، شديدةَ الغيرة على أهلِ الله، سريعةَ الدَّمعةِ لا تذكر بشيءٍ إلَّا بَكتْ رغبةً ورهبةً، بِحسب الأحوال والواردات، يَغلبُ عليها الرجاءُ مرةً والخوفُ أخرى.

ولاحتْ عليها في أواخر أيامها لوائحُ العرفان، فصار يَكثر منها الكشفُ خصوصاً مع أولادِها، إلَّا أنها كانت تَتَستَّرُ فتقول مثلاً: ''الذي يَظهرُ لي فيكَ أنَّكَ فعلتَ اليوم كذا وكذا، أو ذهبتَ إلى كذا، وأنت اليومَ مشتغلٌ بكذا..''، وربما صرَّحتْ بذلك في بعض الأحيان.

وقالت لي يوماً في سنة سبعٍ أو ثَمانٍ وثلاثين:''يا ولدِي، سيمرُّ عليكم وقتٌ صعبٌ للغايةِ''. ولم أحفلْ بِقولها حتى وقعْنا في ذلك الوقت الآن، بعد وفاتِها بأربعة عشر عاماً فأزْيَد. خفَّف الله تعالى ما نزل ولَطَفَ بعباده المؤمنين بِفضلِه وجودِه وكرمِه. آمين.

ورأتنِي ذاتَ يومٍ آكلُ مُخًّا، فنهتْنِي عنه وقالت: ''لا تأكله فإنَّه يَضرُّك '' . فتعجبتُ مِنْ قولِها ولم أفهم له معنىً إلى أنْ ظهرَ بي الحَصَى في الكِلي، بعد مقالتِها هاته بأزيد مِنْ عشرة أعوامٍ وبعد وفاتِها بنحو العامين. ولَمَّا سألتُ الطبيبَ أخبرني أنَّ مِمَّا يَنشأ عنه الحصى المُخَّ والكبدةَ وما أشبههما مِنْ كلِّ لَزجٍ، وكذلك رأيتُه في كُتب الطِّبِّ.

ولَمَّا توفيتْ، دخلتُ يوماً على الشيخ رضي الله عنه وهو يَبكي، فقال لي: ''الناسُ يظنُّونَ أنَّنا نَبكي على المرأة، ونحن نَبكي على أمرٍ آخرَ كانت تُشاركنا فيه لا يَعرفه الناس''.

ولَمَّا توجهتُ إلى القاهرة في رحلتِي الثانية بعد وفاتِها رضي الله عنها، اِجتمعتُ بِبَعض أهلِ الجَذْبِ وأَرباب الأحوال، فقال لي مِنْ غيرِ سابِقِ خلطةٍ ومعرفةٍ: ''والدتُكَ كانت مِنْ أكابِرِ أهلِ الله''.

وحدَّثني الشريفُ الجليلُ، الصالحُ التَّقيُّ، الصُّوفيُّ الناسكُ، سيِّدي هشامُ بنُ الصدِّيق قال:

''حدَّثني جماعةٌ أنهم سمعوا مِنَ الشيخ رضي الله عنه أنَّه قال عن السيدة المذكورة أنَّها بلغَتْ رتبةَ القُطْبِيَّةِ عند خروج روحِها، فقال له بعضُ الحاضرين: وما السِّرُّ في ذلك ؟ فقال: لِيَكونَ لها الحقُّ في حضور الدِّيوان مع الأولياء، إذ لو تَقطَّبتْ بعد خروجِ الرُّوحِ لَمَا أَمكنَ ذلك، لِأَنَّ مِنْ شَرطِه أَنْ يكون المرءُ قد حلَّ المقامَ المذكورَ وهو لا يزال في دار الدُّنيا''.

ولَمَّا قرُبتْ وفاتُها بنحو الخمسة أيام، كانت تناديني وتَطلبُ مِنِّي أَنْ أَجلسَ أمامَها،

فمكَثتُ يوماً قليلاً وقُمتُ، فقالت لي: ''اِجلِسْ فلعلَّكَ لا تَشبع النظر إليَّ بعد هذا''. فكأنَّها كانت تُشير إلَى وفاتِها ونحن في غفلةٍ عن ذلك.

ومِنْ أعظم كراماتِها، أنَّنا حفرنا عليها بعد دَفْنِها بأربعة عشر عاماً، وذلك بعد وفاةِ الشيخِ الوالدِ لِنَنقلَها إلى جنبِه، فوجدناها كأنَّها دُفِنتْ تلك الساعة، مع أنَّ صندوقَ الخشب الجديد الذي دُفنتْ فيه صار كالرَّماد، رضي الله عنها وعنَى بها.

وقد ذَكَر هذا مع شيءٍ مِنْ ترجمتِها، العلَّامةُ المؤرخُ الفقيهُ أبُو عبدِ الله سْكِيرج في ''نُبذة التحقيق''، فقال: ((ولا بأس أنْ نَذكر أيضاً زوجتَه سابقاً، السيدةَ الصالحةَ مولاتنا الشريفة أمَّ الأنوار، السيدة فاطمةَ الزهراء بنتَ العارفِ بالله سيِّدي عبدِ الحفيظِ بنِ الوليِّ الصالحِ سيدي أحمدَ بنِ عجِيبة دفينِ عَقْبَة أَحْجاوي مِنْ طَنجة. وهذه السيدة هي أُمُّ أولادِ الشيخ رضي الله عنه، العلماءِ الأبرارِ الأماجدِ الأخيارِ، المحدِّث الأشهر سيِّدي أحمد خليفة الشيخِ الآن، والأُصولي الأكبر سيِّدي عبد الله، والفقيه الصُّوفي الأعطر سيِّدي الزَّمزمي، والشاب الزَّكي الأنور سيِّدي عبد الحيِّ، والشاب السَّنِيِّ الأنور سيِّدي عبد العزيز، وإناثٍ سيِّداتٍ طاهراتٍ.

كانت هذه السيدة المباركة كثيرةَ الأذكارِ، والتَّهجدِ في الأسحار، مع حزمٍ وضبطٍ لِشؤونها البيتية، ذات أخلاقٍ طيبةٍ وأحوالٍ شريفةٍ مرضيةٍ، يُثني عليها كلُّ مَنْ يعرفها مِنَ النساء مع الصدق والجدِّ في معاملات مَنْ يعاملها وتُعامله. وكان الناس يَقصدونها للتبرك بِرُقاها وأدعيتِها الصالحة.

سمعتُ هذا مِمَّن أعتمده، قال: وربَّما جاء مُلتمِسُ ذلك مِنْ دُشُورٍ بعيدةٍ، وربَّما جاء بِثوبِ الأليم، ويَقفُ بِباب الدار حتَّى تتلو السيدةُ ما تتلوه مِنْ أذكارٍ وغيره، ويُرفعُ ثوبُ المريضِ إليه، ويأتيه الشِّفاء بإذن الله تعالى.

توفيتْ رحمها الله تعالى مِنْ مخاض الولادة يوم الاثنين الثاني والعشرين مِنْ رمضان المعظم، سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف، ودُفنتْ بِقُبَّة الزاوية السابق ذِكْرها، المجدَّدَة الآن كما سبق. وصادف الحال مجيء اِبنِها الأكبر المُحدِّث سيِّدي أحمد، لِصِلَةِ رَحِمِه بها وبوالده وأهله مِنْ مِصْر القاهرة، حيث كان يطلب العِلم بِها، وذلكِ في شهر شعبان المتَّصِل بِشهر وفاتِها. وعلى لسانه كنتُ قلتُ في رثائِها - فَذَكر قصيدةً في أزيد مِنْ عشرين بيتاً - ثم قال: ولمَّا أخذ في توسيع الزاويَة المباركة بعد دَفْنِ السَّيِّدِ بِها، ظهر له حفظه الله نَقْلَ السيدةِ والدتِه إلى قرب السيِّدِ والدِه، لِيَضع

عليهما دَربوزاً واحداً، حيث كانت مدفونةً في الزاوية على بُعد خمسة وعشرين ذراعاً مِنْ قبرِه.

فباشر ذلك بالحفر عليها ليلةَ الجمعة لِثلاث عشرة خلَتْ مِنْ ثانِي الرَّبِيعَين مِنْ سنة خمس وخمسين، فحضر مَن عَدا سيِّدي أحمد وسيِّدي عبد العزيز مِنْ أولادِها، إذْ كانا في زيارة الشيخ مولانا عبدِ السلامِ بنِ مَشِيش رضي الله عنه.

قال المُحدِّث لي: ولـمَّا كشفوا عن صندوق جُثَّتِها أَلْفَوْهُ على شدِّه، إلَّا أنَّهم لـمَّا حاولوا زحزحتَه تَفكَّكَ وانْحلَّ لِتلاشيه وثِقْلِ الجُثَّةِ المذكورة، إذ وجدوها كأنَّها أُنْزِلَتْ بِقبرِها في تلك الآونة. فاضطروا أَنْ يستحضروا أغطيةً وما يُناسِبُ لِلسَّتر عند النقل.

حدثنِي مُباشِرُ الحفر عليها الفقيرُ المُنتَسِبُ السيدُ عبدُ القادرِ العَرُوسِي أنَّه لـمَّا كشف عن الصندوق مدَّ يده إليه فأَلْفاه متلاشياً، وأسفله صار كالرَّماد الأبيض، قال: فأخذتُ قبضةً منه وشممتُها فإذا رائحتها كالغَالِيَةِ القديمة أو ما أشبهها، ولَمحتُ الكَفَنَ لا زال أبيض نقيًّا لم يَزل على جِدَّتِه. فأخبرتُ الحاضرين، فَسارعَ أنجالُها الحاضِرون للقبرِ وفي مقدِّمتهم السيِّد الزمزمي، وهو الذي مدَّ يدَه أولاً فلَمَسَ طرف الكفن يَختبره، فوجده صحيحاً لم يؤثر فيه طولُ نحو أربع عشرة سنة، فاختبره بِكِلْتا يديه يريد تمزيقَ قطعةٍ منه تحقيقاً لما ذكر، فإذَا هو صحيحٌ كأنَّما كُفِّنتْ به في تلك الساعة.

قال: وكُنَّا جعلنا صندوقاً جديداً آخر إستعداداً لِحَملِها فيه، وبه حُمِلتْ، حَمَلها أولادُها الثلاثُ ومَنْ حَضر معهم، ثم لَحِقَ بِهم جمعٌ مِنَ الفقراء كانوا في وليمةٍ وحضروا إلى الزاوية في تلك الساعة، وهُمْ زُهاءَ أربعة عشر. فحملوها معهم، وذلك على الساعة الثانية عشر تقريباً مِنْ ليلةِ الجمعة المذكورة. وأَلْفيتُ ذاتَها الكريمةَ على حالها، لا أثر للتغيُّرِ فيها بِنوعٍ ما، بل لم تَزلْ ناعمةً ذات طراوةٍ نديَّةٍ. تَحقق ذلك مِنْ معاينتِها على كمالِها وهيأتِها التي وُضِعتْ عليها، بحيث كأنَّها جسدُ ميِّتٍ وُضع بِقبرِه الآن، ومِنه حُملتْ في كفنِها تامةَ الهيأة للصندوق الجديدِ فوُضعتْ فيه بِلَا غطاءٍ، فعايَنَها جميعُ الحاضرين. وأعانوا أخيراً على حملِها إلى قبرها الجديد الملاصِقِ لِقبرِ زوجِها السيِّدِ قدِّس سرُّه.

ولا عجب في هذا وأكثر منه، فإنَّ الدُّرَّ مِنْ معدنِه، والسِّرَّ مِنْ منبعِهِ وموطِنِه، فقد كانت السيدةُ كما قلنا مِنَ الصالحات العابداتِ، ومِنَ الذَّاكراتِ المُكثراتِ الجليلاتِ. كنتُ مرةً أتذاكرُ مع

السَّيد قدِّس سرُّه في عِبادة بعض السيدات وُصِفتْ لي مِنْ قرابتِه، فقال لي: ''ذلك صحيحٌ لأنَّها مِنْ تربيةِ الشريفةِ عندنان التي تَسبقنِي لِقِيام الليل، طال الليلُ أو قَصُر '' اهـ

وكيف وهي مع هذا مِنْ شجرةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء، أخرجَ اللهُ مِنْ صلبِها هؤلاء السَّادات العلماء القادات. وقد ذَيَّل العلَّامةُ الأَجْهوري قَولَ العلَّامةِ التَّتائِي رحم الله الجميعَ:

لَا تَأكلُ الأرضُ جِسماً لِلنَّبِي وَلَا لِعَالِمٍ وشَهِيدِ قَتْلِ مُعتَرَك

وَلا لِقارِىءِ قُرآنٍ وَمُحتَسِبٍ أذانه لِلإلاهِ مُجْري الفَلَك

بِقولِه:

وزِيدَ مَنْ صار صِدِّيقاً كذلك مَنْ غَدا مُحِبًّا لِلربِّ الواحِدِ المَلِك

ومَنْ يَموتُ بِطَعنٍ والرِّباطِ كذا كثير ذِكْرٍ وهذا أعظَمُ النُّسُك

وقد جَمعتْ هي رحمةُ الله عليها مِنْ هذه الأوصاف الكمالية جُلها، ومُنِحت ما نَشر الله به لِلمُصدِّقين فضلها، زِدْ عليه أَنَّ الحسنة في نفسِها حسنة، وهي مِنْ بيتِ النبوة أحسنُ كما لا يخفَى..)) اهـ.

وأظن أَنَّ الذي حكَى هذه الترجمة أو أكثرَها للفقيه المذكورِ، زوجته الأولى. فإِنَّها كانت تُحبُّ الوالدةَ وتعتقدها وتتردد إلى زيارتها، وتوفيتْ رحمها الله تعالى بَعدَها.

ولَمْ تُعمِّر الوالدةُ رضي الله عنها، بل توفيتْ عن ستٍّ وثلاثين سنة، لأَنَّها وُلِدتْ فيما قرأتُه بخطِّ والدِها في ربيع سنة خمسٍ وثلاثمائة وألف، وكانت وفاتُها كما تقدَّم سنة إحدَى وأربعين.))] اهـ.

قلتُ: وحكَى لي بعضُ إخوانِنا ـ في حياة الوالد رضي الله عنه ـ رؤيا، رأَى فيها الأخَ الصادقَ المحبَّ السالكَ الحاج عبدَ الكريمِ قَرُّوق رحمه الله تعالى، فسأله عن الوالدة، فقال له: لا أجتمع بها. وطلب منِّي أَنْ أَقُصَّها على مولانا الوالد رضي الله عنه، فلمَّا قصصتُها عليه قال لي: ''إِنَّ مقامَ الوالدة أعلَى مِنْ مقامِه بِمراحل، فلا يُمكِنه أَنْ يراها''.

قال في ''نَسَمات وادِي العَقِيق'': ((وكان الشيخ رضي الله عنه إذا سمع أحداً ينادي اِمرأةً أو صبيَّةً بِإسم: (الزُّهْرة)، تغيَّر حالُه بسبب تذكُّرِ أخلاقها الكريمة وأحوالِها الطيِّبة المُنِيفة.

وكان بعد وفاتِها أراد أَنْ يتزوج بِامرأةٍ مِنْ ذواتِ الحسبِ والبيوت، اِسمُها على اِسمِ صاحبةِ الترجمة، فتَركها لِما ذكرناه)).

وقال فيها أيضاً: ((وكفَى هذه السيدة فخراً، ما أنتجه رحِمُها الطاهرُ مِنْ أنجالِها العلماءِ الفضلاءِ الأجِلَّةِ، البُدورِ الأهلَّةِ، الذين اِفتخر بِهم الزمانُ والمكانُ، وما أَظهره اللهُ عليها مِنْ جليلِ كراماتِه التي لا تَظهر إِلَّا على أكابرِ أوليائِه مِنْ حِفْظِ جسدِها الطاهرِ في قبرها، فلَمْ يأكله الترابُ، ولم يغيِّره مرورُ الشهور والأعوام)).

ثم قال بعد ذِكرِ قصةِ نقْلِها مِنْ قبرِها الأول: ((وبالجملةِ، فمناقبُ هذه السيدة ومحاسنُها كثيرةٌ جليلةٌ، ثم قال: توفيتْ رحمها الله وأَبردَ ضريحَها بنسائِمِ رِضاه ورضوانِه مِنْ مَخاضِ الولادة يوم الاثنين الثاني والعشرين مِنْ رمضان المعظم، سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وألف. وكانت لها جنازة كُبرى، وحضرها جمٌّ غفيرٌ مِنْ عموم أهل المدينة وخُصوصِها، في محفلٍ عظيمٍ ومشهدٍ كبيرٍ كريمٍ، اِغتناماً للأجر عموماً، واِلتماساً لِبركتِها خصوصاً، حسبما جرَتْ به عادة الله في جنائز أوليائه وصلحائه مِنْ مسارعةِ سعداء هذه الأُمَّةِ الشريفةِ إلى اِغتنام حضور جنازتهم، ومبادرتِهم إلى اِلتماسِ بركة مشهدِهم الذي لا يَخيبُ مَنْ حضره وقصده، رحمها الله وألحقنا بها وبأولياء الله على الإيمان بالله الكامل)) اهـ.

قلتُ: وقد منَّ الله سبحانه وتعالى عليها بِمصاحبة الشيخ في كثيرٍ مِنْ أسفاره، وأدَّتْ معه فريضةَ الحجِّ، وزارت قبرَ الرسول عليه الصلاة والسلام، وطافت معه البلاد شرقَها وغربَها، وزارت الأماكنَ المقدَّسةَ.

وسمعتُ مِنْ كثيرٍ مِمَّنْ سمعوا الشيخَ يقول مراراً: "إنَّ أيامَ سرورِه خُتمتْ بِوفاتِها ". كما قال أيضاً: " لَمْ أَحْسبْ حسابَ الدار وهَمَّ شؤونِها والقيامَ بواجب الضيوف والفقراء إِلَّا بعد اِنتقالها ". لِما كان لها رضي الله عنها مِنْ مزيد العناية بما يهتمُّ الوالدُ بشأنه مِنْ ضيوفٍ وغيرِ ذلك. رحمها الله وألحقني بِها بِفضلِه ومنِّهِ في دار الكرامة والنعيم. والحمد لله ربِّ العالمين.

فصـل

فيمن ترجم لوالدي المصنف

وقد ترجم في ''سُبحة العقيق'' وغيرِه لوالـدِ الوالـدِ، العارف الشهير سيّدي الحاج الصِدِّيق، ولوالده سيّدي الحاج أحمدَ بنِ عبدِ المؤمن، وللجدِّ الأدنَى والأعلَى الذي اِشتهرتْ به عائلتُنا، وذكر لكلِّ واحدٍ منهم مناقب وكرامات. كما ترجم لوالدة الوالد رضي الله عنها، وذكر لها مناقبَ شريفةً، وترجم لوالدها وجدِّها. وترجم أيضاً لوالدِ الوالدةِ وجدِّها.

فإذا أردتَ الوقوف على تلك المآثر التي كلها مفاخِر، فراجِعْها في ذلك الكتاب، وفي كتاب: ''العِقْد الفاخِر'' كِلاهما لِأَبِي الفَيْضِ.

وهذا آخرُ ما يسَّر اللهُ ذِكره مِنْ أحوالي وأخباري، وما أكرمني الله به وفضَّلنِي به علَى أبناء وقتي وعصري. وكان الفراغُ منه ظُهْرَ يوم الأربعاء خامس وعشري ربيع الثاني سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف.

والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه إلى يوم الدِّين، وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ أَفْضل الرسلِ، وعلى آله وصحبه أجمعين. وحَسبِيَ اللهُ ونِعمَ الوكِيل.